بسم الله الرحمن الرحيم

سورة «الطارق»

مَكِّيَّةٌ ، وهى سبع عشرة آية

قوله تعالى : وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ والسماءِ والطارِقِ ﴾ قَسَمان : « السماء » قَسَم ، و « الطارق » قَسَم . والطارق : النجم . وقد بينه الله تعالى بقوله : ﴿ ومَآ أدراكَ ما الطارِقُ . النَّجْمُ الثاقِبُ ﴾ . واختلف فيه ؛ فقيل : هو زُحَل : الكوكب الذى فى السماء السابعة ؛ ذكره محمد بن الحسن[1] فى تفسيره ، وذكر له أخبارا ، الله أعلم بصحتها . وقال ابن زيد : إنه الثُّريا . وعنه أيضا أنه زُحَل ؛ وقاله الفراء . ابن عباس : هو الجَدْى . وعنه أيضا وعن على بن أبى طالب — رضى الله عنهما — والفراء : « النجم الثاقِب » : نجم فى السماء السابعة ، لا يسكنها غيره من النجوم ؛ فإذا أخَذَت النجوم أمكنتها من السماء ، هبط فكان معها ، ثم يرجع إلى مكانه من السماء السابعة ، وهو زُحَل ؛ فهو طارق حين ينزل ، وطارق حين يصعد . وحكى الفراء : ثَقُبَ الطائر : إذا ارتفع وعلا . وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدا مع أبى طالب ، فانحط نجم ، فامتلأت الأرض نورا ، ففزِع أبو طالب ، وقال : أى شىء هذا ؟ فقال : "هذا نجم رُمِىَ به ، وهو آية من آيات الله" فعجِب أبو طالب ، ونزل : « والسماءِ والطارِقِ » . وروى عن ابن عباس أيضا « والسماءِ والطارِقِ » [قال : السماء][2] وما يطْرُق فيها . وعن

---

(١) لعل المراد به : أبو بكر العطار : محمد بن الحسن بن مقسم .　　(٢) زيادة من الطبرى .

ابن عباس وعطاء: « الثاقب » : الذى تُرمَى به الشياطين . قتادة : هو عام فى سائر النجوم؛ لأن طلوعها بليلٍ ، وكل من أتاك ليلا فهو طارق . قال :

ومِثلك حبلى قد طرقت ومرضعًا * فألهيتها عن ذى تمائم مُغيَلِ (١)

وقال :

ألم ترياني كلما جئت طارقا * وجدت بها طيبا وإنْ لم تَطَيَّب

فالطارق : النجم ، اسم جنس ، سمى بذلك لأنه يطرق ليلا ، ومنه الحديث : " نهى النبى صلى الله عليه وسلم أن يطرُق المسافر أهلَه ليلا ، كى تستحِدّ المُغيبة، وتمتشط الشعِثة (٢) " . والعرب تسمى كل قاصدٍ فى الليل طارقا . يقال : طرق فلان إذا جاء بليل . وقد طرُق يطرق طروقا، فهو طارق . ولابن الرومي (٣) :

يا راقدَ الليل مسرورا بأوّلهِ * إن الحوادث قد يطرُقن أسحارا

لاتفرحَنَّ بليل طاب أوله * فرب آخرِ ليلٍ أجّج النارا

وفى الصحاح : والطارق : النجم الذى يقال له كوكب الصبح . ومنه قول هند (٤) :

نحنُ بناتِ طارقِ * نمشى على النمارقِ

أى إن أبانا فى الشرف كالنجم المضىء . الماوردى : وأصل الطَّرْق : الدّق، ومنه سميت المِطرقة ، فسمى قاصدُ الليل طارقا، لاحتياجه فى الوصول إلى الدق . وقال قوم : إنه قد يكون نهارا . والعرب تقول ؛ أتيتك اليوم طَرْقتين : أى مرتين . ومنه قوله صلى الله عليه

---

(١) البيت لأمرئ القيس . والتمائم : التعاويذ التى تعلق فى عنق الصبى . وذو التمائم : هو الصبى . والمغيل : الذى تؤتى أمه وهى ترضعه . ويروى : « محول » بدل « مغيل » وهو الذى أتى عليه الحول .

(٢) الاستحداد : حلق العانة بالحديد . والمغيبة : التى غاب عنها زوجها . والشعثة : التى تلبد شعرها .

(٣) لم نعثر على هذين البيتين فى ديوان ابن الرومى . وقد أورد الجاحظ البيت الأول فى كتابه (الحيوان جـ ٦ ص ٥٠٨ طبع مطبعة الحلبى) غير منسوب . ولم يعرف أن الجاحظ يستشهد بشعر ابن الرومى . وقد توفى الجاحظ وكانت سن ابن الرومى ٣٤ على أن هذا الشعر ليس من روح ابن الرومى . وقد أورد أيضا الغزالى فى (الإحياء جـ ٣ ص ١٨٠ طبع الحلبى) البيت الأول ضمن ستة أبيات من وزنه وقافيته .

(٤) هى هند بنت بياضة بن رباح بن طارق الإيادى ، قالت هذا الرجز يوم أحد تحض على الحرب، والرجز بأكمله فى (اللسان : طرق) .

وسلم : " أعوذ بك من شر طوارِق الليل والنهار، إلا طارقا يطرق بخير يارحمن " . وقال جرير في الطروق :

طَـرَقَتْكَ صائدةُ القلوب وليس ذا * حينَ الزيارة فارجِعِي بسـلامِ

ثم بين فقال : ﴿ وما أدراكَ ماالطارق . النجمُ الثاقِبُ ﴾ والثاقب : المضيء . ومنه « شِهاب ثاقِب »[1] . يقال : ثَقَب يثْقُب ثُقُوبا وثقابة : إذا أضاء . وثُقُوبُه : ضوءه . والعرب تقول : أثقِب نارك ؛ أي أضئها . قال :

أذاعَ به في النـاسِ حتى كأنه * بعلياءَ نارٌ أُوقـدتْ بثَقُـوبِ

الثَّقوب : ما تشعل به النار من دُقاق العِيدان . وقال مجاهد : الثاقب : المتوهِّج . القشيرى : والمعظَم على أن الطارق والثاقب اسم جنس أريد به العُموم[2] ، كما ذكرنا عن مجاهد . ﴿وماأدراك ما الطارِق ﴾ تفخيما لشأن هذا المقسَمِ به . وقال سفيان : كل مافي القرآن « وما أدراك » ؟ فقد أخبره به . وكل شيء قال فيه « ومايدريك » : لم يخبره به .

قوله تعالى : إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾

قال قتادة : حَفَظة يحفظون عليك رِزقك وعملك وأجلك . وعنه أيضا قال : قرينـه يحفظ عليه عمله : من خير أو شر . وهذا هو جواب القسم . وقيل : الجواب « إنه على رجعِهِ لقادِر » في قول الترمذي : محمد بن علي . و « إن » : مخففة من الثقيلة ، و « ما » : مؤكدة ، أي إن كل نفس لعليها حافظ . وقيـل : المعنى إن كل نفس إلا عليها حافظ : يحفظها من الآفات ، حتى يُسلمها إلى القدر . قال الفراء : الحافظ من الله ، يحفظها حتى يسلمها إلى المقادير ، وقاله الكلبي . وقال أبو أُمامة : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " وُكِّل بالمؤمن مائة وستون ملكا يُذَبُّون عنه ما لم يقدر عليه . من ذلك البصر ، سبعة أملاك يذبون عنه ، كما يذب عن قصعة العسل الذباب . ولو وكِل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين " . وقراءة ابن عامر وعاصم وحمزة « لمَّا » بتشديد الميم ، أي ما كل نفس إلا عليها حافظ ، وهي لغة

(١) آية ١٠ سورة الصافات .   (٢) أي لم يرد به نجم معين ، كالثريا أو زحل ، كما قال بعض المفسرين .

هذيل . يقول قائلهم : نَشَدتك لمَّا قمت . الباقون بالتخفيف ، على أنها زائدة مؤكدة، كما ذكرنا . ونظير هذه الآية قوله تعالى: « له معقبات مِن بينِ يديهِ ومِن خلفه يحفظونه مِن أمرِ اللهِ (1) » على ماتقدم . وقيل : الحافظ هو الله سبحانه ؛ فلولا حفظه لها لم تبق . وقيل : الحافظ عليه عقله ، يرشده إلى مصالحه، ويكفه عن مضارّه .

قلت : العقل وغيره وسائط ، والحافظ فى الحقيقة هو الله جل وعز ؛ قال الله عز وجل : « فالله خيرٌ حافِظا (2) »، وقال : « قل من يكلؤكم بالليلِ والنهارِ مِن الرحمنِ (3) » . وما كان مثله .

قوله تعالى : فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان ﴾ أى ابن آدم ﴿ مِمَّ خُلِق ﴾؟ وجه الاتصال بماقبله توصية الإنسان بالنظر فى أول أمره وسنته الأولى ، حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه ؛ فيعمل ليوم الإعادة والجزاء، ولا يُملِي على حافظه إلا مايسره فى عاقبة أمره . و « مِمَّ خُلِق »؟ استفهام ؛ أى من أى شىء خلق ؟ ثم قال : ﴿ خُلِق ﴾ وهو جواب الاستفهام ﴿ مِن ماءٍ دافِقٍ ﴾ أى من المنِيّ . والدَّفْق : صب الماء، دفقت الماء أدفُقه دفقا : صببته، فهو ماء دافق، أى مدفوق؛ كما قالوا : سِرّ كاتم : أى مكتوم ؛ لأنه من قولك : دُفِق الماء، على مالم يُسَمّ فاعله . ولا يقال : دَفَق الماءُ (4) . ويقال : دفق الله رُوحَه : إذا دُعِى عليه بالموت . قال الفراء والأخفش : « من ماءٍ دافِقٍ » أى مصبوب فى الرّحِم . الزجاج : من ماء ذى اندفاق . يقال : دارع وفارس ونابل؛ أى ذو فرس، ودِرع، ونبل . وهذا مذهب سيبويه . فالدافق هو المندفق بشدّة قوته . وأراد ماءين : ماء الرجل وماء المرأة ؛ لأن الإنسان مخلوق منهما ، لكنْ جعلهما ماء واحد لامتزاجهما . وعن عكرمة عن ابن عباس : « دافِقٍ » لَزِج . ﴿ يخرج ﴾

---

(1) راجع جـ ٩ ص ٢٩١ (2) آية ٦٥ سورة يوسف . (3) آية ٤٢ سورة الأنبياء .

(4) بل يقال ذلك ، ونقله صاحب اللسان عن الليث . وانظره أيضا فى المصباح المنير للفيومى .

أى هـذا المـاء ﴿ مِن بينِ الصُّلْبِ ﴾ أى الظهر . وفيـه لغات أربع[1] : صُلْب، وصُلُب — وقرئ بهما — وصَلَب (بفتح اللام) ، وصالب (على وزن قالَب) ؛ ومنه قول العباس[2] :

* تُنْقَلُ من صالَبٍ إلى رَحِم *

﴿ والترائب ﴾ : أى الصدر، الواحدة : تَرِيبة؛ وهى موضع القِلادة من الصدر . قال :

مُهَفهفة بيضاء غيرُ مُفاضةٍ * ترائبُها مصقولةٌ كالسَّجَنْجَلِ[3]

والصُّلْب من الرجل ، والترائب من المرأة . قال ابن عباس : الترائب : موضع القلادة . وعنه : ما بين ثدييها؛ وقال عكرمة . ورُوِى عنه : يعنى ترائب المرأة : اليدين والرجلين والعينين؛ وبه قال الضحاك . وقال سعيد بن جبير : هو الجِيد . مجاهد : هو ما بين المنكِبين والصدر . وعنه : الصَّدر . وعنه : التراقى . وعن ابن جبير عن ابن عباس : الترائب : أربع أضلاع من هذا الجانب . وحكى الزجاج : أن الترائب أربع أضلاع من يمنة الصدر، وأربع أضلاع من يسرة الصدر . وقال معمر بن أبى حبيبة المَدَنىّ : الترائب عُصارة القلب ؛ ومنها يكون الولد . والمشهور من كلام العرب : أنها عظام الصدر والنحر[4] . وقال دُريد بن الصمة :

فإن تدبِروا نأخذْكُم فى ظهورِكُمْ * وإن تقبِلوا نأخذكم فى الترائب

وقال آخر :

وبدت كأن ترائبا من نحرها * جمرُ الغَضَى فى ساعدٍ تتوقد

وقال آخر :

والزعفرانُ على ترائِبِها * شرِق به اللبات والنحرُ[5]

---

(١) بل هى ثلاث فقط ؛ أما صلب بضمتين ، فضمة العين إتباع للفاء ، وليست لغة ثابتة (انظر تاج العروس : صلب) . (٢) هو ابن عبد المطلب ، يمدح النبي صلى الله عليه وسلم ، وتمام البيت :

* إذا مضى عالم بدا طبق *

(٣) البيت من معلقة امرئ القيس . والمهفهفة : الخفيفة اللحم ، التى ليست برهلة ولا ضخمة البطن . والمفاضة : المسترخية البطن . والسجنجل : المرآة . وقيل : سبيكة الفضة ، أو الزعفران ، أو ماء الذهب .

(٤) فى بعض نسخ الأصل : « أنها عظام النهد والصدر » .

(٥) البيت للخبل . وشرق الجسد بالطيب امتلأ فضاق . واللبات (جمع لبة) : موضع القلادة .

وعن عكرمة : الترائب : الصدر ؛ ثم أنشد :

* نِظامُ دُرٍّ على ترائبها *

وقال ذو الرمّة :

* ضَرَجْن البرود عن ترائب حرة[(١)] *

أى شققن . ويروى « ضرحن » بالحاء ؛ أى ألقين . وفى الصحاح : والتريبة : واحدة الترائب ، وهى عظام الصدر ، ما بين الترقوة والثَّنْدُوة .

قال الشاعر :

* أشرفَ ثدياها على التَّريبِ[(٢)] *

وقال المثقِّب العَبْدِىّ :

وِمن ذَهَبٍ يُسَنُّ[(٣)] على تَرِيبٍ * كلون العاج ليس بذى غُضونِ[(٤)]

[عن غير الجوهرىّ : الثندوة للرجل : بمنزلة الثدى للمرأة . وقال الأصمعىّ : مَغْرِز الثدى . وقال ابن السكيت : هى اللحم الذى حول الثدى ؛ إذا ضممت أولها همزت ، وإذا فتحت لم تهمز[(٥)]] . وفى التفسير : يخلق من ماء الرجل الذى يخرج من صلبه العظم والعصب . ومن ماء المرأة الذى يخرج من ترائبها اللحم والدّم ؛ وقاله الأعمش . وقد تقدّم مرفوعا فى أول سورة (آلِ عمران[(٦)]) . والحمد لله — وفى (الحجرات) « إنا خلقناكم مِن ذكرٍ وأنثى » وقد تقدّم[(٧)] . وقيل : إن ماء الرجل ينزل من الدماغ ، ثم يجتمع فى الأنثيين . وهذا لا يعارض قوله : « من بين الصلب » ؛ لأنه

---

(١) تمام البيت :

* ومن أعين قتلننا كل مقتل *

(٢) القائل : هو الأغلب العجلى . وعجز البيت :

* لم يعدوا التفليك فى النتوب *

وتفلك ثدى الجارية : استدار . والنتوب : النهود ، وهو ارتفاعه .

(٣) كذا فى بعض النسخ والطبرى . وفى بعضها : « يسر » بالراء . وفى روح المعانى : « يبين » . وفى اللسان وشعراء النصرانية « يلوح » . (٤) فى اللسان مادة (ترب) : « ... ليس له غضون » . والبيت من قصيدة مكسورة القافية ، مطلعها :

أفاطم قبل بينك متعينى * ومنعك ما سألت كأن تبينى

(٥) ما بين المربعين ساقط من بعض نسخ الأصل . (٦) راجع جـ ٤ ص ٧ (٧) راجع جـ ١٦ ص ٣٤٣

إن نزل من الدماغ، فإنما يمر بين الصلب والترائب . وقال قتادة : المعنى ويخرج من صلب الرجل وترائب المرأة . وحكى الفراء أن مثل هذا يأتى عن العرب؛ وعليه فيكون معنى من بين الصلب : من الصلب. وقال الحسن : المعنى : يخرج من صلب الرجل وترائب الرجل، ومن صلب المرأة وترائب المرأة . ثم إنا نعلم أن النطفة من جميع أجزاء البدن؛ ولذلك يُشْبه الرجل والديه كثيراً [١] . وهذه الحكمة فى غسل جميع الجسد من خروج المنى . وأيضا المكثر من الجماع يجد وجعا فى ظهره وصلبه ؛ وليس ذلك إلا لخلو صلبه عما كان محتبسا من الماء . وروى إسماعيل عن أهل مكة « يخرج من بين الصُّلُب » بضم اللام . ورُوِيت عن عيسى الثقفى . حكاه المهدوى وقال : من جعل المنىّ يخرج من بين صلب الرجل وترائبه، فالضمير فى « يخرج » للماء . ومن جعله من بين صلب الرجل وترائب المرأة، فالضمير للإنسان . وقرئ « الصَّلَب » ، بفتح الصاد واللام . وفيه أربعُ لغات [٢] : صُلْب وصُلُب وصَلَب وصَالَب . قال العجّاج :

* فى صَلَبٍ مثلِ العِنان المؤدَمِ *

وفى مدح النبىّ صلى الله عليه وسلم :

* تُنقَل من صَالَبٍ إلى رَحِمٍ [٣] *

الأبيات مشهورة معروفة. ﴿إنه﴾ أى إن الله جل ثناؤه ﴿على رَجْعِهِ﴾ أى على ردّ الماء فى الإحليل، ﴿لقادِر﴾ كذا قال مجاهد والضحاك. وعنهما أيضا أن المعنى : إنه على رد الماء فى الصلب؛ وقاله عكرمة . وعن الضحاك أيضا أن المعنى : إنه على ردّ الإنسان ماء كما كان لقادر . وعنه أيضا أن المعنى: إنه على ردّ الإنسان من الكِبَر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الكبر، لقادر . وكذا فى المهدوى. وفى الماوردى والثعلبى : إلى الصِّبا، ومن الصبا إلى النطفة. وقال ابن زيد: إنه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج، لقادر. وقال ابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة أيضا: إنه على ردّ الإنسان بعد الموت لقادر . وهو اختيار الطبرى . الثعلبى : وهو الأقوى؛ لقوله تعالى : « يومَ تُبْلَى السَّرائِر » . قال الماوردى : ويحتمل أنه على أن يعيده إلى الدنيا بعد بعثه فى الآخرة ؛ لأن الكفار يسألون الله تعالى فيها الرَّجْعة .

---

(١) وقال الأستاذ الإمام فى تفسير جزء (عم) : كنى بالصلب عن الرجل ، وبالترائب عن المرأة .
(٢) انظر ما سبق فى ص ٥ .　　(٣) تمام البيت * إذا بدا عالم بدا طبق *
وهو من قول للعباس بن عبد المطلب فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩)

فيه مسألتان :

الأولى — العامل فى « يومَ » — فى قول من جعل المعنى إنه على بعث الإنسان — قوله « لقادر » ، ولا يعمل فيه « رَجْعِه » لما فيه من التفرقة بين الصلة والموصول بخبر « إنّ » . وعلى الأقوال الأخر التى فى « إنه على رجْعِه لقادِر » ، يكون العامل فى « يومَ » فعل مضمر، ولا يعمل فيه « لقادر » ؛ لأن المراد فى الدنيا . و﴿ تُبْلَى ﴾ أى تمتحن وتختبر ؛ وقال أبو الغُول الطُّهوِى[1] :

ولا تَبْلَى بَسالَتُهم وإنْ هُم * صَلُوا بالحَرْب حِينا بعدَ حِينِ

ويروى « تبلى بَسالَتُهم » . فمن رواه « تُبلى » — بضم التاء — جعله من الاختبار، وتكون البسالة على هذه الرواية الكراهة ؛ كأنه قال : لا يُعرف لهم فيها كراهة . و « تُبْلَى » تُعرَف . قال الراجز :

قد كنتَ قبلَ اليوم تَزْدَرِينى * فاليومَ أَبْلُوكَ وتَبْتَلِينِى

أى أعرفك وتعرفنى . ومن رواه « تَبْلَى » — بفتح التاء — فالمعنى : أنهم لا يضعفون عن الحرب وإن تكررت عليهم زمانا بعد زمان . وذلك أن الأمور الشِّداد إذا تكررت على الإنسان هَدّته وأضعفته . وقيل : « تُبْلَى السرائر » : أى تخرج مخبآتها وتظهر، وهو كل ما كان استسره الإنسان من خير أو شر ، وأضمره من إيمان أو كفر ؛ كما قال الأحوص :

سيَبقَى[2] لها فى مُضْمَر القلب والحَشا * سريرةُ ودّ يوم تُبْلَى السَّرائرُ

---

(١) هو شاعر إسلامى، منسوب الى « طهية » ، بضم الطاء ، وهى أم قبيلة من العرب .

(٢) كذا ورد فى بعض نسخ الأصل و(خزانة الأدب جـ ١ ص ٣٢٢) وفى بعض نسخ الأصل ، والشعر والشعراء ، و (كتاب الأغانى جـ ٤ ص ٢٤٢ طبع دار الكتب المصرية) : « ستبلى لكم ... » .

الثـانية — رُوِى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ٱئتمن الله تعالى خلقه على أربع: على الصلاة، والصوم، والزكاة، والغُسل، وهي السرائر التي يختبرها الله عز وجل يوم القيامة". ذكره المهدوِيّ. وقال ٱبن عُمر قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "ثلاث من حافظ عليها فهو وليّ الله حقا، ومن اختانهنّ فهو عدوّ الله حقا: الصلاة، والصوم، والغُسل من الجنابة" ذكره الثعلبيّ. وذكر المـاوَرْدِيّ عن زيد بن أسلم: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الأمانة ثلاث: الصلاة، والصوم، والجنابة. استأمن الله عز وجل ٱبن آدم على الصلاة، فإن شاء قال صليت ولم يصل. استأمن الله عز وجل ٱبن آدم على الصوم، فإن شاء قال صمت ولم يصم. استأمن الله عز وجل ٱبن آدم على الجنابة، فإن شاء قال اغتسلت ولم يغتسل، اقرءوا إن شئتم «يوم تُبْلَى السرائر»"، وذكره الثعلبي عن عطاء. وقال مالك في رواية أشهب عنه، وسألته عن قوله تعالى: «يوم تبلى السرائر»: أبلغك أن الوضوء من السرائر؟ قال: قد بلغني ذلك فيما يقول الناس، فأما حديث أُحدّث به[(1)] فلا. والصلاة من السرائر، والصيام من السرائر، إن شاء قال صليت ولم يصـل. ومن السرائر ما في القلوب، يجزى الله به العباد. قال ٱبن العـربيّ: «قال ٱبن مسعود يُغفر للشهيد إلا الأمانة، والوضوء من الأمانة، والصلاة والزكاة من الأمانة، والوديعة من الأمانة، وأشدّ ذلك الوديعة؛ تُمَثَّل له على هيئتها يوم أخذها، فيرمى بها في قعر جهنم، فيقال له: أخرجها، فيتبعها فيجعلها في عنقه، فإذا رجا أن يخرج بها زلت منه، فيتبعها؛ فهو كذلك دَهْرَ الداهرين. وقال أُبيّ بن كعب: من الأمانة أن ٱئتُمِنتِ المرأة على فرجها. قال أشهب: قال لي سفيان: في الحَيضة والحمل، إن قالت لم أحِض وأنا حامل صُدّقت، ما لم تأت بمـا يعرف فيه أنها كاذبة». وفي الحديث: "غُسل الجنابة من الأمانة". وقال ابن عُمر: يُبدِى الله يوم القيامة كل سر خفيّ، فيكون زينا في الوجوه، وشينا في الوجوه. والله عالم بكل شيء، ولكن يظهر علامات الملائكة والمؤمنين.

---

(1) في ابن العربي: «أخذته».

قوله تعالى : فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فما له ﴾ أى للإنسان ﴿ من قوة ﴾ أى مَنَعة تمنعه . ﴿ ولا ناصر ﴾ ينصره مما نزل به . وعن عِكرمة « فما له من قوة ولا ناصر » قال : هؤلاء الملوك ، ما لهم يوم القيامة من قوة ولا ناصر . وقال سفيان : القوة : العَشيرة . والناصر: الحليف . وقيل : « فما له من قوة » فى بدنه . « ولا ناصر » من غيره يمتنع به من الله . وهو معنى قول قتادة .

قوله تعالى : وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ والسماءِ ذاتِ الرَّجْعِ ﴾ أى ذات المطر. ترجع كل سنة بمطر بعد مطر . كذا قال عامة المفسرين . وقال أهل اللغة : الرجْع : المطر ، وأنشدوا لِلْمُتَنَخِّل يصف سيفا شبهه بالماء :

أبيضُ كالرجْعِ رَسُوبٌ إذا * ما ثاخ فى مُحْتَفَلٍ يَخْتَلِى

[ثاخت قدمه فى الوحل تثوخ وتثيخ : خاضت وغابت فيه ؛ قاله الجوهرى] (١) .

قال الخليل : الرجع : المطر نفسه ، والرجع أيضا : نبات الربيع . وقيل : «ذاتِ الرجع» : أى ذات النفع . وقد يُسمى المطر أيضا أَوْبا ، كما يسمى رَجْعا ، قال :

رَبَّاء شَمَّاءُ لا يأوِى لِقُلتِها * إلا السحابُ وإلا الأَوْبُ والسَّبَلُ (٢)

---

(١) ما بين المربعين ذكر فى هامش بعض نسخ الأصل . والمحتفل : أعظم موضع فى الجسد . ويختلى : يقطع .

(٢) البيت للتنخل الهذلى . قال السكرى فى شرح هذا البيت : « رباء يربأ فوقها ؛ يقول لا يدنو اقلتها ، أى لرأسها . أى لا يعلو هذه الهضبة من طولها إلا السحاب والأوب . والأوب : رجوع النحل . والسبل : القطر حين يسبل » .

وقال عبد الرحمن بن زيد : الشمس والقمر والنجوم يَرْجعن فى السماء؛ تطلع من ناحية وتغيب فى أخرى . وقيل : ذات الملائكة؛ لرجوعهم إليها بأعمال العباد . وهذا قَسَم . ﴿ والأرضِ ذاتِ الصَّدْعِ ﴾ قَسَم آخر؛ أى تتصدّع عن النبات والشجر والثمار والأنهار؛ نظيره « ثم شَقَقْنا الأرض شقا »(١) ... الآية . والصدع : بمعنى الشّق؛ لأنه يصدع الأرض، فتنصدع به . وكأنه قال : والأرض ذات النبات؛ لأن النبات صادع للأرض . وقال مجاهد : والأرض ذات الطُّرُق التى تَصْدَعها المشاة . وقيل : ذاتِ الحَرْث، لأنه يصدعها . وقيل : ذاتِ الأموات : لانصداعها عنهم للنشور . ﴿ إنهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ على هذا وقع القَسَم . أى إن القرآن يَفْصل بين الحق والباطل . وقد تقدّم فى مقدمة الكتاب(٢) ما رواه الحارث عن علىّ رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "كتاب فيه خَبَر ما قبلكم وحُكْم مابعدكم، هو الفَصْل، ليس بالهزل، من تركه من جبّار قَصَمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله" . وقيل : المراد بالقول الفصل : ماتقدم من الوعيد فى هذه السورة، من قوله تعالى : « إنه على رجعِهِ لقادِر . يوم تُبْلَى السرائر » . ﴿ وما هُوَ بِالهزْلِ ﴾ أى ليس القرآن بالباطل واللعب . والهزل : ضدّ الجدّ ، وقد هَزَلَ يَهْزِل . قال الكميت .

* يُجَدّ بنا فى كلّ يومٍ ونَهْزِل(٣) *

﴿ إنهم ﴾ أى إن أعداء الله ﴿ يَكيدون كَيْدا ﴾ أى يمكرون بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه مَكرا . ﴿ وأَكيد كيدا ﴾ أى أجازيهم جزاء كيدهم . وقيل : هو ما أوقع الله بهم يومَ بدرٍ من القتل والأسر . وقيل : كَيْد الله : استدراجُهم من حيث لا يعلمون . وقد مضى هذا المعنى فى أوّل « البقرة »(٤)، عند قوله تعالى : « الله يستهزِئُ بِهم » . مستوفًى .

---

(١) آية ٢٦ سورة عبس . (٢) راجع جـ ١ ص ٥ طبعة ثانية أو ثالثة . (٣) صدر البيت :

* أرانا على حب الحياة وطولها *

(٤) راجع جـ ١ ص ٢٠٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فمهل الكافرين ﴾ أى أخرهم ، ولا تسأل الله تعجيل إهلاكهم ، وارضَ بما يدبره[1] فى أمورهم . ثم نسخت بآية السيف «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم»[2]. ﴿ أَمْهِلْهُمْ ﴾ تأكيد . ومَهّل وأمهِل : بمعنى؛ مثل نَزِّل وأَنزِل . وأمهله : أنظره، ومهله تمهيلا ، والاسم : المُهْلَة . والاستمهال : الاستنظار . وتَمهَّل فى أمره أى اتّأد . واتْمَهَلَّ اتمِهلالا : أى اعتدل وانتصب . والاتمِهلال أيضا : سكون وفتور . ويقال : مهلا يافلان؛ أى رِفقا وسكونا . ﴿ رُوَيْدا ﴾ أى قريبا؛عن ابن عباس . قتادة : قليلا . والتقدير : أمهلهم إمهالا قليلا . والرُّوَيْد فى كلام العرب : تصغير رُوْد . وكذا قاله أبو عبيد . وأنشد :

* كأنها ثَمِلٌ يمشى على رُودِ[3] *

أى على مَهَل . وتفسير « رُوَيدا » : مَهْلا ، وتفسير (رُوَيْدَك) : أمهِل؛ لأن الكاف إنما تَدْخله إذا كان بمعنى أفعِل دون غيره ، وإنما حركت الدال لالتقاء الساكنين ، فنُصِب نصب المصادر ، وهو مصغر مأمور به؛ لأنه تصغير الترخيم من إرواد؛ وهو مصدر أَرْوَد يُرْوِد . وله أربعة أوجه : اسمٌ للفعل ، وصفة ، وحال ، ومصدر؛ فالاسم نحو قولك : رُوَيْدَ عَمْرا ؛ أى أروِد عمرا ، بمعنى أمهِله . والصفة نحو قولك : ساروا سيرا رُوَيْدا . والحال نحو قولك : سار القوم رُوَيْدًا ، لما اتصل بالمعرفة صار حالا لها . والمصدر نحو قولك : رُوَيْدَ عَمرٍو بالإضافة؛ كقوله تعالى : « فضَرْبَ الرقابِ»[4] . قال جميعه الجوهرى . والذى فى الآية من هذه الوجوه أن يكون نعتا للصدر؛ أى إمهالا رُوَيدا . ويجوز أن يكون للحال؛ أى أمهلهم غير مستعجل لهم العذاب . ختمت السورة .

---

(١) فى بعض النسخ « يريده » . (٢) آية ٥ سورة التوبة .

(٣) هذا عجز بيت للجموح الظفرى . وصدره :

* تكاد لا تثلم البطحاء وطأتها *

(٤) آية ٤ سورة محمد .

سورة « الأعلى »

مَكِّيَّة فى قول الجمهور . وقال الضحاك : مَدَنِيَّة . وهى تسع عشرة آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾

يُستحب للقارئ إذا قرأ « سبح آسم ربك الأعلى » أن يقول عَقِبه : سبحانَ ربيَّ الأعلى ؛ قاله النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وقاله جماعة من الصحابة والتابعين ؛ على ما يأتى . وروى جعفر ابن محمد عن أبيه عن جدّه قال : إن لله تعالى مَلَكا يقال له حِزْقيائيل ، له ثمانيةَ عَشَرَ ألف جَناح ، مابين الجناح إلى الجناح مسيرة خمسمائة عام ، فخطر له خاطر : هل تقدر أن تبصر العرش جميعه ؟ فزاده الله أجنحة مثلها ، فكان له ستة وثلاثون ألف جناح ، مابين الجناح إلى الجناح خمسمائة عام . ثم أوحى الله إليه : أيها المَلَك ، أَنْ طِرْ ، فطار مقدار عشرين ألف سنة ؛ فلم يبلغ رأس قائمة من قوائم العرش . ثم ضاعف الله له فى الأجنحة والقوّة ، وأمره أن يطير ، فطار مقدار ثلاثين ألف سنة أخرى ، فلم يصل أيضا ؛ فأوحى الله إليه : أيها المَلَك ، لو طرت إلى نفخ الصور مع أجنحتك وقوّتك لم تبلغ ساق عرشى . فقال المَلَك : سبحان ربِّيَ الأعلى ؛ فأنزل الله تعالى « سَبِّح آسمَ رَبك الأعلَى » ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " اجعلوها فى سُجودكم " . ذكره الثعلبيّ فى (كتاب العرائس) له . وقال ابن عباس والسُّدىّ : معنى « سبح آسم ربك الأعلى » أى عظم ربك الأعلى . والآسم صِلة ، قصد بها تعظيم المسمّى ؛ كما قال لَبِيد :

* إلى الحولِ ثم آسمُ السلامِ عليكما (١) *

---

(١) تمامه : * ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر * والبيت من قصيدة له ، يخاطب بها ابنتيه ، مطلعها :

تمنى ابنتاى أن يعيش أبوهما * وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر

وقيل : نزه ربك عن السوء، وعما يقول فيه الملحدون . وذكر الطبرى أن المعنى نزّه اسم ربك عن أن تسمى به أحدا سواه . وقيل : نزه تسمية ربك وذكرك إياه، أن تذكره إلا وأنت خاشع معظم ، ولذكره محترم . وجعلوا الاسم بمعنى التسمية ، والأولى أن يكون الاسم هو المسمّى . روى نافع عن ابن عمر قال: لا تقل على اسم الله؛ فإن اسم الله هو الأعلى . وروى أبو صالح عن ابن عباس : صَلِّ بأمر ربك الأعلى . قال : وهو أن تقول سبحان ربك الأعلى . وروِي عن عليّ رضى الله عنه ، وابنِ عباس وابنِ عمر وابنِ الزبير وأبى موسى وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهم : أنهم كانوا إذا افتتحوا قراءة هذه السورة قالوا : سبحان ربِّيَ الأعلى ؛ امتثالا لأمره فى ابتدائها . فيُختار الاقتداء بهم فى قراءتهم ؛ لا أن سبحان ربى الأعلى من القرآن؛ كما قاله بعض أهل الزيغ . وقيل : إنها فى قراءة أُبيّ : «سبحان ربى الأعلى» . وكان ابن عمر يقرؤها كذلك . وفى الحديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأها قال : "سبحان ربِّيَ الأعلى" . قال أبو بكر الأنبارى : حدثنى محمد بن شَهْرِيار، قال: حدثنا حسين بن الأسود، قال: حدثنا عبدالرحمن بن أبى حمّاد قال: حدثنا عيسى ابن عمر، عن أبيه ، قال: قرأ علىٌّ بن أبى طالب عليه السلام فى الصلاة «سَبِّحِ اسمَ رَبِّكَ الأعلى» ، ثم قال : سبحان رَبِىَ الأعلى ؛ فلما انقضت الصلاة قيل له : يا أمير المؤمنين ، أتزيد هذا فى القرآن ؟ قال : ماهو ؟ قالوا : سبحان ربى الأعلى . قال : لا ، إنما أُمِرنا بشيء فقلته ، وعن عقبة بن عامر الجُهَنِيّ قال: لما نزلت « سَبِّحِ اسمَ رَبِّكَ الأعلى» قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اجعلوها فى سجودكم" . وهذا كله يدل على أن الاسم هو المسمى؛ لأنهم لم يقولوا: سبحان اسم ربى الأعلى . وقيل : إن أول من قال (سبحان ربى الأعلى) ميكائيل عليه السلام . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل : "يا جبريل أخبرنى بثواب من قال: سبحان ربى الأعلى فى صلاته أو فى غير صلاته" . فقال : "يا محمد ، ما من مؤمن ولا مؤمنه يقولها فى سجوده أو فى غير سجوده ، إلا كانت له فى ميزانه أثقل من العرش والكرسي وجبال الدنيا ، ويقول الله تعالى : صدق عبدى ، أنا فوق كل شيء ، وليس فوق شيء ، اشهدوا يا ملائكتى أنى قد غفرت له ،

وأدخلته الجنة . فإذا مات زاره ميكائيل كل يوم، فإذا كان يوم القيامة حمله على جناحه، فأوقفه بين يدى الله تعالى، فيقول: يا رب شَفِّعنى فيه، فيقول قد شفعتك فيه، فاذهب به إلى الجنة "، وقال الحسن : « سبح اسم ربك الأعلى » أى صل لربك الأعلى . وقيـل : أى صل بأسماء الله، لا كما يصلى المشركون بالمُكاء(1) والتصدية . وقيل : ارفع صوتك بذكر ربك . قال جرير :

قَبَّحَ الإلهُ وجوهَ تغلبَ كلما * سَبَّحَ الحجيجُ وكَبَّروا تكبيرا

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ ﴾

قوله تعالى : ﴿ الذى خلق فسوّى ﴾ قد تقدم معنى التسوية فى « الانفطار »(2) وغيرها . أى سوّى ما خلق، فلم يكن فى خلقه تثبيج(3) . وقال الزجاج: أى عدّل قامته . وعن ابن عباس : حسن ما خلق . وقال الضحاك : خلق آدم فسوّى خلقه . وقيل : خلق فى أصلاب الآباء، وسوّى فى أرحام الأمهات . وقيل : خلق الأجساد، فسوّى الأفهام . وقيـل : أى خلق الإنسان وهيأه للتكليف . ﴿ الذى قدّر فهدى ﴾ قرأ علىّ رضى الله عنه والسُّلَمِىّ والكسائىّ « قَدَر» مخففة الدال، وشدّد الباقون . وهما بمعنى واحد . أى قدّر ووفق لكل شكل شكله . ﴿ فهدى ﴾ أى أرشد . قال مجاهد : قدّر الشقاوة والسعادة، وهدى للرشد والضلالة . وعنه قال : هدى الإنسانَ للسعادة والشقاوة ، وهدى الأنعام لمراعيها . وقيـل : قدّر أقواتهم وأرزاقهم، وهداهم لمعاشهم إن كانوا إنسا، ولمراعيهم إن كانوا وحشا . وروى عن ابن عباس والسُّدّىّ ومقاتل والكلبىّ فى قوله « فهدى » قالوا : عرّف خلقه كيف يأتى الذكر الأنثى ؛ كما قال فى (طه) : « أعطى كل شىء خلقه ثم هدى »(4) أى الذكر للأنثى . وقال عطاء : جعل لكل دابة ما يصلحها، وهداها له . وقيل : خلق المنافع فى الأشياء، وهدى الإنسان لوجه

---

(1) المكاء : الصفير . والتصدية التصفيق . قال ابن عباس : « كانت قريش تطوف بالبيت عراة يصفقون ويصفرون؛ فكان ذلك عبادة فى ظنهم » . (2) راجع جـ ١٩ ص ٢٢٤ (3) التثبيج : التخليط .

(4) آية ٥٠ .

استخراجها منها . وقيل « قَدَّر فهدَى » : قدّر لكل حيوان ما يصلحه ، فهداه إليه ، وعرفه وجه الانتفاع به . يحكى أن الأفعى إذا أتت عليها ألفُ سنة عميت ، وقد ألهمها الله أن مسح العين بورق الرازِيانَج[1] الغضّ يرد إليها بصرها ؛ فربما كانت فى برّيّة بينها وبين الريف مسيرة أيام ، فتطوِى تلك المسافة على طولها وعلى عماها ، حتى تهجُم فى بعض البساتين على شجرة الرازيانج لا تخطئها ، فتحك بها عينيها وترجع باصرة بإذن الله تعالى . وهدايات الإنسان إلى مالا يحدّ من مصالحه ، ومالا يحصر من حوائجه ، فى أغذيته وأدويته ، وفى أبواب دنياه ودينه ، وإلهامات البهائم والطيور وهوامّ الأرض باب واسع ، وشَوْط بِطين[2] ، لايحيط به وصف واصف ؛ فسبحان ربى الأعلى . وقال السُّدّى : قدّر مدّة الجنين فى الرّحِم تسعة أشهر ، وأقل وأكثر ، ثم هداه للخروج من الرّحم . وقال الفراء : أى قدّر ، فهدى وأضل ؛ فاكتفى بذكر أحدهما ؛ كقوله تعالى : « سرابِيل تقِيكم الحر[3] » ويحتمل أن يكون بمعنى دعا إلى الإيمان ؛ كقوله تعالى : « وإنك لتهدِى إلى صِراطٍ[4] » أى لتدعو ، وقد دعا الكل إلى الإيمان . وقيل : « فهدى » أى دلهم بأفعاله على توحيده ، وكونه عالما قادرا . ولا خلاف أن من شدّد الدال من « قَدَّر » أنه من التقدير ؛ كقوله تعالى : « وخلق كل شيء فقدره تقديرا[5] » . ومن خفف فيحتمل أن يكون من التقدير فيكونان بمعنى . ويحتمل أن يكون من القُدْرة والمُلْك ؛ أى ملك الأشياء ، وهدى من يشاء .

قلت : وسمعت بعض أشياخى يقول : الذى خلق فسوّى وقدّر فهدى . هو تفسير العلوّ الذى يليق بجلال الله سبحانه على جميع مخلوقاته .

قوله تعالى : ﴿ والذِى أخرج المرْعَى ﴾ أى النبات والكلأ الأخضر . قال الشاعر[6] :

وقد ينبُتُ المَرْعَى على دِمنِ الثّرَى * وتبقَى حَزازات النفوس كما هِيَا

---

(١) الرازيانج : شجرة يسميها أهل اليمن (السنار) ، ومن خصائصها أن عصارة أغصانها وأوراقها تخلط بالأدوية التى تحد البصر وتجلوه (انظر المعتمد فى الأدوية المفردة للملك اليمن يوسف بن رسول ، طبع مصطفى البابى الحلبى وأولاده بالقاهرة) .

(٢) أى بعيد .

(٣) آية ٨١ سورة النحل .

(٤) آية ٥٢ سورة الشورى .

(٥) آية ٢ سورة الفرقان .

(٦) هو زفر بن الحارث . والدمن : المرقين — الزبل — المتلبد بالبعر . والثرى : التراب والأرض .

(فَجَعَلَه غُثاءً أَحْوى) الغُثـاء : ما يقذف به السيل على جوانب الوادى من الحشيش والنبات والقُماش[(١)] ، وكذلك الغُثَّاء (بالتشديد) ، والجمع : الأغثاء ، قتادة : الغثاء : الشيء اليابس . ويقال للبقل والحشيش إذا تحطم ويبس : غُثـاءٌ وهَشِيم . وكذلك للذى يكون حول المـاء من القُماش غثاء ؛ كما قال :

كأن طَمِيَّـةَ[(٢)] المُجَيمِـرِ غُـدْوةً * من السَّيْل والأغثاء[(٣)] فَلْكَةُ مِغْزَلِ

وحكى أهل اللغة : غثا الوادى وجفا[(٤)] ، وكذلك المـاء : إذا علاه من الزَّبَد والقُماش مالا ينتفع به . والأَحْوى : الأســود ؛ أى أن النبات يضرب إلى الحُوَّة من شدّة الخضرة كالأسود . والحوّة : السواد ؛ قال الأعشى[(٥)] :

لَمْيَـاء فى شَفَتيهـا حُـوّةٌ لَعَسٌ * وفى اللِّثاتِ وفى أنيابهـا شَنَب

وفى الصحاح : والحوّة : سمرة الشفة . يقال : رجل أحوى ، وامرأة حوّاء ، وقد حَوِيت . وبعـير أحوى إذا خالط خضرته ســواد وصفرة . وتصغير أحوى أحيوٍ ؛ فى لغـة من قال أُسَيْوِد . ثم قيل : يجوز أن يكون « أحوى » حالا من « المَرعَى » ، ويكون المعنى : كأنه من خضرته يضرب إلى السواد ؛ والتقدير : أخرج المرعى أحوى ، فجعله غثاء . يقال : قد حَوِىَ النبت ؛ حكاه الكسائى . وقال :

---

(١) القماش (بالضم) : ما كان على وجه الأرض من فتات الأشياء . وقماش كل شىء : فتاته .

(٢) كذا رواه صاحب اللسان فى (طما) ، وقال : طمية : جبل وفى بعض النسخ ومعلقة امرئ القيس :

* كأن ذرا رأس المجيمر غدوة *

وقد أشار التبريزى شارح المعلقة إلى الرواية الأولى . قال : « والمجيمر » : أرض لبنى فزارة . وطميــة : جبل فى بلادهم . يقول : قد امتلأ المجيمر ، فكأن الجبل فى المـاء فلكة مغزل لما جمع السيل حوله من الغثاء .

(٣) فى المعلقة : « والغثاء » قال التبريزى : ورواه الفراء « من السيل والأغثاء » : جمع الغثاء ، وهو قليل فى الممدود . قال أبو جعفر : من رواه الأغثاء فقد أخطأ ؛ لأن غثاء لا يجمع على أغثاء ، وإنما يجمع على أغثية ؛ لأن أفعلة جمع الممدود ، وأفعالا جمع المقصور ، نحو رحا وأرحاء .

(٤) فى الأصول : (وانجفى) ، وهو تحريف عن (جفأ) . والجفاء كغراب : ما يرمى به الوادى .

(٥) كذا فى جميع نسخ الأصل ، وهو خطأ . والبيت لذى الرمة كما فى ديوانه واللسان . واللمياء من الشفاه : اللطيفة القليلة الدم . واللعس (بفتحتين) : لون الشفة إذا كانت تضرب إلى السواد قليلا ؛ وذلك يستملح . والشنب : برودة وعذوبة فى الفم ، ورقة فى الأسنان .

وغيثٍ من الوسْمِيّ حُـوٌّ تِلاعُه * تبطَّنتـه بشَـيظَمٍ صَـلَتانِ (١)

ويجوز أن يكون « أحوى » صفة لـ « غثاء » . والمعنى : أنه صار كذلك بعـد خضرته .
وقال أبو عبيدة : يجعله أسودَ من احتراقه وقِدمه ، والرَّطب إذا يبس اسـودّ . وقال
عبد الرحمن بن زيد : أخرج المرعى أخضر ، ثم لما يبس اسودَ من احتراقه ، فصـار غُثاء
تذهب به الرياح والسيول . وهو مَثَل ضربه الله تعالى للكفار ، لذهاب الدنيا بعد نضارتها .

قوله تعـالى : سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ أى القرآن يا محمد فنعلمكه ﴿ فَـلَا تَنْسَى ﴾ أى فتحفظ ؛
رواه ابن وهب عن مالك . وهذه بُشْرَى من الله تعالى ؛ بشره بأن أعطاه آية بينة ، وهى أن
يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحى ، وهو أُمى لا يكتب ولا يقرأ ، فيحفظه ولا ينساه .
وعن ابن أبى نَجيح عن مجاهد ، قال : كان يتذكر مخافة أن ينسى ، فقيل : كَفَيْتُكه . قال مجاهد
والكلبي : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليـه جبريل بالوحى ، لم يفرغ جبريل من
آخر الآية ، حتى يتكلم للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأوّلها ، مخافة أن يَنساها ، فنزلت « سَنُقرئك
فلا تَنْسَى » بعد ذلك شيئا ، فقد كَفَيْتُكه . ووجه الاستثناء على هذا ، ما قاله الفراء : إلا ما شاء
الله ، وهو لم يشأ أَن تنسى شيئا ؛ كقوله تعالى : « خالِدِينَ فيها ما دامتِ السمواتُ والأَرضُ
إلا ما شاءَ رَبُّك » (٢) ولا يشاء . ويقال فى الكلام : لأعطينك كل ماسألت إلا ما شئتُ ، وإلا
أن أشاء أن أمنعك ، والنية على ألّا يمنعه شيئا . فعلى هذا مجارِى الأَيمان ؛ يُسْتثنَى فيها ونية الحالف
التمام . وفى رواية أبى صالح عن ابن عباس : فلم ينس بعد نزول هذه الآية حتى مات ، « إلا ما شاء
الله » . وعن سعيد عن قتادة ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينَسى شيئا ، « إلا

---

(١) الوسمى : مطر أوّل الربيع ؛ لأنه يسم الأرض بالنبات . نسب إلى الوسم . والتلاع : جمع التلعة ؛ وهى أرض مرتفعة غليظة يتردد فيها السيل ، ثم يدفع منها إلى تلعة أسفل منها . وهى مكرمة من المنابت ؛ وقيل : التلعة مجرى الماء من أعلى الوادى إلى بطون الأرض . وتبطنته : دخلته . والشيظم : الطويل الجسيم الفتى من الناس والخيل . والصلتان : النشيط الحديد الفؤاد من الخيل .

(٢) آية ١٠٨ سورة هود .

ما شاء الله » . وعلى هذه الأقوال قيل: إلا ما شاء الله أن يَنْسَى، ولكنه لم ينسَ شيئا منه بعد نزول هذه الآية. وقيل: إلا ما شاء الله أن ينسى، ثم يذكر بعد ذلك؛ فإذًا قد نسي، ولكنه يتذكر ولا ينسى نسيانا كُلِّيا. وقد رُوِي أنه أسقط آية في قراءته في الصلاة، فحسب أُبَيّ أنها نسخت، فسأله فقال: "إني نسيتها". وقيل: هو من النسيان؛ أي إلا ما شاء الله أن ينسيك. ثم قيل: هذا بمعنى النسخ؛ أي إلا ما شاء الله أن ينسخه. والاستثناء نوع من النسخ. وقيل: النسيان بمعنى الترك؛ أي يعصمك من أن تترك العمل به؛ إلا ما شاء الله أن تتركه لنسخه إياه. فهذا في نسخ العمل، والأول في نسخ القراءة. قال الفَرْغاني: كان يغشى مجلس الجنيد أهلُ البَسْط من العلوم، وكان يغشاه ابن كَيْسانَ النحوي، وكان رجلا جليلا؛ فقال يوما: ما تقول يا أبا القاسم في قول الله تعالى: « سَنُقرِئك فلا تنسى »؟ فأجابه مسرعا — كأنه تقدّم له السؤال قبل ذلك بأوقات: لا تَنْسَى العمَلَ به. فقال ابن كيسان: لا يَفْضُضِ الله فاك! مثلُك من يُصْدَر عن رأيه. وقوله: « فلا »: للنفي لا للنهي. وقيل: للنهي؛ وإنما أثبتت الياء[1] لأن رءوس الآي على ذلك. والمعنى: لا تغفل عن قراءته وتكراره فتنساه؛ إلا ما شاء الله أن ينسيكه برفع تلاوته للمصلحة. والأول هو المختار؛ لأن الاستثناء من النهي لا يكاد يكون إلا مؤقتا معلوما. وأيضا فإن الياء مثبتة في جميع المصاحف، وعليها القراء. وقيل: معناه إلا ما شاء الله أن يؤخر إنزاله. وقيل: المعنى بجعله غثاء أحوى إلا ما شاء الله أن يناله بنو آدم والبهائم، فإنه لا يصير كذلك.

قوله تعالى: ﴿ إنه يعلم الجهر ﴾ أي الإعلان من القول والعمل. ﴿ وما يخفى ﴾ من السر. وعن ابن عباس: ما في قلبك ونفسك. وقال محمد بن حاتم: يعلم إعلان الصدقة وإخفاءها. وقيل: الجهر ما حفظته من القرآن في صدرك. « وما يخفى » هو ما نسخ من صدرك. ﴿ ونيسرك ﴾: معطوف على «سنقرئك» وقوله: «إنه يعلم الجهر وما يخفى» اعتراض. ومعنى ﴿ لليسرى ﴾ أي للطريقة اليسرى؛ وهي عمل الخير. قال ابن عباس: نيسرك لأن تعمل خيرا. ابن مسعود: «لليسرى» أي للجنة. وقيل: نوفقك للشريعة اليسرى؛ وهي الحنيفية السمحة السهلة؛ قال معناه الضحاك. وقيل: أي نهوّن عليك الوحي حتى تحفظه وتعمل به.

(١) يريد الألف في (تنسى)، وأصلها الياء (نسي ينسى).

قوله تعالى : فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أى فعظ قومك يا محمد بالقرآن . ﴿ إِنْ نفعتِ الذكرى ﴾ أى الموعظة. وروى يونس عن الحسن قال: تذكرة للؤمن، وحجة على الكافر. وكان ابن عباس يقول: تنفع أوليائى، ولا تنفع أعدائى . وقال الجُرجانِي : التذكير واجب وإن لم ينفع . والمعنى: فذكر إن نفعت الذكرى، أو لم تنفع، فحذف، كما قال : « سرابيل تقيكُمُ الحر »[1] . وقيل : إنه مخصوص بأقوام بأعيانهم . وقيل : إن « إنْ » بمعنى ما ؛ أى فذكر ما نفعت الذكرى ، فتكون « إنْ » بمعنى ما، لا بمعنى الشرط، لأن الذكرى نافعة بكل حال، قاله ابن شَجرة. وذكر بعض أهل العربية : أن « إنْ » بمعنى إذ، أى إذْ نفعت، كقوله تعالى: « وأنتم الأَعلَونَ إنْ كنتم مؤمِنِين »[2] أى إذ كنتم ؛ فلم يخبر بعلوهم إلا بعد إيمانهم . وقيل : بمعنى قد .

قوله تعالى : سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾

أى من يَتّقِ الله ويخافه. فروى أبو صالح عن ابن عباس قال: نزلت فى ابن أم مكتوم. الماوَرْدِيّ : وقد يذكر من يرجوه، إلا أن تذكرة الخاشى أبلغ من تذكرة الراجى، فلذلك علقها بالخشية دون الرجاء، وإن تعلقت بالخشية والرجاء . وقيل : أى عَمِّمْ أنت التذكير والوعظ ، وإن كان الوعظ إنما ينفع من يخشى، ولكن يحصل لك ثواب الدعاء، حكاه القُشيرِيّ .

قوله تعالى : وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ ويتجنّبها ﴾ أى ويتجنب الذكرى ويبعد عنها . ﴿ الأشقى ﴾ أى الشقىّ فى علم الله. وقيل: نزلت فى الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة . ﴿ الذى يصلى النار الكُبرى ﴾

---

(١) آية ٨١ سورة النحل . (٢) آية ١٣٩ سورة آل عمران .

أى العظمى، وهى السفلى من أطباق النار؛ قاله الفرّاء . وعن الحسن : الكبرى نار جهنم، والصغرى نار الدنيا ؛ وقاله يحيى بن سلام . ﴿ ثم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ أى لا يموت فيستريح من العذاب ، ولا يحيا حياة تنفعه ؛ كما قال الشاعر :

ألا مَا لنفسٍ لا تموتُ فينقضِي * عنـاها ولا تَحيا حياةً لهـا طَعْمُ

وقد مضى فى «النساء»[1] وغيرها حديث أبى سعيد الخُدْرِىّ، وأن الموحدين من المؤمنين إذا دخلوا جهنم — وهى النار الصغرى على قول الفراء — احترقوا فيها وماتوا ؛ إلى أن يُشْفَع فيهم . خرّجه مسلم . وقيـل : أهل الشقاء متفاوتون فى شقائهم ، هـذا الوعيد للأشقى ، وإن كانَ ثمّ شقِيّ لا يبلغ هذه المرتبة .

قوله تعـالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ قَدْ أَفْلَح ﴾ أى قـد صادف البقاء فى الجنة ؛ أى من تَطَهّر من الشرك بإيمان؛ قاله ابن عباس وعطاء وعكرمة . وقال الحسن والربيع : من كان عمله زاكيا ناميا . وقال مَعْمر عن قتادة : « تَزَكّى » قال بعمل صالح . وعنـه وعن عطاء وأبى العالية : نزلت فى صـدقة الفِطر . وعن ابن سِيرينَ « قد أفلحَ مَنْ تَزَكّى . وذكر ٱسم ربهِ فصلى » قال : خرج فصلّ بعد ما أدّى . وقال عكرمة : كان الرجل يقول أقدّم زكاتى بين يدى صلاتى . فقال سفيان : قال الله تعالى : « قد أفلَحَ مَنْ تَزَكّى . وذكر ٱسم ربهِ فصلى » . وروى عن أبى سعيد الخُدْرِىّ وابن عمر: أن ذلك فى صدقة الفطر، وصلاة العيد . وكذلك قال أبو العالية، وقال : إن أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها، ومن سِقاية المـاء . وروى كَثير بن عبدالله عن أبيه عن جدّه، عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : « قد أَفلَحَ مَنْ تَزَكّى » قال : " أخرج زكاة الفطر "، « وذَكَرَٱسمَ ربِّهِ فصلى » قال : " صلاة العيد ". وقال ابن عباس والضحاك : « وذكَرَٱسم ربِّهِ » فى طريق المصلّى « فصلّى » صلاة العيد . وقيل : المراد

(١) راجع جـ ٥ ص ١٩٦

بالآية زكاة الأموال كلها ، قاله أبو الأحوص وعطاء . وروى ابن جُرَيج قال : قلت لعطاء : « قَدْ أفلحَ مَنْ تَزَكَّى » للفطر ؟ قال : هى للصدقات كلها . وقيل : هى زكاة الأعمال ، لا زكاة الأموال ؛ أى تطهر فى أعماله من الرياء والتقصير؛ لأن الأكثر أن يقال فى المال : زَكَّى ، لا تَزَكَّى . وروى جابر بن عبدالله قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : "«قد أفلَحَ مَنْ تَزَكَّى» أى من شهد أَنْ لا إلهَ إلّا اللهُ ، وخَلع الأندادَ ، وشهد أنى رسولُ الله " . وعن ابن عباس «تزكّى» قال : لا إله إلا الله . وروى عنه عطاء قال : نزلت فى عثمان بن عفان رضى الله عنه . قال : كان بالمدينة منافق كانت له نخلة بالمدينة ، مائلة فى دار رجل من الأنصار ، إذا هبت الرياح أسقطت البُسْرَ والرطبَ إلى دار الأنصارى ، فيأكل هو وعياله ، فخاصمه المنافق ؛ فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل إلى المنافق وهو لا يعلم نفاقه ، فقال : " إن أخاك الأنصارى ذكر أن بُسْرك ورُطَبك يقع إلى منزله ، فيأكل هو وعياله ، فهل لك أن أعطيك نخلة فى الجنة بدلها " ؟ فقال : أبيع عاجلا بآجل ! لا أفعل . فذكروا أن عثمان ابن عفان أعطاه حائطا من نخل بدل نخلته ؛ ففيه نزلت «قد أفلح من تزكى» . ونزلت فى المنافق « وَيَتَجَنَّبُها الأَشْقَى » . وذكر الضحاك أنها نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

الثانيــة — قد ذكرنا القول فى زكاة الفِطر فى السورة «البقرة»(1) مستوفى . وقد تقدّم أن هـذه السورة مكية ؛ فى قول الجمهور ، ولم يكن بمكة عِيد ولا زكاة فطر . القشيرى : ولا يبعد أن يكون أثنى على من يمتثل أمره فى صدقة الفِطر وصلاة العيد ، فيما يأمر به فى المستقبل .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وذكرَ آسمَ ربِّهِ فصلّى ﴾ أى ذكر ربه . وروى عطاء عن ابن عباس قال : يريد ذكر معاده وموقفه بين يدى الله جل ثناؤه ، فعبده وصلّى له . وقيل : ذكر آسم ربه بالتكبير فى أوّل الصلاة ، لأنها لا تنعقد إلا بذكره ؛ وهو قوله : الله أكبر : وبه يحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح ، وعلى أنها ليست من الصلاة ؛ لأن الصلاة معطوفة عليها . وفيه حجة لمن قال : إن الافتتاح جائز بكل آسم من أسماء الله عز وجلّ . وهذه مسألة خلافية

(1) راجع جـ ١ ص ٣٤٢ فما بعد .

بين الفقهاء . وقد مضى القول في هذا في أول سورة «البقرة»[1] . وقيل : هي تكبيرات العيد. قال الضحاك : « وذكر ٱسم ربه » في طريق المصلى «فصلى» ؛ أي صلاة العيد . وقيل : « وذكر ٱسم ربه » وهو أن يذكره بقلبه عند صلاته ، فيخاف عقابه ، ويرجو ثوابه ؛ ليكون استيفاؤه لها ، وخشوعه فيها ، بحسب خوفه ورجائه . وقيل : هو أن يفتتح أول كل سورة ببسم الله الرحمن الرحيم . «فصلى» أي فصلى وذكر . ولا فرق بين أن تقول : أكرمتني فزرتني ، وبين أن تقول : زرتني فأكرمتني . قال ٱبن عباس : هذا في الصلاة المفروضة ، وهي الصلوات الخمس . وقيل : الدعاء ؛ أي دعاء الله بحوائج الدنيا والآخرة . وقيل : صلاة العيد ؛ قاله أبو سيعد الخُدرِيّ وٱبن عمر وغيرهما . وقد تقدم . وقيل : هو أن يتطوع بصلاة بعد زكاته ؛ قاله أبو الأحوص ، وهو مقتضى قول عطاء . ورُوِيَ عن عبد الله قال : من أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة فلا صلاة له .

قوله تعالى : بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾

قراءة العامة « بل تؤثِرون » بالتاء ؛ تصديقه قراءة أبيّ « بل أنتم تؤثِرون » . وقرأ أبو عمرو ونصر بن عاصم « بل يؤثِرون » بالياء على الغيبة ؛ تقديره : بل يؤثِرون الأشقَون الحياة الدنيا . وعلى الأول فيكون تأويلها بل تؤثرون أيها المسلمون الاستكثار من الدنيا ، للاستكثار من الثواب . وعن ٱبن مسعود أنه قرأ هذه الآية ، فقال : أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة ؟ لأن الدنيا حَضَرتْ وعُجِّلَت لنا طيباتها ، وطعامها وشرابها ، ولذاتها وبهجتها ، والآخرة غُيبت عنا ، فأخذنا العاجل ، وتركنا الآجل . وروى ثابت عن أنس قال : كُنَّا مع أبي موسى في مسير ، والناس يتكلمون ويذكرون الدنيا . قال أبو موسى : يا أنس ، إن هؤلاء يكاد أحدهم يَفْرِي الأديم بلسانه فريا ، فتعال فلنذكر ربنا ساعة . ثم قال : يا أنس ، ما ثَبَرَ[2] الناس ! ما بَطَّأ بهم ؟ قلت الدُّنيا والشيطان

(١) راجع ج ١ ص ١٧١ فما بعد .

(٢) الثبر : الحبس ؛ أي ما الذي صدهم ومنعهم عن طاعة الله .

والشهوات . قال : لا ، ولكن عُجّلت الدنيا ، وغُيبت الآخرة ، أما والله لو عاينوها ما عَدَلوا ولا مَيّلوا[١] .

قوله تعالى : وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾

أى والدار الآخرة ، أى الجنة . ﴿ خير ﴾ أى أفضل . ﴿ وأبقى ﴾ أى أدوم من الدنيا . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يضع أحدكم أصبعه فى اليمّ ، فلينظر بم يرجع " صحيح . وقد تقدم[٢] . وقال مالك بن دينار : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من خزف يبقى ، لكان الواجب أن يُؤْثَر خزف يبقى ، على ذهب يفنى . قال : فكيف والآخرة من ذهب يبقى ، والدنيا من خزف يفنى .

قوله تعالى : إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إنّ هذا لفِي الصُّحُفِ الأولى ﴾ قال قتادة وابن زيد : يريد قوله « والآخرة خير وأبقى » . وقالا : تتابعت كتب الله جل ثناؤه — كما تسمعون — أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا . وقال الحسن : « إنّ هذا لفِي الصحف الأُولى » قال : كُتُبِ الله جل ثناؤه كلها . الكلبيّ : « إنّ هذا لفِي الصحفِ الأُولى » من قوله : « قد أفلح » إلى آخر السورة ، لحديث أبى ذر على ما يأتى . وروى عِكرمة عن ابن عباس : « إنّ هذا لفى الصحف الأولى » قال : هذه السورة . وقال الضحاك : إن هذا القرآن لفى الصحف الأولى ، أى الكتب الأولى . ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ ومُوسَى ﴾ يعنى الكتب المنزلة عليهما . ولم يرد أن هذه الألفاظ بعينها فى تلك الصحف ، وإنما هو على المعنى ، أى إن معنى هذا الكلام وارد فى تلك الصحف . وروى الآجُرّى من حديث أبى ذر قال : قلت يا رسول الله ، فما

(١) قوله « ما عدلوا » : ما ساووا بها شيئا . وقوله « ولا ميلوا » : أى ما شكوا ولا ترددوا (عن النهاية لابن الأثير) . (٢) راجع ج ٤ ص ٣٢٠

كانت صحف إبراهيم ؟ قال : " كانت أمثالا كلّها : أيها الملك المتسلط المبتلَى المغرور إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكن بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم فإنى لا أردّها ولو كانت من فم كافر . وكان فيها أمثال : وعلى العاقل أن يكون له [ثلاث](1) ساعات : ساعة يناجى فيها ربّه ، وساعة يحاسب فيها نفسه يفكر فيها فى صنع الله عز وجل إليه(2) ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب . وعلى العاقل ألا يكون ظاعنا إلا فى ثلاث : تزوّد لمعاد ، ومَرَمّة لمعاش ، ولذّة فى غير مُحَرَّم . وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه ، مقبلا على شأنه ، حافظا للسانه . ومن عدّ كلامه من عمله قلّ كلامه إلا فيما يعنيه ". قال : قلت يا رسول الله ، فما كانت صحف موسى ؟ قال : "كانت عِبَراً كلها : عَجِبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح . وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف يَنْصَب . وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلّبها بأهلها كيف يطمئن إليها . وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم هو لا يعمل " . قال : قلت يا رسول الله ، فهل فى أيدينا شيء مما كان فى يدى إبراهيم وموسى مما أنزل الله عليك؟ قال : "نعم اقرأ يا أبا ذرّ « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى . إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى » . وذكر الحديث .

سورة الغاشية

وهى مكّية فى قول الجميع ، وهى ست وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ (١)

« هل » بمعنى قد ؛ كقوله : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ »(3) ؛ قاله قُطْرُب . أى قد جاءك يا محمد حديث الغاشية ؛ أى القيامة التى تغشى الخلائق بأهوالها وأفزاعها ؛ قاله أكثر المفسرين . وقال سعيد بن جبير ومحمد بن كعب : «الغاشية» النار تغشى وجوه الكفار؛ ورواه أبو صالح

(1) زيادة من الدر المنثور . (2) فى الدر المنثور : « يحاسب فيها نفسه ويتفكر فيها صنع ... » .
(3) آية ١ سورة الإنسان .

عن ابن عباس؛ ودليله قوله تعالى: « وتغشى وجوههم النار »[1]. وقيل: تغشى الخلق. وقيل: المراد النفخة الثانية للبعث؛ لأنها تغشى الخلائق. وقيل: « الغاشية » أهل النار يغشونها، ويقتحمون فيها. وقيل: معنى « هل أتاك » أى هذا لم يكن من علمك، ولا من علم قومك. قال ابن عباس: لم يكن أتاه قبل ذلك على هذا التفصيل المذكور ها هنا. وقيل: إنها خرجت مخرج الاستفهام لرسوله؛ ومعناه إن لم يكن أتاك حديث الغاشية فقد أتاك؛ وهو معنى قول الكلبي.

قوله تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾

قال ابن عباس: لم يكن أتاه حديثهم، فأخبره عنهم، فقال: ﴿ وُجُوهٌ يومئذ ﴾ أى يوم القيامة. ﴿ خاشعة ﴾ قال سفيان: أى ذليلة بالعذاب. وكل متضائل ساكن خاشع. يقال: خشع فى صلاته: إذا تذلل ونكس رأسه. وخشع الصوت: خفى؛ قال الله تعالى: « وخشعت الأصوات للرحمن »[2]. والمراد بالوجوه أصحاب الوجوه. وقال قتادة وابن زيد: « خاشعة » أى فى النار. والمراد وجوه الكفار كلهم؛ قاله يحيى بن سلام. وقيل: أراد وجوه اليهود والنصارى؛ قاله ابن عباس. ثم قال: ﴿ عاملة ناصبة ﴾ فهذا فى الدنيا؛ لأن الآخرة ليست دار عمل. فالمعنى: وجوه عاملة ناصبة فى الدنيا « خاشعة » فى الآخرة. قال أهل اللغة: يقال للرجل إذا دأب فى سيره: قد عمل يعمل عملا. ويقال للسحاب إذا دام برقه: قد عَمِل يعمل عملا. وذا سحاب عَمِل. قال الهذلى[3]:

حتى شآها كليلٌ مَوْهِنًا عمِلٌ * باتت طِرابا وباتَ الليلَ لم يَنَمِ

---

(١) آية ٥٠ سورة ابراهيم. (٢) آية ١٠٨ سورة طه.

(٣) هو ساعدة بن جؤية. وقوله « شآها »: أى ساقها. والكليل: البرق الضعيف. والموهن: القطعة من الليل. وباتت طرابا: أى باتت البقر العطاش طرابا إلى السير إلى الموضع الذى فيه البرق. وبات البرق الليل أجمع لا يفتر؛ فعبر عن البرق بأنه لم ينم، لاتصاله من أول الليل الى آخره (راجع هذا البيت والكلام عليه فى خزانة الأدب الشاهد الرابع بعد الستمائة).

﴿ ناصبة ﴾ أى تعبة . يقال: نَصِب (بالكسر) ينصَب نَصَباً: إذا تعب، ونَصْبا أيضا، وأنصبه غيره . فروى الضحاك عن ابن عباس قال: هم الذين أنصبوا أنفسهم فى الدنيا على معصية الله عز وجل، وعلى الكفر؛ مثل عَبَدة الأوثان، وكفار أهل الكتاب مثل الرهبان وغيرهم، لا يقبل الله جل ثناؤه منهم إلا ما كان خالصا له . وقال سعيد عن قتادة : « عاملة ناصبة » قال : تكبرت فى الدنيا عن طاعة الله عز وجل، فأعملها الله وأنصبها فى النار، بجر السلاسل الثقال، وحمل الأغلال، والوقوف حُفاة عراة فى العَرَصات، فى يوم كان مقداره خمسين ألفَ سنة . قال الحسن وسعيد بن جبير: لم تعمل لله فى الدنيا، ولم تنصب له، فأعملها وأنصبها فى جهنم . وقال الكلبى : يُجَرّون على وجوههم فى النار . وعنه وعن غيره : يُكَلَّفون ارتقاء جبل من حديد فى جهنم ، فَينصَبون فيها أشدّ ما يكون من النَّصَب ، بمعالجة السلاسل والأغلال والخوض فى النار، كما تخوض الإبل فى الوَحَل، وارتقائها فى صَعُود من نار، وهبوطها فى حَدُور منها ، إلى غير ذلك من عذابها . وقاله ابن عباس . وقرأ ابن محيصن وعيسى وحميد، ورواها عبيد عن شبل عن ابن كثير « ناصبةً » بالنصب على الحال . وقيل : على الذمّ . الباقون (بالرفع) على الصفة أو على إضمار مبتدأ، فيوقف على « خاشعة » . ومن جعل المعنى فى الآخرة، جاز أن يكون خبرا بعد خبر عن «وجوه»، فلا يوقف على « خاشعة » . وقيل : « عاملة ناصبة » أى عاملة فى الدنيا ناصبة فى الآخرة . وعلى هذا يحتمل وجوه يومئذ عاملة فى الدنيا، ناصبة فى الآخرة، خاشعة . قال عكرمة والسدّى : عملت فى الدنيا بالمعاصى . وقال سعيد بن جبير وزيد بن أسلم : هم الرُّهبان أصحاب الصوامع؛ وقاله ابن عباس . وقد تقدّم فى رواية الضحاك عنه . وروى عن الحسن قال : لما قدم عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — الشام أتاه راهب شيخ كبير مُتَقَهِّل[(١)]، عليه سواد، فلما رآه عمر بكى . فقال له : يا أمير المؤمنين، ما يبكيك؟ قال : هذا المسكين طلب أمرا فلم يصبه، ورجا رجاء فأخطأه، — وقرأ قول الله عز وجل — « وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة » . قال الكسائى :

---

(١) أى شعث وسخ ، يقال : أقهل الرجل ، وتقهل . (النهاية لابن الأثير) .

التقهل : رثاثة الهيئة ، ورجل مُتَقَهِّل : يابس الجلد سَيِّئُ الحال ، مثل المتقحل . وقال أبو عمرو : التقهل : شكوى الحاجة . وأنشد :

* لَعْــوًا(١) إذا لاقيته تقهّلا *

والقَهْل : كفران الإحسان. وقد قَهَلَ يَقْهَلُ قَهْلا : إذا أثنى ثناء قبيحا . وأقهل الرجل تكلف ما يعيبه ودنس نفسه . وٱنقهل ضعف وسقط ؛ قاله الجوهري . وعن علىّ رضى الله عنه أنهم أهل حَرُورَاء ؛ يعنى الخوارج الذين ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " تَحقِرون(٢) صلاتكم مع صلاتهم ، وصيامكم مع صيامهم ، وأعمالكم مع أعمالهم ، يَمرُقون من الدين كما يَمرُق السهمُ من الرَّمِيّة ... " الحديث .

قوله تعالى : تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾

أى يصيبها صِلاؤها وحرّها . (حامِيَة) شديدة الحرّ ؛ أى قد أُوقدت وأُحْمِيت المدة الطويلة . ومنه حَمِي النهار (بالكسر) ، وحِمِي التنور حَمْيا فيهما ؛ أى اشتدّ حرّه . وحكى الكِسائىّ : اشتدّ حَمْيُ الشمس وحَمْوُها : بمعنى . وقرأ أبو عمرو وأبو بكر و يعقوب « تُصْلَى » بضم التاء . الباقون بفتحها . وقرئ « تُصَلَّى » بالتشديد . وقد تقدم القول فيها فى « إذا السماء ٱنشقت »(٣) . الماوردىّ : فإن قيل فما معنى وصفها بالحَمْى ، وهى لا تكون إلا حامية ، وهو أقل أحوالها ، فما وجه المبالغة بهذه الصفة الناقصة؟ قيل : قد ٱختلف فى المراد بالحامية ها هنا على أربعة أوجه : أحدها — أن المراد بذلك أنها دائمة الحَمْى ، وليست كنار الدنيا التى ينقطع حَمْيها بانطفائها . الثانى — أن المراد بالحامية أنها حِمًى من ارتكاب المحظورات ، وانتهاك المحارم ؛ كما قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إن لكل ملِك حِمًى ، وإن حِمى الله محارمه . ومن

(١) اللعو : السيئ الخلق . والشره الحريص .

(٢) أى تعدون صلاتكم حقيرة بالنظر إلى صلاتهم .

(٣) راجع جـ ١٩ ص ٢٧٠

يرتع حول الحِمَى يُوشِك أن يقع فيه " . الثالث — أنها تحمى نفسها عن أن تطاق ملامستها ، أو ترام مُماسّتها ؛ كما يحمى الأسد عَرِينه ؛ ومثله قول النابغة :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له ✻ وتتقى صَولةَ المستأسِدِ الحامِي

الرابع — أنها حامية حِمَى غيظ وغضب ؛ مبالغة فى شدّة الانتقام . ولم يرد حِمَى جِرْم وذات ؛ كما يقال : قد حمِيَ فلان : إذا اغتاظ وغضب عند إرادة الانتقام . وقد بين الله تعالى بقوله هذا المعنى فقال : « تكادُ تَمَيَّزُ من الغيظ »(١) .

قوله تعالى : تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾

الآنى : الذى قد انتهى حَرّه ؛ من الإيناء(٢) ، بمعنى التأخير . ومنه " آنيتَ وآذيتَ "(٣) . وآناه يؤنيه إيناء ، أى أخره وحبسه وأبطاه . ومنه « يَطُوفونَ بينَها و بينَ حَمِيمٍ آنٍ »(٤) . وفى التفاسير « مِن عينٍ آنية » أى تناهَى حرها ، فلو وقعت نقطة منها على جبال الدنيا لذابت . وقال الحسن : آنية » أى حرها أدرك ؛ أوقدت عليها جهنم منذ خلقت ، فدُفعوا إليها وِردا عِطاشا . وعن ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : بلغت أناها ، وحان شربها .

قوله تعالى : لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ ليس لهم ﴾ أى لأهل النار . ﴿ طعامٌ إلا مِن ضَرِيعٍ ﴾ لما ذكر شرابهم ذكر طعامهم . قال عكرمة ومجاهد : الضَّريع : نبت ذو شوك لاصق بالأرض ، تسميه قريش الشِّبْرِق إذا كان رطبا ، فإذا يبس فهو الضريع ، لا تَقْرَبُه دابة ولا بهيمة ولا ترعاه ؛ وهو سُمٌّ قاتل ، وهو أخبث الطعام وأشنعه ؛ على هذا عامّة المفسرين . إلا أن الضحاك روى عن ابن عباس قال : هو شيء يَرْمِي به البحر ، يسمّى الضَّريعَ ، من أقوات الأنعام

(١) آية ٨ سورة الملك . (٢) آنية : متناهية فى شدة الحر ، من أَنَى يأنِى ، كرمى يرمى ، وليس من (الإيناء) مصدر آنى بمعنى آخر ، قال الطبرى فى تفسير الآية : « تسق أصحاب هذه الوجوه من شراب عين قد أنى حرها ، و بلغ غايته فى شدة الحر . (٣) أى فى الحديث فى صلاة الجمعة ؛ إذ أنه قال لرجل جاء يوم الجمعة يتخطى رقاب الناس : لقد آنيت وآذيت . ومعنى « آنيت » : أخرت المجىء وأبطأت . و « آذيت » أى آذيت الناس بتخطيك .

(٤) آية ٤٤ سورة الرحمن .

لا الناس ، فإذا وقعت فيه الإبل لم تشبع ، وهلكت هُزْلا . والصحيح ماقاله الجمهور: أنه نبت . قال أبو ذُؤيب[(١)] :

رَعَى الشِّبرِقَ الرَّيّانَ حتى إذا ذَوَى * وعاد ضَرِيعًا بانَ منه النَّحائصُ[(٢)]

وقال الهُذلي[(٣)] وذكر إبلا وسوء مرعاها :

وحُبِسْنَ فى هَزْمِ الضرِيع فكلُّها * حَدْباءُ دامِيةُ اليدين حَرُودُ[(٤)]

وقال الخليل: الضريع : نبات أخضر مُنتن الريح، يرمى به البحر. وقال الوالبي عن ابن عباس : هو شجر من نار ، ولو كانت فى الدنيا لأحرقت الأرض وما عليها . وقال سعيد بن جُبير : هو الحجارة ، ، وقاله عكرمة . والأظهر أنه شجر ذو شوك حَسْب ماهو فى الدنيا . وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الضريع : شىء يكون فى النار، يشبه الشوك،أشد مرارة من الصبِر،وأنتن من الجيفة، وأحر من النار، سماه الله ضريعا". وقال خالد بن زياد : سمعت المتوكل بن حمدان يسأل عن هذه الآية « ليس لهم طعام إلا مِن ضريع » قال : بلغنى أن الضريع شجرة من نار جهنم ، حَمْلها القيح والدم، أشدّ مرارة من الصَّبِر، فذلك طعامهم . وقال الحسن : هو بعض ما أخفاه الله من العذاب . وقال ابن كيسان : هو طعام يَضْرعون عنده ويذِلون ، ويتضرعون منه إلى الله تعالى ، طلبا للخلاص منه؛ فسمى بذلك، لأن آكله يضرع فى أن يُعْفَى منه، لكراهته وخشونته . قال أبو جعفر النحاس : قد يكون مشتقا من الضارع، وهو الذليل ؛ أى ذو ضراعة ، أى من شَرِبه ذليل تلحقه ضراعة . وعن الحسن أيضا : هو الزَّقوم . وقيل : هو وادٍ فى جهنم . فالله أعلم . وقد قال الله تعالى فى موضع

---

(١) لم نعثر على هذا البيت فى ديوان أبى ذؤيب

(٢) فى بعض نسخ الأصل : « بان عنه النحائص » . والنحائص : جمع النحوض (بفتح النون) ، وهى الأتان الوحشية الحائل . وقيل : هى التى فى بطنها ولد . وقيل : التى لا لبن لها .

(٣) هو قيس بن عيزارة ، كما فى اللسان .

(٤) هزم الضريع : ماتكسر منه . والحدباء : الناقة التى بدت حراقفها ، وعظم ظهرها . والحرود : التى لاتكاد تدر .

آخر : « فليس له اليوم هاهُنا حَميمٌ . ولا طعامٌ إلا مِن غِسْلِين »[1] . وقال هنا : « إلا من ضريع » وهو غير الغسلين . ووجه الجمع أن النار دَرَكات ؛ فمنهم مَنْ طعامه الزَّقوم ، ومنهم من طعامه الغِسلين ، ومنهم من طعامه الضريع ، ومنهم من شرابه الحميم ، ومنهم من شرابه الصّديد . قال الكلبيّ : الضريع في درجة ليس فيها غيره ، والزقوم في درجة أخرى . ويجوز أن تُحمل الآيتان على حالتين كما قال : « يطوفون بينها وبين حميمٍ آنٍ »[2] . القُتَبيّ : ويجوز أن يكون الضريع وشجرة الزقوم نَبتين من النار ، أو من جوهر لا تأكله النار . وكذلك سلاسل النار وأغلالُها وعقاربها وحَياتها ، ولو كانت على ما نعلم ما بقيت على النار . قال : وإنما دلنا الله على الغائب عنده ، بالحاضر عندنا ؛ فالأسماء متفقة الدلالة ، والمعاني مختلفة . وكذلك ما في الجنة من شجرها وفرشها . القُشَيريّ : وأمثل من قول القُتَبيّ أن نقول : إن الذي يُبقي الكافرين في النار ليدوم عليهم العذاب ، يُبقي النبات وشجرة الزقوم في النار ، ليعذب بها الكفار . وزعم بعضهم أن الضريع بعينه لا يَنْبت في النار ، ولا أنهم يأكلونه . فالضريع من أقوات الأنعام ، لا من أقوات الناس . وإذا وقعت الإبل فيه لم تشبع ، وهلكت هزلا ، فأراد أن هؤلاء يقتاتون بما لا يشبعهم ، وضرب الضريع له مثلا ، أنهم يعذبون بالجوع كما يعذب من قوته الضريع . قال الترمذي الحكيم : وهذا نظر سقيم من أهله وتأويل دنيء ، كأنه يدل على أنهم تحيروا في قدرة الله تعالى ، وأن الذي أنبت في هذا التراب هذا الضريع قادر على أن ينبته في حريق النار ، جعل لنا في الدنيا من الشجر الأخضر نارا ، فلا النار تُحرق الشجر ، ولا رطوبة الماء في الشجر تُطفئ النار ؛ فقال تعالى : « الذي جعل لكم من الشجرِ الأخضرِ نارا فإذا أنتم منه توقِدون »[3] . وكما قيل حين نزلت « ونحشرهم يوم القيامةِ على وجوهِهم »[4] : قالوا يارسول الله ، كيف يمشون على وجوههم ؟ فقال : " الذي

---

(١) آية ٣٥ و ٣٦ سورة الحاقة . (٢) آية ٤٤ سورة الرحمن .
(٣) آية ٨٠ سورة يس . (٤) آية ٩٧ سورة الإسراء .

أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يُمْشِيهم على وجوههم " . فلا يتحير فى مثل هذا إلا ضعيف القلب . أو ليس قد أخبرنا أنه « كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلودا غيرها »[1] ، وقال : « سَرَابِيلُهم مِن قَطِرانٍ »[2] ، وقال : « إنّ لدَيْنا أنكالا »[3] أى قُيودا . « وجحيما وطعاما ذا غُصةٍ » قيل : ذا شوك . فإنما يتلون عليهم العذاب بهذه الأشياء .

قوله تعالى : لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾

يعنى الضريع لايسمن آكله . وكيف يَسْمن من يأكل الشوك ! قال المفسرون : لما نزلت هذه الآية قال المشركون : إن إبلنا لتسمن بالضّريع، فنزلت « لا يُسْمِن ولا يغنى من جوع» . وكَذَبوا، فإن الإبل إنما ترعاه رَطْبا، فإذا يبس لم تأكله . وقيل : اشتبه عليهم أمره فظنوه كغيره من النبت النافع، لأن المضارعة المشابهة[4] . فوجدوه لايسمن ولا يغنى من جوع .

قوله تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يومئذٍ ناعِمةٌ ﴾ أى ذات نَعْمة . وهى وجوه المؤمنين ؛ نَعِمت بما عاينت من عاقبة أمرها وعملها الصالح . ﴿ لِسعيِها ﴾ أى لعملها الذى عملته فى الدنيا . ﴿ راضيةٌ ﴾ فى الآخرة حين أُعطيت الجنة بعملها . ومجازه : لثواب سعيها راضية . وفيها واو مضمرة . المعنى : ووجوه يومئذ ، للفصل بينها وبين الوجوه المتقدمة . والوجوه عبارة عن الأنفس . ﴿ فِى جنةٍ عالِيةٍ ﴾ أى مرتفعة ، لأنها فوق السموات حَسْب ما تقدم . وقيل : عالية القدر ، لأن فيها ماتشتهيه الأنفس وتَلَذّ الأعين . وهم فيها خالدون .

---

(١) آية ٥٦ سورة النساء . (٢) آية ٥٠ سورة إبراهيم .
(٣) آية ١٢ سورة المزمل . (٤) فى بعض النسخ : « لا يشبه » .

قوله تعالى: لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾

أى كلاما ساقطا غير مَرْضِىّ. وقال: «لاغية»، واللَّغو واللَّغا واللَّاغية: بمعنى واحد. قال:

* عن اللَّغا ورَفَثِ التَّكلُّمِ[1] *

وقال الفرّاء والأخفش: أى لا تَسمع فيها كلمة لغو. وفى المراد بها ستة أوجه: أحدها — يعنى كذبا وبُهتانا وكفرا بالله عز وجل؛ قاله ابن عباس. الثانى — لا باطل ولا إثم؛ قاله قتادة. الثالث — أنه الشتم؛ قاله مجاهد. الرابع — المعصية؛ قاله الحسن. الخامس — لا يسمع فيها حالف يحلف بكذب؛ قاله الفرّاء. وقال الكلبىّ: لا يُسمع فى الجنة حالف بيمين برّة ولا فاجرة. السادس — لا يسمع فى كلامهم كلمة بلغو؛ لأن أهل الجنة لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم؛ قاله الفرّاء أيضا. وهو أحسنها لأنه يعمّ ما ذُكر. وقرأ أبو عمرو وابن كثير «لا يُسْمَع» بياء غير مسمّى الفاعل. وكذلك نافع، إلا أنه بالتاء المضمومة؛ لأن اللاغية اسم مؤنث فأنث الفعل لتأنيثه. ومن قرأ بالياء فلأنه حال بين الاسم والفعل الجار والمجرور. وقرأ الباقون بالتاء مفتوحة ﴿ لاغِيةً ﴾ نصا على إسناد ذلك للوجوه، أى لا تسمع الوجوه فيها لاغية.

قوله تعالى: فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿ فِيها عين جارِية ﴾ أى بماء مندفق، وأنواع الأشربة اللذيذة على وجه الأرض من غير أُخدود. وقد تقدم فى سورة «الإنسان» أن فيها عيونا[2]. فـ«عين»: بمعنى عيون. والله أعلم. ﴿ فِيها سُرُرٌ مرفُوعة ﴾ أى عالية. ورُوى أنه كان ارتفاعها قدر ما بين

---

(١) قبله: * ورب أسراب حجيج كظم *
قائله رؤبة. ونسبه ابن برى للعجاج.

(٢) راجع جـ ١٩ ص ١٢٤، ١٠٤

السماء والأرض، ليرى ولى الله ملكه حوله . ﴿ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ أى أباريق وأوانٍ . والإبريق : هو ماله عُروة وخُرطوم . والكوب : إناء ليس له عروة ولا خرطوم . وقد تقدم هذا فى سورة « الزخرف »[1] وغيرها . ﴿ وَنَمَارِقُ ﴾ أى وسائد ، الواحدة نُمْرُقة . ﴿ مَصْفُوفَةٌ ﴾ أى واحدة إلى جنب الأخرى . قال الشاعر :

و إنا لَنُجْرِى الكاس بين شُروبنا * وبينَ أبى قابوسَ فَوقَ النَّمارقِ

وقال آخر :

كُهولٌ وشُبانٌ حِسانٌ وجوهُهُمْ * على سُرُرٍ مَصفوفة ونمارقِ

وفى الصحاح : النُّمرق والنُّمرقة : وسادة صغيرة . وكذلك النِّمْرِقة (بالكسر) لغة حكاها يعقوب . وربما سموا الطِّنْفِسة التى فوق الرحْل نُمرقة؛ عن أبى عُبيد . ﴿ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾: قال أبو عُبيدة : الزرابىّ : البُسُط . وقال ابن عباس : الزَّرابىّ: الطَّنافس التى لها خَمْل رقيق ، واحدتها : زُرْبِيّة؛ وقال الكلبىّ والفرّاء . والمبثوثة : المبسوطة؛ قال قتادة . وقيل : بعضها فوق بعض ؛ قاله عكرمة . وقيل كثيرة؛ قاله الفراء . وقيل : متفرقة فى المجالس؛ قاله القُتَبىّ .

قلت : هذا أصوب ، فهى كثيرة متفرقة . ومنه « وبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابةٍ »[2] . وقال أبو بكر الأنبارىّ : وحدّثنا أحمد بن الحسين ، قال حدّثنا حسين بن عرفة ، قال حدّثنا عمار بن محمد ، قال : صليت خلف منصور بن المعتمر ، فقرأ : « هلْ أتاكَ حَديثُ الغَاشِيةِ » ، وقرأ فيها : « وزَرَابِىُّ مَبْثُوثَة » ; متكئين فيها ناعمين .

قوله تعالى : أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾

قال المفسرون : لما ذكر الله عز وجل أمر أهلِ الدارين ، تعجّب الكفار من ذلك ، فكذّبوا وأنكروا ؛ فذكّرهُمُ الله صنعته وقدرته ؛ وأنه قادر على كل شىء ، كما خلق الحيوانات والسماء والأرض . ثم ذكر الإبل أولا ، لأنها كثيرة فى العرب ، ولم يَرَوُا الفِيلة ، فنبههم جل

(١) راجع جـ ١٦ ص ١١٣ (٢) آية ١٦٤ سورة البقرة .

ثناؤه على عظيم من خَلْقه ؛ قد ذلله للصغير ، يقوده ويُنيخه وينهضه ويحمل عليه الثقيل من الحِمْل وهو بارك ، فينهض بثقيل حمله ، وليس ذلك فى شىء من الحيوان غيره . فأراهم عظيما من خَلقه ، مسخرا لصغير من خلقه ؛ يدلهم بذلك على توحيده وعظيم قدرته . وعن بعض الحكماء : أنه حدّث عن البعير وبديع خَلْقه ، وقد نشأ فى بلاد لا إبل فيها ؛ ففكر ثم قال : يوشك أن تكون طوال الأعناق . وحين أراد بها أن تكون سفائن البر ، صبّرها على احتمال العطش ؛ حتى إن إظماءها ليرتفع إلى العَشْر فصاعدا ، وجعلها ترعى كل شىء نابت فى البرارى والمفاوز ، مما لا يرعاه سائر البهائم . وقيل : لمّا ذَكر السُّرُر المرفوعة قالوا : كيف نصعدها؟ فأنزل الله هذه الآية ، وبين أن الإبل تَبْرُك حتى يحمل عليها ثم تقوم ؛ فكذلك تلك السُّرُر تتطامن ثم ترتفع . قال معناه قتادة ومقاتل وغيرهما . وقيل : الإبل هنا القِطع العظيمة من السحاب ؛ قاله المبرّد . قال الثعلبىّ : وقيل فى الإبِل هنا : السحاب ، ولم أجد لذلك أصلا فى كتب الأئمة.

قلت : قد ذكر الأصمعىّ أبو سعيد عبدُ الملك بن قُرَيب ، قال أبو عمرو : من قرأها «افلا ينظُرون إلى الإبِل كيف خُلِقت» بالتخفيف : عنى به البعير ، لأنه من ذوات الأربع ، يَبرُك فتحمل عليه الحَمولة ، وغيره من ذوات الأربع لا يحمل عليه إلا وهو قائم . ومن قرأها بالتثقيل فقال : «الإبِل»[1] ، عنى بها السحاب التى تحمل الماء والمطر . وقال الماوردىّ : وفى الإبل وجهان : أحدهما — وهو أظهرهما وأشهرهما : أنها الإبل من النَّعَم . الثانى — أنها السحاب . فإن كان المراد بها السحاب ، فلما فيها من الآيات الدالة على قدرته ، والمنافع العامة لجميع خلقه . وإن كان المراد بها الإبل من النَّعَم ، فلأن الإبل أجمع للمنافع من سائر الحيوان ؛ لأن ضروبه أربعة : حَلُوبة ، ورَكُوبة ، وأَكُولة ، وحَمُولة . والإبل تجمع هذه الخلال الأربع ؛ فكانت النعمة بها أعم ، وظهور القدرة فيها أتم . وقال الحسن : إنما خصها الله بالذكر لأنها تأكل النَّوَى والقَتّ ، وتخرج اللبن . وسئل الحسن أيضا عنها وقالوا : الفيل أعظم فى الأعجوبة ؛ فقال : العرب بعيدة العهد بالفيل ، ثم هو خنزير لا يُؤكل لحمه ، ولا يُركب ظهره ، ولا يحلب

---

(١) فى البحر المحيط : « قرأ الجمهور بكسر الباء وتخفيف اللام . الأصمعى عن أبى عمرو بإسكان الباء . وعلى وابن عباس بشد اللام ، ورويت عن أبى عمرو وأبى جعفر والكسائى ، وقالوا إنها السحاب » .

دره . وكان شُرَيْح يقـول : اخرجوا بنا إلى الكُناسة[1] حتى ننظر إلى الإبل كيف خُلِقت .
والإبل : لا واحد لها من لفظها، وهى مؤنثة؛ لأن أسماء الجموع التى لا واحد لها من لفظا،
إذا كانت لغير الآدميين، فالتأنيث لها لازم، وإذا صغرتها دخلتها الهاء، فقلت : أُبيلة وغنيمة،
ونحو ذلك . وربما قالوا للإبل : إبْل، بسكون الباء للتخفيف، والجمع : آبال .

قوله تعـالى : وَإِلَى ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وإلى السَّماءِ كيفَ رُفِعَتْ ﴾ أى رُفعت عن الأرض بلا عَمَد . وقيل :
رفعت، فلا ينالها شىء. ﴿وإلى الجبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ أى كيف نُصبت على الأرض، بحيث
لا تزول؛ وذلك أن الأرض لما دُحيت مادت، فأرساها بالجبال . كما قال : « وجعلنا
فى الأَرضِ رَوَاسِيَ أن تَمِيدَ بِهم »[2] . ﴿ وإلى الأرض كَيفَ سُطِحَتْ ﴾ أى بُسطت ومدّت .
وقال أنس : صليت خلف علىّ رضى الله عنه، فقرأ « كَيفَ خَلَقْتُ » و « رَفَعْتُ » و« نَصَبْتُ »
و « سَطَحْتُ » ، بضم التاءات؛ أضاف الضمير إلى الله تعالى. وبه كان يقرأ محمد بن السَّمَيْقَع
وأبو العالية ؛ والمفعول محذوف ، والمعنى خلقتها . وكذلك سائرها . وقرأ الحسن وأبو حَيْوة
وأبو رجاء : « سُطِّحَتْ » بتشديد الطاء وإسكان التاء . وكذلك قرأ الجماعة، إلا أنهم خففوا
الطاء . وقدّم الإبل فى الذكر ، ولو قدّم غيرها لجاز . قال القشيرىّ : وليس هذا مما يطلب
فيه نوع حكمة . وقد قيـل : هو أقرب إلى النـاس فى حق العرب ، لكثرتها عنـدهم ،
وهم من أعرف الناس بها . وأيضا : مَرافق الإبل أكثر من مرافق الحيوانات الأُخَر؛
فهى مأكولة، ولبنها مشروب ، وتصلح للحمل والركوب ، وقطع المسافات البعيدة عليها ،
والصبر على العطش، وقلة العَلَف، وكثرة الحَمْل، وهى مُعْظم أموال العرب. وكانوا يسيرون
على الإبل منفردين مستوحشين عن الناس ، ومَنْ هـذا حاله تفكر فيما يحضره ، فقد ينظر

(١) الكناسة : سوق الكوفة ترد إليها الإبل بأحمال البضائع ، أو تصدر عنها ، وهى كالمربد للبصرة .
(٢) آية ٣١ سورة الأنبياء .

فى مركوبه، ثم يمد بصره إلى السماء، ثم إلى الأرض . فأمروا بالنظر فى هذه الأشياء، فإنها أدل دليل على الصانع المختار القادر .

قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أى فعظهم يامحمد وخوفهم . ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ أى واعظ . ﴿ لست عليهم بمصيطِرٍ ﴾ أى بمسَلَّط عليهم فتقتلَهم . ثم نسختها آية السيف . وقرأ هارون الأعور « بِمُسَيْطَرٍ » (بفتح الطاء)، و « والمُسَيْطَرون »[(1)] . وهى لغة تميم . وفى الصحاح : «المسيطِر والمصيطِر: المسلّط على الشيء، ليشرف عليه، و يتعهد أحواله، و يكتب عمله، وأصله من السطر، لأنّ[(2)] من معنى السطر ألا يتجاوز، فالكتاب مسطر، والذى يفعله مسطر ومسيطِر؛ يقال : سيطرت علينا، وقال تعالى : « لست عليهم بمسيطِرٍ » . وسَطَرَه أى صَرَعَه » .

﴿ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَر ﴾ استثناء منقطع، أى لكن من تولى عن الوعظ والتذكير . ﴿ فيعذِّبه اللهُ العذابَ الأكبر ﴾ وهى جهنم الدائم عذابها . وإنما قال « الأكبر » لأنهم عذبوا فى الدنيا بالجوع والقَحْط والأسر والقتل . ودليل هذا التأويل قراءة ابن مسعود : « إلا مَنْ تولّى وكفر فإنه يعذبه الله » . وقيل : هو استثناء متصل . والمعنى : لست بمسلّط إلا على من تولى وكفر، فأنت مُسَلَّط عليه بالجهاد، والله يعذبه بعد ذلك العذاب الأكبر، فلا نسخ فى الآية على هذا التقدير . ورُوِى أن عليا أُتِى برجل ارتد، فاستتابه ثلاثة أيام، فلم يعاود الإسلام، فضرب عنقه، وقرأ « إلّا مَنْ تَوَلَّى وكَفَر » . وقرا ابن عباس وقتادة « أَلَا » على الاستفتاح والتنبيه، كقول امرئ القيس :

* أَلَا رُبَّ يومٍ لَكَ مِنْهُنَّ صَالِحٍ[(3)] *

---

(1) آية ٣٧ سورة الطور . وقد أورده صاحب اللسان وشرحه . (2) كذا فى نسخ الأصل وتفسير ابن عادل نقلا عن القرطبي . والذى فى الصحاح : « وأصله من السطر ، لأن الكتاب مسطر ... » .

(3) تمامه : * ولا سيما يوم بدارة جلجل *

و « مَنْ » على هذا : للشرط . والجواب « فَيُعَذِّبُهُ اللهُ » والمبتدأ بعد الفاء مضمر ، والتقدير : فهو يعذبه الله، لأنه لو أريد الجواب بالفعل الذى بعد الفاء لكان : إلا من تولى وكفر يعذبه الله . ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ أى رُجوعهم بعد الموت . يقال : آب يئوب ؛ أى رجع . قال عَبيد :

وكُلّ ذى غَيْبَةٍ يَئُوبُ * وغائبُ الموتِ لا يَئُوبُ

وقرأ أبو جعفر « إِيَّابَهُمْ » بالتشديد . قال أبو حاتم : لا يجوز التشديد، ولو جاز لجاز مثله فى الصيام والقيام . وقيل : هما لغتان بمعنى . الزمخشرى : وقرأ أبو جعفر المدنى « إيابهم » بالتشديد؛ ووجهه أن يكون فِيعالا : مصدر أيب، فِيعل من الإياب . أو أن يكون أصله إوّابا فِعّالا من أوب ، ثم قيل : إيوابا كديوان فى دِوّان . ثم فعل ما فعل بأصل سيد ونحوه .

سورة « الفجر »

مكية ، وهى ثلاثون آية[(١)]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ أقسم بالفجر . ﴿ وليالٍ عَشْرٍ . والشَّفْعِ والوَتْرِ . والليلِ إذا يسرِ ﴾ أقسام خمسة . واختُلِف فى « الفجر » ، فقال قوم : الفجر هنا : انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم؛ قاله علىّ وابن الزُّبير وابن عباس رضى الله عنهم . وعن ابن عباس[(٢)] أيضا أنه النهار كله، وعبّر عنه بالفجر لأنه أوّله . وقال ابن مُحَيْصن عن عطية عن ابن عباس : يعنى فجر يوم المحرم . ومثله قال قتادة . قال : هو فجر أوّل يوم من المحرم، منه تنفجر السنة .

(١) فى بعض نسخ الأصل : « سبع وعشرون » وفى بعضها : « تسع وعشرون » .
(٢) فى بعض النسخ : « ابن مسعود » .

وعنه أيضا : صلاة الصبح. وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : « والفجر » : يريد صبيحة يوم النحر؛ لأن الله تعالى جل ثناؤه جعل لكل يوم ليلة قبله، إلا يوم النحر لم يجعل له ليلة قبله ولا ليلة بعده؛ لأن يوم عرفة له ليلتان : ليلة قبله وليلة بعده، فمن أدرك الموقف ليلة بعد عرفة، فقد أدرك الحج إلى طلوع الفجر، فجر يوم النحر. وهذا قول مجاهد. وقال عكرمة : « والفجر » قال : آنشقاق الفجر من يوم جمع[١]. وعن محمد بن كعب القُرَظيّ : « والفجرِ » آخر أيام العشر، إذا دفَعْتَ من جَمْع. وقال الضحاك : فجر ذى الحجة؛ لأن الله تعالى قرن الأيام به فقال : « وليالٍ عشرٍ » أى ليال عشر من ذى الحجة. وكذا قال مجاهد والسدّيّ والكلبيّ فى قوله : « وليالٍ عَشْرٍ » هو عشر ذى الحجة، وقال ابن عباس. وقال مسروق هى العشر التى ذكرها الله فى قصة موسى عليه السلام « وأتممناها بِعَشْرٍ »[٢]، وهى أفضل أيام السنة. وروى أبو الزبير عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "« والفجرِ. وليالٍ عشرٍ » — قال : عشر الأضحى" فهى ليال عشر على هذا القول؛ لأن ليلة يوم النحر داخلة فيه، إذ قد خصها الله بأن جعلها موقفا لمن لم يدرك الوقوف يوم عرفة[٣]. وإنما نكرت ولم تعرّف لفضيلتها على غيرها، فلو عُرِّفت لم تستقبل بمعنى الفضيلة الذى فى التنكير، فنكرت من بين ما أقسم به، للفضيلة التى ليست لغيرها. والله أعلم. وعن ابن عباس أيضا : هى العشر الأواخر من رمضان؛ وقاله الضحاك. وقال ابن عباس أيضا ويمان والطبريّ : هى العشر الأُوَّل من المحرّم، التى عاشرها يوم عاشوراء[٥]. وعن ابن عباس « وَليالِ عشرٍ »[٤] (بالإضافة) يريد : وليالى أيام عشر.

قوله تعالى : ﴿ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴾ (٣)

الشفع : الاثنان، والوتر : الفرد. وآختلف فى ذلك؛ فرُوِى مرفوعا عن عِمران بن الحصين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : الشفع والوتر : الصلاة، منها شَفْع، ومنها وَتْر".

---

(١) جمع : هى مزدلفة.
(٢) آية ١٤٢ سورة الأعراف.
(٣) فى الجمل عن القرطبي : لأنها أفضل أيام السنة.
(٤) فى تفسير الألوسى : « وقرأ آبن عباس بالإضافة لضبطه بعضهم (وليال عشر) بلام دون ياء، وبعضهم (وليالى) بالياء، وهو القياس ».
(٥) قال الإمام محمد عبده فى تفسيره : هى عشر الليالى فى أول كل شهر.

وقال جابر بن عبد الله : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " « والفجرِ وليالٍ عشرٍ » — قال : هو الصبح، وعشر النحر، والوتر يوم عرفة، والشفع : يوم النحر ". وهو قول ابن عباس وعكرمة. واختاره النحاس، وقال : حديث أبي الزبير عن جابر هو الذي صح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهو أصح إسنادا من حديث عِمران بن حُصين . فيوم عرفة وتر، لأنه تاسعها، ويوم النحر شفع لأنه عاشرها . وعن أبي أيوب قال : سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : « والشَّفْع والوَتْرِ » فقال : " الشفع : يوم عرفة ويوم النحر، والوتر ليلةَ يوم النحر " . وقال مجاهد وابن عباس أيضا : الشفع خَلْقه، قال الله تعالى : « وخَلَقناكم أزواجا »(1) والوَتْر هو الله عز وجل . فقيل لمجاهد : أترويه عن أحد ؟ قال : نعم، عن أبي سعيد الخُدْريّ، عن النبي صلى الله عليه وسلم . ونَحوَه قال محمد بن سيرين ومسروق وأبو صالح وقتادة، قالوا : الشفع : الخلق، قال الله تعالى : « ومِن كُلِّ شَيْءٍ خلقنا زوجين »(2) : الكفر والإيمان، والشقاوة والسعادة، والهدى والضلال، والنور والظلمة، والليل والنهار، والحر والبرد، والشمس والقمر، والصيف والشتاء، والسماء والأرض، والجنّ والإنس . والوتر : هو الله عز وجل، قال جل ثناؤه : « قُلْ هُوَ اللهُ أَحدٌ . اللهُ الصَّمَد » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن لله تسعةً وتسعين اسما، والله وِتر يحب الوِتر " . وعن ابن عباس أيضا : الشفع : صلاة الصبح » والوتر : صلاة المغرب . وقال الربيع بن أنس وأبو العالية : هي صلاة المغرب، الشفع فيها ركعتان، والوتر الثالثة . وقال ابن الزُّبير : الشفع : يوما مِنىً : الحادى عشر، والثانى عشر . والثالث عشر الوتر؛ قال الله تعالى : « فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه : ومن تأخر فلا إثم عليه »(3) . وقال الضحاك : الشفع : عشر ذى الحجة، والوتر : أيام مِنًى الثلاثة . وهو قول عطاء . وقيل : إن الشفع والوتر : آدم وحوّاء؛ لأن آدم كان فردا فشُفِع بزوجته حوّاء، فصار شفعا بعد وتر . رواه ابن أبي نَجيح، وحكاه القشيريّ عن ابن عباس . وفى رواية : الشفع : آدم وحوّاء، والوتر هو الله تعالى . وقيل : الشفع والوتر : الخلق؛ لأنهم شفع ووتر،

---

(1) آية ٨ سورة النبأ . (2) آية ٤٩ سورة الذاريات . (3) آية ٢٠٣ سورة البقرة .

فكأنه أقسم بالخلق . وقد يقسم الله تعالى بأسمائه وصفاته لعلمه ، ويقسم بأفعاله لقدرته ؛ كما قال تعالى : « وما خَلَقَ الذكَرَ والأُنثى »(١) . ويقسم بمفعولاته ، لعجائب صنعه؛ كما قال : « والشَّمسِ وضُحَاها » ، « والسماءِ وما بَنَاها » ، « والسَّماءِ والطَّارِقِ » . وقيل : الشفع : دَرَجات الجنة ، وهي ثمان . والوتر ، دَرَكات النار؛ لأنها سبعة . وهذا قول الحسين بن الفضل؛ كأنه أقسم بالجنة والنار . وقيل : الشفع : الصفا والمروة ، والوتر : الكَعْبة . وقال مقاتل بن حَيّان : الشفع : الأيام والليالي ، والوتر: اليوم الذي لا ليلة بعده ، وهو يوم القيامة. وقال سفيان ابن عُيينة : الوتر : هو الله ، وهو الشفع أيضا ؛ لقوله تعالى : « ما يكون مِن نَجْوَى ثلاثةٍ إلا هو رابِعهم »(٢) . وقال أبو بكر الورّاق : الشفع : تضادّ أوصاف المخلوقين : العزّ والذل ، والقدرة والعجز ، والقوّة والضعف ، والعلم والجهل ، والحياة والموت ، والبصر والعَمَى ، والسمع والصَّمَم ، والكلام والخَرَس . والوتر : انفراد صفات الله تعالى : عِزّ بلا ذل ، وقدرة بلا عجز ، وقوّة بلا ضعف ، وعلم بلا جهل ، وحياة بلا موت ، وبصر بلا عَمًى ، وكلام بلا خَرَس ، وسمع بلا صَمَم ، وما وازاها . وقال الحسن : المراد بالشفع والوتر : العدد كله؛ لأن العدد لا يخلو عنهما ، وهو إقسام بالحساب . وقيل : الشفع : مسجد مكة والمدينة ، وهما الحرمان . والوتر: مسجد بيت المقدس . وقيل : الشفع : القِرن بين الحج والعمرة ، أو التمتع بالعمرة إلى الحج . والوتر: الإفراد فيه . وقيل : الشفع : الحيوان ؛ لأنه ذكر وأنثى . والوتر: الجماد. وقيل : الشفع : ما يَنْمى ، والوتر: ما لا يَنْمى وقيل غير هذا . وقرأ ابن مسعود وأصحابه والكسائي وحمزة وخلف « والوِتْرِ » بكسر الواو . والباقون (بفتح الواو) ، وهما لغتان بمعنى واحد . وفي الصحاح : الوِتر (بالكسر) : الفرد ، والوَتْر (بفتح الواو) : الذحل(٣) . هذه لغة أهل العالية . فأما لغة أهل الحجاز فبالضدّ منهم . فأما تميم فبالكسر فيهما .

---

(١) آية ٣ سورة الليل .

(٢) آية ٧ سورة المجادلة .

(٣) الذحل : الحقد والعداوة .

قوله تعالى : وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ والليلِ إذا يسرى ﴾ وهذا قسم خامس . و بعد ما أقسم بالليالى العشر على الخصوص، أقسم بالليل على العموم . ومعنى « يسرى » أى يُسْرَى فيه ؛ كما يقال : ليل نائم ، ونهار صائم . قال :

لَقَدْ لُمْتِنا يا أمَّ غَيلان فى السُّرَى * ونِمتِ وما ليـلُ المَطِىِّ بنـائِمِ[1]

ومنه قوله تعالى: « بَلْ مَكْرُ الليلِ والنهارِ »[2]. وهذا قول أكثر أهل المعانى، وهو قول القُتَبِىّ والأخفش. وقال أكثر المفسرين: معنى «يَسْرِى»: سار فذهب. وقال قتادة وأبو العالية: جاء وأقبـل . ورُوِى عن إبراهيم : « والليـلِ إذا يَسْرِ» قال : إذا استوى . وقال عكرمة والكلبىّ ومجاهد ومحمد بن كعب فى قوله « والليلِ » : هى ليلة المزدلِفة خاصة؛ لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله . وقيل : ليلة القَدْر ؛ لِسراية الرحمة فيها، واختصاصها بزيادة الثواب فيها . وقيل : إنه أراد عموم الليل كله .

قلت : وهو الأظهر ، كما تقدّم . والله أعلم . وقـرأ ابن كثير وابن مُحيصن و يعقوب «يسرى» بإثبات الياء فى الحالين، على الأصل؛ لأنها ليست بمجزومة، فثبتت فيها الياء. وقرأ نافع وأبو عمرو بإثباتها فى الوصل، وبحذفها فى الوقف، وروى عن الكسائى. قال أبو عبيد: كان الكسائى يقول مرة بإثبات الياء فى الوصل ، و بحذفها فى الوقف ، اتباعا للمصحف . ثم رجع إلى حذف الياء فى الحالين جميعا؛ لأنه رأس آية ، وهى قراءة أهل الشام والكوفة ، واختيار أبى عُبيد ، اتباعا للخط ؛ لأنهـا وقعت فى المصحف بغير ياء . قال الخليل : تسقط الياء منها اتفاقا لرءوس الآى . قال الفرّاء : قد تحذف العرب الياء، وتكتفى بكسر ما قبلها . وأنشد بعضهم :

كَفَّـاكَ كَفٌّ ما تُلِيقُ دِرهَمـا * جُوداً وأخرى تعطِ بالسَّيفِ الدَّما[3]

---

(١) هذا البيت من قصيدة لجرير يرد بها على الفرزدق . (٢) آية ٣٣ سورة سبأ .

(٣) البيت فى (اللسان : ليق) غير منسوب لقائله . وفى تفسير الطبرى (طبعة الحلبى ١٢ / ١١٦) .

يقال : فلان ما يُلِيق درهما من جوده؛ أى ما يمسكه ، ولا يلصق به . وقال المؤرِّج: سألت الأخفش عن العلة فى إسقاط الياء من « يَسْرِ »فقال : لا أجيبك حتى تبيت على باب دارى سنة، فبت على باب داره سنة ؛ فقال : الليل لا يَسْرِى وإنما يُسْرَى ، فيه؛ فهو مصروف، وكل ما صرفته عن جهته بَخَسْته من إعرابه ؛ ألا ترى إلى قوله تعـالى : « وما كانت أمكِ بغِيًا »(١) ، ولم يقل بغِيـة ، لأنه صرفها عن باغية . الزمخشرى : وياء « يسرى » تحذف فى الدَّرْج ، اكتفاء عنها بالكسرة ، وأما فى الوقف فتحذف مع الكسرة . وهذه الأسماء كلها مجرورة بالقسم ، والجواب محذوف ، وهو لَيُعَذَّبُنّ؛ يدل عليه قوله تعالى: « ألم تركيف فعل ربك — إلى قوله تعـالى — فصبّ عليهم ربك سَـوْط عذاب » . وقال ابن الأنبارى: هو « إنَّ رَبَّكَ لبِالمِرْصادِ » . وقال مقاتل: « هل » هنا فى موضع إنّ؛ تقديره: إن فى ذلك قسما لذى حِجْر . فـ « هل » على هـذا فى موضع جواب القسم . وقيل : هى على بابهـا من الاستفهام الذى معناه التقرير؛ كقولك : ألم أُنعِم عليك ؛ إذا كنت قد أنعمت . وقيل: المراد بذلك التأكيد لمـا أقسم به وأقسم عليـه . والمعنى » : بل فى ذلك مَقْنَع لذى حِجـر . والجواب على هذا : « إنَّ رَبَّكَ لبِالمِرْصادِ » . أو مضمر محذوف . ومعنى ﴿ لِذِى حِجْـرٍ ﴾ أى لذى لُبّ وعقل . قال الشاعر :

وكيف يرجّى أَنْ تتـوبَ وإنّمـا * يُرَجّى من الفِتيانِ مَنْ كان ذا حِجْر

كذا قال عامة المفسرين؛ إلا أن أبا مالك قال : «لِذِى حِجر»: لذى سِتر من الناس . وقال الحسن : لذى حلم . قال الفـراء : الكل يرجع إلى معنى واحد : لذى حِجْـر، ولذى عقل، ولذى حلم ، ولذى سِـتر؛ الكل بمعنى العقل . وأصل الحِجر : المنع . يقال لمن ملك نفسه ومنعها : إنه لذو حِجْر؛ ومنه سمى الحَجَر ، لامتناعه بصلابته : ومنه حَجر الحاكم على فلان، أى منعه وضبطه عن التصرّف؛ ولذلك سميتِ الحُجْرة حجرة ،لامتناع ما فيها بها.وقال الفرّاء: العرب تقول : إنه لذو حِجر: إذا كان قاهرا لنفسه ،ضابطا لها؛ كأنه أخذ من حَجَرت على الرجل.

(١) آية ٢٨ سورة مريم .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ أى مالكك وخالقك. ﴿ بِعادٍ . إرم ﴾ قراءة العامة « بعادٍ » منونا . وقرأ الحسن وأبو العالية « بِعادِ إِرَمَ » مضافا . فمن لم يضف جعل «إِرَم» آسمه، ولم يصرفه؛ لأنه جعل عادا آسم أبيهم، وإِرَم آسم القَبِيلة؛ وجعله بدلا منه، أو عطف بيان. ومن قرأه بالإضافة ولم يصرفه جعله آسم أمّهم، أو آسم بلدتهم. وتقديره : بعادأهل إرم . كقوله : «وَآسْأَلِ القَرْيَةَ» ولم تنصرف — قبيلة كانت أو أرضا — للتعريف والتأنيث . وقراءة العامة « إِرَمَ » بكسر الهمزة. وعن الحسن أيضا «بعادَ إرَمَ» مفتوحتين، وقرئ « بعادَ إِرْمَ» بسكون الراء، على التخفيف؛ كما قرئ « بوَرْقِكم » . وقرئ « بِعادِ إِرَمَ ذاتِ العِمادِ» بإضافة «إِرَمَ» — إلى — «ذاتِ العِمادِ». والإرم : العلم. أى بعاد أهل ذات العَلَم . وقرئ «بِعادٍ إِرَمَ ذاتَ العِمادِ» أى جعل الله ذاتَ العماد رميما. وقرأ مجاهد والضحاك وقتادة « أَرَمَ » بفتح الهمزة . قال مجاهد : من قرأ بفتح الهمزة شبههم بالآرام، التى هى الأعلام، واحدها : أَرَم. وفى الكلام تقديم وتأخير؛ أى والفجر وكذا وكذا إنّ ربك لبالمرصاد ألم تر. أى ألم ينته علمك إلى ما فعل ربك بعاد. وهذه الرؤية رؤية القلب، والخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم، والمراد عامّ. وكان أمر عاد وثمود عندهم مشهورا؛ إذ كانوا فى بلاد العرب، وحِجر ثمود موجود اليوم . وأمر فرعون كانوا يسمعونه من جيرانهم من أهل الكتاب ، واستفاضت به الأخبار ، وبلاد فرعون متصلة بأرض العرب . وقد تقدّم هذا المعنى فى سورة «البروج»[(1)] وغيرها﴿بِعادٍ﴾أى بقوم عاد . فروى شَهْر بن حَوْشَب عن أبى هريرة قال : إن كان الرجل من قوم عاد ليتخذ المِصْراع من حجارة، ولو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يُقِلُّوه، وإن كان أحدهم لَيُدخِل قدمه فى الأرض فتدخل فيها . و« إِرَم » : قيل هو سام بن نوح؛ قاله آبن إسحاق. وروى عطاء عن آبن عباس — وحكى عن آبن إسحاق

---

(1) راجع جـ ١٩ ص ٢٩٥

أيضا — قال: عاد ابن إرَم . فإرَم على هذا أبو عاد، وعاد بن إرَم بن عوص بن سام بن نوح. وعلى القول الأوّل: هو ٱسم جدّ عاد . قال ٱبن إسحاق : كان سام بن نوح له أولاد، منهم إرم بن سام، وأَرْفَخْشَذ بن سام. فمن ولد إرم بن سام العمالقة والفراعنة والجبابرة والملوك الطغاة والعصاة. وقال مجاهد : «إرَم» أمّة من الأمم. وعنه أيضا: أن معنى إرَمَ : القديمة، ورواه ٱبن أبي نَجِيح . وعن مجاهد أيضا أن معناها القوية (١) . وقال قتادة: هى قبيلة من عاد. وقيل: هما عادان . فالأولى هى إرَم؛ قال الله عز وجل: «وأنه أهلك عادا الأولى» (٢) . فقيل لعقب عاد بن عَوْص بن إِرَمْ بن سام بن نوح : عاد ؛ كما يقال لبنى هاشم : هاشم . ثم قيل للأولين منهم: عاد الأولى، وإِرَم: تسمية لهم بٱسم جَدّهم. ولمن بعدهم: عادٌ الأخيرة. قال ابن الرُّقَيّات :

مَجْـدًا تليــدا بنـاهُ أوّلُهم * أدرك عادا وقبـلَهُ إرَمَا

وقال مَعْمر: « إرم » : إليه مجمع عاد وثمود . وكان يقال : عادُ إرَمَ، وعادُ ثَمُودَ . وكانت القبائل تنتسب إلى إرم. ﴿ذاتِ العِمادِ، الّتِي لم يُخْلَق مِثلُها فِي البِلادِ﴾ قال ٱبن عباس فى رواية عطاء : كان الرجل منهم طوله خمسمائة ذراع ، والقصير منهم طوله ثلثمائة ذراع بذراع نفسه . ورُوى عن ٱبن عباس أيضا أن طول الرجل منهم كان سبعين ذراعا . ٱبن العربى: وهو باطل؛ لأن فى الصحيح : " إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعا فى الهواء، فلم يزل الخلق ينقُص إلى الآن". وزعم قتادة : أن طول الرجل منهم ٱثنا عشر ذراعا. قال أبو عبيدة: «ذاتِ العِمادِ» ذات الطُّول . يقال : رجل مُعَمَّد إذا كان طويلا . ونحوه عن ٱبن عباس ومجاهد . وعن قتادة أيضا : كانوا عِمادا لقومهم؛ يقال : فلان عَميد القوم وعُمُودهم : أى سيدهم . وعنه أيضا : قيل لهم ذلك، لأنهم كانوا ينتقلون بأبياتهم للانتجاع، وكانوا أهل خيام وأعمدة، ينتجعون الغيوث، و يطلبون الكلأ ، ثم يرجعون إلى منازلهم . وقيل : « ذاتِ العِمادِ » أى ذات الأبنية المرفوعة على العَمَد. وكانوا ينصبون الأعمدة، فيبنون عليها القصور. قال ابن زيد:

---

(١) فى بعض النسخ : « القرية » . (٢) آية ٥٠ سورة النجم .

« ذاتِ العِمادِ » يعنى إحكام البُنيان بالعَمَد . وفى الصحاح : والعماد : الأبنية الرفيعة ، تذكر وتؤنث . قال عمرو بن كلثوم :

ونحن إذا عِمادُ الحىّ خَرّتْ * على الأَحْفاضِ نمنع مَنْ يَلِينا

والواحدة عِمادة . وفلان طويل العِماد : إذا كان منزله مَعْلَما لزائره . والأحفاض : جمع حَفَض (بالتحريك) وهو متاع البيت إذا هُيِّئ لِيُحمل؛ أى خَرّتْ على المتاع . و يروى : « عن الأحفاض » أى خرّت عن الإبل التى تحمل خُرْثِىَّ(1) البيت . وقال الضحاك : « ذاتِ العِمادِ » ذات القوة والشدّة ، مأخوذ من قوّة الأعمدة ؛ دليله قوله تعالى : « وقالُوا مَنْ أَشدُّ منّا قُوّةً(2) » . وروى عوف عن خالد الرَّبعِىّ « إرم ذاتِ العِمادِ » قال : هى دمشق . وهو قول عكرمة وسعيد المَقْبُرِىّ . رواه آبن وهب وأشهب عن مالك . وقال محمد بن كعب القُرظِىّ : هى الإسكندرية .

قوله تعالى : ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾

الضمير فى « مِثلها » يرجع إلى القبيلة . أى لم يخلق مثل القبيلة فى البلاد : قوّة وشدّة، وعِظَم أجساد ، وطول قامة ؛ عن الحسن وغيره . وفى حرف عبد الله « الّتى لم يُخْلَقْ مِثْلُهُمْ فى البلاد» . وقيل: يرجع للمدينة . والأوّل أظهر، وعليه الأكثر، حَسْب ماذ كرناه . ومن جعل « إرم » مدينة قدّر حذفا ؛ المعنى : كيف فعل ربك بمدينة عاد إرم، أو بعد صاحبه إرم . وإرم على هذا : مؤنثة معرّفة . وآختار آبن العربىّ أنها دِمشق، لأنه ليس فى البلاد مثلها . ثم أخذ ينعتها بكثرة مياهها وخيراتها . ثم قال : وإن فى الإسكندرية لعجائب ، لو لم يكن إلا المنارة، فإنها مبنية الظاهر والباطن على العمد، ولكن لها أمثال، فأمّا دِمشق فلا مِثل لها . وقد روى مَعْن عن مالك أن كتابا وُجِد بالإسكندرية، فلم يُدْرَ ما هو ؟ فإذا فيه « أنا شدّاد آبن عاد، الذى رفع العماد ، بنيتها حين لا شيبَ ولا مَوْت . قال مالك : إن كان لتمرّ بهم

(1) الخرثى ككرسىّ : سقط متاع البيت وأثاثه (أردؤه) . (2) آية ١٥ سورة فصلت .

مائة سنة لا يرون فيها جنازة . وذكر عن ثور بن زيد[1] أنه قال : أنا شداد بن عاد ، وأنا رفعت العماد ، وأنا الذى شددت بذراعى بطن الواد ، وأنا الذى كنزت كنزا على سبعة أذرع ، لا يخرجه إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم . ورُوِى أنه كان لعاد ابنان : شداد وشديد ؛ فملكا وقهرا ، ثم مات شديد ، وخلص الأمر لشداد فملك الدنيا ، ودانت له ملوكها ؛ فسمع بذكر الجنة ، فقال : أبنى مثلها . فبنى إرم فى بعض صحارى عَدَن ، فى ثلثمائة سنة ، وكان عمره تسعمائة سنة . وهى مدينة عظيمة ، قصورها من الذهب والفضة ، وأساطينها[2] من الزبرجد والياقوت ، وفيها أصناف الأشجار والأنهار المُطّردة[3] . ولما تمّ بناؤها سار إليها بأهل مملكته ، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة ، بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا . وعن عبد الله بن قِلابة : أنه خرج فى طلب إبل له ، فوقع عليها ، فحمل ما قدر عليه مما ثَمّ ، وبلغ خبره معاوية فاستحضره ، فقص عليه ، فبعث إلى كعب[4] فسأله ، فقال : هى إرَمُ ذاتُ العماد ، وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك ، أحمر أشقر قصير ، على حاجبه خال ، وعلى عَقِبه خال ، يخرج فى طلب إبل له ؛ ثم التفت فأبصر ابن قِلابة ، وقال : هذا والله ذلك الرجل . وقيل : أى لم يخلق مثل أبنية عاد المعروفة بالعمد . فالكناية للعماد . والعماد على هذا : جمع عَمَد . وقيل : الإرَم : الهلاك ؛ يقال : أَرِم بنو فلان : أى هلكوا ؛ وقاله ابن عباس[5] . وقرأ الضحاك : « أَرَمَّ[6] ذاتَ العِمادِ » ؛ أى أهلكهم ، فجعلهم رِمِيما[7] .

قوله تعالى : ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ ﴾

ثمود : هم قوم صالح . و « جابوا » : قطعوا . ومنه : فلان يجوب البلاد ، أى يقطعها . وإنما سمى جيب القميص لأنه جِيبَ ؛ أى قطع . قال الشاعر وكان قد نزل على ابن الزبير بمكة ، فكتب له بستين وَسْقا يأخذها بالكوفة . فقال :

(١) فى الأصول : « يزيد » وهو تحريف . (٢) الأساطين : جمع الأسطوانة ، وهى العمود والسارية .
(٣) أى الجارية . (٤) يريد : كعبا الحبر : عالم أهل الكتاب . (٥) حكاه الطبرى .
(٦) كذا بفتح الهمزة والراء . حكاه الشوكانى فى فتح القدير (٥ / ٤٣٢) .
(٧) قوله (جعلهم رميما) بيان للمعنى ، وليس تفسيرا للاشتقاق .

راحت رَوَاحًا قَلُوصى وهى حامدة * آلَ الزُّبَير ولم تَعْـدِل بهـم أحدَا

راحتْ بستينَ وَسْـقًا فى حَقِيبتهـا * ما حَمَلَتْ حَمْلَها الأدنَى ولا السَّدَدا

ما إنْ رأيتُ قَلُوصا قبلهـا حملت * ستيـن وَسْـقا ولا جابت به بلدا

أى قطعت . قال المفسرون : أوّل من نحت الجبـال والصور والرخام : ثمـود . فبنوا من المدائن ألفا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة . ومن الدور والمنازل ألفَىْ ألف وسبعمائة ألف، كلها من الحجارة. وقد قال تعالى : «وكانوا ينحِتُون مِن الجبالِ بيوتا آمِنِين» (١). وكانوا لقوّتهم يُخرجون الصخور، وينقبون الجبال، ويجعلونها بيـوتا لأنفسهم . ﴿ بِالوادِى ﴾ أى بوادى القُرَى ؛ قاله محمد بن إسحاق . وروى أبو الأشهب عن أبى نَضْرة قال : أتى رسول الله صلى الله عليـه وسلم فى غَزاة تَبوك على وادى ثمود ، وهو على فَرَس أشقر ، فقال : "أسرعوا السير، فإنكم فى وادٍ ملعون" . وقيل : الوادى بين جبـال ، وكانوا ينقبون فى تلك الجبال بيوتا ودورا وأحواضا. وكل مُنْفَرَج بين جبال أو تلال يكون مسلكا للسيل ومنفذا فهو وادٍ.

قوله تعالى : وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾

أى الجنود والعساكر والجموع والجيوش التى تشدّ ملكه؛ قاله ابن عباس . وقيل : كان يعذب الناس بالأوتاد ، ويشدهم بها إلى أن يموتوا ؛ تجبرا منه وعُتُوا . وهكذا فعل بآمرأته آسية وماشطة ابنته؛ حَسْب ما تقدم فى آخر سورة «التحريم» (٢) . وقال عبد الرحمن بن زيد: كانت له صخرة تُرفع بالبكرات ، ثم يؤخذ الإنسان فتوتد له أوتاد الحديد، ثم يرسل تلك الصخرة عليه فتشدخه . وقد مضى فى سورة «ص» (٣) من ذكر أوتاده ما فيه كفاية . والحمد لله .

قوله تعـالى : ٱلَّذِينَ طَغَـوْا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَـا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾

---

(١) آية ٨٢ سورة الحجر . (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٠٢ (٣) راجع جـ ١٥ ص ١٥٤

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴾ يعنى عادا وثمودا[١] وفرعون « طَغَوْا » أى تمردوا وعتَوْا وتجاوزوا القدر فى الظلم والعُدوان . ﴿ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ أى الجَوْر والأذى . و « الذينَ طَغَوا» أحسن الوجوه فيه أن يكون فى محل النصب على الذم . ويجوز أن يكون مرفوعا على : هم الذين طغوا، أو مجرورا على وصف المذكورين : عادٍ، وثمودٍ، وفرعونَ . ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أى أفرغ عليهم وألقَى ؛ يقال: صبّ على فلان خِلعة، أى ألقاها عليه . وقال النابغة :

فَصَبَّ[٢] عليه اللهُ أحْسَنَ صَنْعِه * وكان له بين البرية ناصرا

﴿ سَوْطَ عذابٍ ﴾ أى نصيب عذاب . ويقال : شِدّته ؛ لأن السوط كان عندهم نهاية ما يُعذَّب به . قال الشاعر :

ألم تر أن الله أظهرَ دِينَه * وصبَّ على الكفار سَوْطَ عَذابِ

وقال الفراء: وهى كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب. وأصل ذلك أن السوط هو عذابهم الذى يُعذَّبون به، فجرى لكل عذاب؛ إذ كان فيه عندهم غاية العذاب. وقيل. معناه عذاب يخالط اللحم والدم؛ من قولهم : ساطه يَسوطه سَوْطا أى خلطه ، فهو سائط . فالسوط : خلط الشيء بعضه ببعض، ومنه سمى المِسْواط . وساطَهُ[٣] أى خَلَّطه ، فهو سائط، وأكثر ذلك يقال : سَوَّط فلان أموره . قال :

فَسُطْها ذَمِيمَ الرأىِ غيرَ مُوَفَّقٍ * فلستَ على تَسوِيطِها بمُعانِ

قال أبو زيد : يقال أموالهم سَوِيطة بينهم ؛ أى مختلطة . حكاه عنه يعقوب . وقال الزجاج: أى جعل سوطَهم الذى ضربهم به العذاب. يقال: ساط دابته يَسُوطها؛ أى ضربها

---

(١) اختلف فى «ثمود» فنهم من صرفه ومنهم من لم يصرفه ؛ فمن صرفه ذهب به إلى الحى لأنه اسم عربى مذكر سمى بمذكر . ومن لم يصرفه ذهب به إلى القبيلة وهى مؤنثة .

(٢) الرواية فى البيت كما فى ديوانه وشعراء النصرانية : * وربّ عليه الله ... الخ *

قال البطليوسى شارح الديوان : ربه أتمه . وأصله أن يقال : ربيت معروفى عند فلان أربه ربا : إذا أدمته عليه وتممته لديه . و «رب عليه» : دعاء معطوف على ما قبله . وهو مدح فى النعمان . وعلى هذه الرواية لا شاهد فى البيت .

(٣) فى الأصل : (سوطه) بصيغة المصدر . وصيغة الفعل الثلاثى الماضى أمكن هنا .

بسوطه . وعن عمرو بن عُبيد : كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال : إن عند الله أسواطا كثيرة ، فأخذهم بسوط منها . وقال قتادة : كل شيء عذب الله تعالى به فهو سوط عذاب .

قوله تعالى : إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾

أي يَرْصُد عمل كل إنسان حتى يجازِيه به ؛ قاله الحسن وعكرمة . وقيل : أي على طريق العباد لا يفوته أحد . والمَرْصَد والمِرصاد : الطريق . وقد مضى في سورة « براءة »(١) والحمد لله . فروى الضحاك عن ابن عباس قال : إن على جهنم سبع قناطر ، يُسأل الإنسان عند أوّل قنطرة عن الإيمان ، فإن جاء به تاما جاز إلى القنطرة الثانية ، ثم يُسأل عن الصلاة ، فإن جاء بها جاز إلى الثالثة ، ثم يُسأل عن الزكاة ، فإن جاء بها جاز إلى الرابعة . ثم يُسأل عن صيام شهر رمضان ، فإن جاء به جاز إلى الخامسة . ثم يُسأل عن الحج والعُمْرة ، فإن جاء بهما جاز إلى السادسة . ثم يسأل عن صلة الرحم ، فإن جاء بها جاز إلى السابعة . ثم يُسأل عن المظالم ، وينادي منادٍ : ألا من كانت له مَظْلِمة فليأت ؛ فيقتص للناس منه ، ويقتص له من الناس ؛ فذلك قوله عز وجل : «إن ربك لبِالمرصادِ» . وقال الثوري : «لبِالمِرصادِ» يعني جهنم ؛ عليها ثلاث قناطر : قنطرة فيها الرَّحِم ، وقنطرة فيها الأمانة ، وقنطرة فيها الرب تبارك وتعالى .

قلت : أي حكمته وإرادته وأمره . والله أعلم . وعن ابن عباس أيضا « لبِالمِرصادِ » أي يسمع ويرى .

قلت : هذا قول حسن ؛ « يَسْمع » أقوالهم ونجواهم ، و « يَرَى » أي يعلم أعمالهم وأسرارهم ، فيجازِي كلا بعمله . وعن بعض العرب أنه قيل له : أين ربك ؟ فقال : بالمرصاد . وعن عمرو بن عُبيد أنه قرأ هذه السورة عند المنصور حتى بلغ هذه الآية ، فقال : « إن ربك لبِالمرصادِ » يا أبا جعفر ! قال الزمخشري : عَرَّض له في هذا النداء ، بأنه بعض من

(١) راجع ج ٨ ص ٧٣

تُوعِّد بذلك من الجبابرة ؛ فلله دره . أيُّ أسدِ فرّاس كان بين يديه؟[1] يَدُقّ الظُّلْمة بإنكاره، ويقمع أهل الأهواء والبدع باحتجاجه[2] !

قوله تعالى : فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فأمّا الإنسانُ ﴾ يعني الكافر . قال ابن عباس : يريد عُتبة بن ربيعة وأبا حذيفة بن المغيرة . وقيل : أُمية بن خلف . وقيل، أُبيّ بن خلف . ﴿ إذا ما ابتلاه ربه ﴾ أى امتحنه واختبره بالنعمة . و «ما» : زائدة صلة . ﴿فأكْرمه﴾ بالمال . ﴿ونعّمه﴾ بما أوسع عليه . ﴿ فَيقولُ ربّى أَكْرَمَنِ ﴾ فيفرح بذلك ولا يحمده . ﴿ وأما إذَا ما ابْتلاهُ ﴾ أى امتحنه بالفقر واختبره . ﴿ فقَدَر ﴾ أى ضيق ﴿ عليه رِزقَه ﴾ على مقدار البُلْغة . ﴿فيقولُ ربِّى أهانَنِ ﴾ أى أولانى هوانا . وهذه صفة الكافر الذى لا يؤمن بالبعث : وإنما الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظ فى الدنيا وقِلته . فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته وتوفيقه، المؤدّى إلى حظ الآخرة ، وإن وسّع عليه فى الدنيا حمِده وشكره .

قلت : الآيتان صفة كل كافر. وكثير من المسلمين يظنّ أن ما أعطاه الله لكرامته وفضيلته عند الله ، وربما يقول بجهله : لو لم أستحقّ هذا لم يعطنيه الله . وكذا إن قتّر عليه يظنّ أن ذلك لهوانه على الله . وقراءة العامّة «فقَدَر» مخففة الدال . وقرأ ابن عامر مشدّدا، وهما لغتان . والاختيار التخفيف؛ لقوله : « ومن قُدِرَ عليه رِزقه »[2] . قال أبو عمرو : و«قَدر» أى قُتّر . و«قَدّر» مشدّدا : هو أن يعطيه ما يكفيه، ولو فعل به ذلك ما قال «ربى أهانن» . وقرأ أهل الحَرَمين وأبو عمرو «ربّىَ » بفتح الياء فى الموضعين . وأسكن الباقون . وأثبت البَزّى

(١) فى بعض الأصول والزمخشرى : « ثو بيه » .

(٢) آية ٧ سورة الطلاق .

وابن مُحَيصن ويعقوب الياء من « أكرمنِ » ، و « أهاننِ » فى الحالين؛ لأنها اسم فلا تحذف. وأثبتها المدنيون فى الوصل دون الوقف، اتباعا للمصحف . وخير أبو عمرو فى إثباتها فى الوصل أو حذفها؛ لأنها رأس آية ، وحذفها فى الوقف لخط المصحف . الباقون بحذفها، لأنها وقعت فى الموضعين بغير ياء ، والسنة ألا يخالف خط المصحف ؛ لأنه إجماع الصحابة .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ ردّ ؛ أى ليس الأمر كما يُظَنّ، فليس الغِنى لفضله ، ولا الفقر لهوانه ، وإنما الفقر والغنى من تقديرى وقضائى . وقال الفراء : « كَلّا » فى هذا الموضع بمعنى لم يكن ينبغى للعبد أن يكون هكذا ، ولكن يحمَدُ الله عز وجل على الغنى والفقر. وفى الحديث : " يقول الله عز وجل : كلا إنى لا أكرِم من أكرمت بكثرة الدنيا ، ولا أهين من أهنت بقلتها ، إنما أكرم من أكرمت بطاعتى ، وأهين من أهنت بمعصيتى " .

قوله تعالى : ﴿ بَل لا تُكْرِمُونَ اليَتِيمَ ﴾ إخبار عن ما كانوا يصنعونه من منع اليتيم الميراث، وأكل ماله إسرافًا وبِدارًا أَنْ يَكْبَرُوا . وقرأ أبو عمرو ويعقوب « يُكْرِمون » ، و « يَحُضُّون » و « يأكلون » ، و « يُحِبُّونَ » بالياء؛ لأنه تقدّم ذكر الإنسان، والمراد به الجنس، فعبر عنه بلفظ الجمع . الباقون بالتاء فى الأربعة ، على الخطاب والمواجهة ؛ كأنه قال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا . وترك إكرام اليتيم بدفعه عن حقه ، وأكل ماله كما ذكرنا . قال مقاتل : نزلت فى قُدامة ابن مظعون وكان يتيما فى حجر أُمية بن خَلَف . ﴿ ولا تَحُضونَ على طعامِ المِسْكِينِ ﴾ أى لا يأمرون أهليهم بإطعام مسكين يجيئهم . وقرأ الكوفيون « ولا تَحَاضُّونَ » بفتح التاء والحاء والألف . أى يَحُضُّ بعضهم بعضا . وأصله تتحاضُّون ، فحذف إحدى التاءين لدلالة الكلام عليها . وهو اختيار أبى عُبيد . ورُوِى عن إبراهيم والشَّيْزَرِى عن الكسائى والسُّلَمِى « تُحَاضُّون » بضم

التاء، وهو تُفاعِلون من الحضّ، وهو الحث . ﴿وتأْكُلون التُّراثَ﴾ أى ميراث اليتامى . وأصله الوُراث من ورِث، فأبدلوا الواو تاء؛ كما قالوا فى تُجاه وتُخَمة وتُكَأة وتُؤَدة ونحو ذلك . وقد تقدّم . ﴿أَكْلًا لَمًّا﴾ أى شديدا ؛ قاله السُّدِّىّ . قيل « لَمّا » : جمعا؛ من قولهم : لممت الطعام لمّا إذا أكلته جمعا ؛ قاله الحسن وأبو عُبيدة . وأصل اللّمّ فى كلام العرب : الجمع؛ يقال: لَمَمْت الشيء أَلُمّه لَمًّا : إذا جمعته، ومنه يقال: لمّ الله شعثه، أى جمع ماتفرّق من أموره . قال النابغة :

ولَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لا تَلُمُّـه * على شَعَثٍ أَىُّ الرجال المُهَذَّبُ

ومنه قولهم : إن دارك لَمُومَة ؛ أى تَلُمّ الناس وتَرُبّهم وتجمعهم . وقال المِرناق[1] الطائىُّ يمدح علقمة بن سيف :

لأَحَبَّنِي حُبَّ الصبىّ ولَمَّنِى[2] * لَمَّ الهَدِىّ إلى الكريم الماجِدِ

وقال الليث : اللمّ الجمع الشديد؛ ومنه حجر ملموم، وكتيبة ملمومة . فالآكل يَلُم الثريد، فيجمعه لُقَمًا ثم يأكله . وقال مجاهد . يَسفّه سفًّا : وقال الحسن : يأكل نصيبه ونصيب غيره . قال الحُطيئة :

إذا كانَ لَمًّا يُتْبِع الذمَّ ربَّه * فلا قدّس الرحمنُ تلك الطواحِنا

يعنى أنهم يجمعون فى أكلهم بين نصيبهم ونصيب غيرهم . وقال ابن زيد : هو أنه إذا أكل ماله ألَمّ بمال غيره فأكله، ولا يفكر : أكل من خبيث أو طيب . قال : وكان أهل الشرك لا يورّثون النساء ولا الصبيان، بل يأكلون ميراثهم مع ميراثِهم، وتراثهم مع تُراثِهم . وقيل : يأكلون ما جمعه الميت من الظلم وهو عالم بذلك، فيَلُمّ فى الأكل بين حرامه وحلاله . ويجوز

---

(١) كذا فى نسخ الأصل ومعجم الشعراء للمرزبانى . قال المرزبانى : « وأحسبه لقبا » . وفى لسان العرب : « قال فدكى بن أعبد يمدح ... » . وفى كتاب أشعار الحماسة : « وقال رجل من بهراء، وآسمه فدكى يمدح ... » .

(٢) فى اللسان والحماسة ومعجم الشعراء : « ورمّنى » بالراء بدل « ولمّنى » باللام، وعلى هذا لا شاهد فيه . وقوله « ورمّنى » : أى أصلح حالى وشأنى . و « الهدى » : العروس تهدى إلى زوجها، فإذا زفت إليه تكلف أهلها فى حسن تجهيزها، لئلا يعير أهل زوجها خللا وقع فى أمرها .

أن يذمّ الوارث الذى ظفر بالمال سَهْلا مَهْلا ، من غير أن يعرَق فيه جبينه ، فيسرف فى إنفاقه ، ويأكله أكلا واسعا ، جامعا بين المشتهيات من الأطعمة والأشربة والفواكه ، كما يفعل الوُرّاث البطالون . ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ أى كثيرا ، حلاله وحرامه . والجمّ الكثير . يقال : جمّ الشىء يَجُمّ جُموما ، فهو جَمّ وجامّ . ومنه جمّ الماء فى الحوض : إذا آجتمع وكثر . وقال الشاعر[1] :

إن تغفرِ اللّهُمّ تغفرْ جَمّا * وأىّ عبدٍ لكَ لا أَلَمّا

والجَمّة : المكان الذى يجتمع فيه ماؤه . والجَموم : البئر الكثيرة الماء . والجُمُومُ (بالضم) : المصدر ؛ يقال : جمّ الماء يجِم جموما : إذا كثر فى البئر وآجتمع ، بعد ما آستقِى ما فيها .

قوله تعالى : كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ أى ما هكذا ينبغى أن يكون الأمر . فهو ردّ لآنكبابهم على الدنيا ، وجمعهم لها ؛ فإن من فعل ذلك يندم يوم تُدَكّ الأرض ، ولا ينفع الندم . والدّك : الكسر والدقّ ؛ وقد تقدّم[2] . أى زلزلت الأرض ، وحُرِّكت تحريكا بعد تحريك . وقال الزجاج : أى زلزلت فَدَكّ بعضها بعضا . وقال المبرد : أى ألصِقت وذهب آرتفاعها . يقال ناقة : دَكّاء ، أى لا سنام لها ، والجمع دُكّ . وقد مضى فى سورة «الأعراف» و «الحاقة» القول فى هذا . ويقولون : دُكّ الشىء أى هُدِم . قال :

* هل غير غارٍ دَكّ غارا فآنهدمْ[3] *

﴿ دَكًّا دَكًّا ﴾ أى مرة بعد مرة ؛ زلزلت فكُسِّر بعضها بعضا ؛ فتكسر كل شىء على ظهرها . وقيل : دُكّت جبالها وأنشازها حتى آستوت . وقيل : دُكّت أى آستوت فى الآنفراش ؛ فذهب دُورها وقُصورها وجبالها وسائر أبنيتها . ومنه سمى الدّكان ، لآستوائه فى الآنفراش . والدك : حطّ المرتفع من الأرض بالبسط ؛ وهو معنى قول آبن مسعود وآبن عباس : تمدّ الأرض مدّ الأديم .

(١) هو أبو خراش الهذلى . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٧٨ وجـ ١١ ص ٦٣ وجـ ١٨ ص ٢٦٤

(٣) الغار : الجمع الكثير من الناس .

قوله تعالى : وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وجاءَ ربُّك ﴾ أى أمره وقضاؤه ؛ قاله الحسن . وهو من باب حذف المضاف . وقيل : أى جاءهم الربّ بالآيات العظيمة ؛ وهو كقوله تعالى : « إلّا أن يأتِيَهُمُ اللهُ فِى ظُلَلٍ مِن الغَمامِ »(١) ، أى بظلل . وقيل : جعل مجيء الأيات مجيئا له ، تفخيما لشأن تلك الآيات . ومنه قوله تعالى فى الحديث : "يا بن آدم ، مرِضتُ فلم تَعُدنِى ، وآستسقيتُك فلم تَسْقِنِى ، وآستطعمتك فلم تُطْعِمْنى" . وقيل : « وجاءَ ربُّك » أى زالت الشُّبَهُ ذلك اليوم ، وصارت المعارف ضرورية ، كما تزول الشُّبَه والشك عند مجيء الشيء الذى كان يُشَك فيه . قال أهل الإشارة : ظهرت قدرته وآستولت(٢) ، والله جل ثناؤه لا يوصف بالتحوّل من مكان إلى مكان ، وأنّى له التحوّل والآنتقال ، ولا مكان له ولا أوان ، ولا يجرى عليه وقت ولا زمان ؛ لأن فى جَرَيان الوقت على الشيء فوت الأوقات ، ومن فاته شيء فهو عاجز .

قوله تعالى : ﴿والمَلَكُ﴾ أى الملائكة . ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ أى صفوفا . ﴿وجِيءَ يومئذٍ بجهنّم﴾ : قال آبن مسعود ومقاتل : تقاد جهنم بسبعين ألف زمام ، كل زمام بيد سبعين ألف ملك ، لها تغيظ وزفير ، حتى تنصب عن يسار العرش . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يُؤْتَى بجهنم يومئذ ، لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك ، يجرّونها" . وقال أبو سعيد الخُدرِىّ : لما نزلت « وجِيءَ يومئذٍ بجهنَّم » تغيّر لون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعُرِف فى وجهه ، حتى آشتدّ على أصحابه ، ثم قال : "أقرأنى جبريل « كَلّا إذا دُكتِ الأرضُ دَكًّا دَكًّا — الآية — وجِيء يومئذ بجهنم" . قال علىّ رضى الله عنه : قلت يا رسول الله ، كيف يجاء بها؟ قال : "يؤتى بها تقاد بسبعين ألف زمام ، يقود بكل زمام سبعون ألفَ مَلَك ، فتَشْرُد شَرْدَةً لو تُركت لأحرقت أهل الجمع

(١) آية ٢١٠ سورة البقرة .   (٢) فى بعض الأصول : « واستوت » .

ثم تَعْـرِض لى جهنم فتقول : مالى ولك يامحمد ، إن الله قـد حرّم لحمك علىّ " فلا يبقى أحد إلا قال نفسى نفسى ! إلا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه يقول : رب أمتى! ربِّ أمتى !

قوله تعـالى : ﴿ يومَئذٍ يتذَكَّرُ الإنسانُ﴾ أى يتعِظ و يتوب. وهو الكافر، أو من هِمته معظم[1] الدنيا . ﴿وأَنَّى له الذِّكْرَى﴾ أى ومِن أين له الاتعاظ والتوبة وقد فرّط فيها فى الدنيا . ويقـال : أى ومِن أين له منفعة الذكرى . فلا بدّ من تقـدير حذف المضاف ، وإلا فبين « يَوْمَئذٍ يتذكر » وبين « وأَنَّى له الذكرى » تنافٍ ؛ قاله الزمخشرىّ .

قوله تعـالى : يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَـاتِي ﴿٢٤﴾

أى فى حيـاتى . فاللام بمعنى فى . وقيل : أى قـدمت عملا صالحا لحياتى ، أى لحياة لا موت فيها . وقيل: حياة أهل النار ليست هنيئة، فكأنهم لا حياة لهم؛ فالمعنى: ياليتنى قدّمت من الخير لنجاتى من النار، فأكون فيمن له حياة هنيئة .

قوله تعـالى : فَيَوْمَئِـذٍ لَّا يُعَـذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَيَوْمئِذٍ لا يُعَذِّب عَذَابَه أَحَدٌ ﴾ أى لا يعذِّب كعذاب الله أحد ، ولا يُوثِق كوثاقه أحد . والكناية ترجع إلى الله تعالى . وهـو قول ابن عباس والحسن . وقـرأ الكسائى « لا يُعَـذَّب » « ولا يُوثَق » بفتح الذال والثاء ؛ أى لا يعـذب أحد فى الدنيـا كعذاب الله الكافر يَوْمَئذ، ولا يوثَق كما يوثَق الكافر . والمراد إبليس ؛ لأن الدليل قام على أنه أشدّ الناس عذابا، لأجل إجرامه؛ فأطلق الكلام لأجل ما صحبه من التفسير . وقيل: إنه أمية ابن خلف ؛ حكاه الفرّاء . يعنى أنه لا يعذَّب كعذاب هـذا الكافر المعيَّن أحد ، ولا يوثَق بالسلاسل والأغلال كَوثاقه أحد ؛ لتناهيه فى كفره وعناده . وقيل : أى لا يعـذَّب مكانه

---

(١) هكذا وردت فى جميع نسخ الأصل . وفى تفسير ابن عادل : « ومن همته الدنيا » .

أحد ، فلا يؤخذ منه فـداء . والعذاب بمعنى التعذيب ، والوثاق بمعنى الإيثاق . ومنـه قول الشاعر :

* وبَعْدَ عَطائِكَ المـائَةَ الرِّتاعا (١) *

وقيـل : لا يعذب أحد ليس بكافر عذاب الكافر . وآختار أبو عبيد وأبو حاتم فتح الذال والثاء . وتكون الهاء ضمير الكافر، لأن ذلك معروف: أنه لا يعذب أحد كعذاب الله . وقد روى أبو قِلابة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قرأ بفتح الذال والثاء . وروى أن أباعمرو رجـع إلى قراءة النبيّ صلى الله عليه وسـلم . وقال أبو عليّ : يجوز أن يكون الضمير للكافر على قراءة الجماعة ؛ أى لا يعذِّب أحدٌ أحدا مثل تعذيب هذا الكافر ؛ فتكون الهاء للكافر. والمراد بـ « أحد » الملائكة الذين يتولون تعذيب أهل النار .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ يَأَيَّتُهَا النَّفْسُ المطمئنة ﴾ لمـا ذكر حال من كانت هِمته الدنيا فاتهم الله فى إغنائه و إفقاره، ذكر حال من آطمأنت نفسه إلى الله تعالى، فسلم لأمره، واتكل عليه. وقيل: هو من قول الملائكة لأولياء الله عز وجل . والنفس المطمئنة : الساكنة المُوقنة ؛ أيقنت أن الله ربهـا ، فأخبتت لذلك ؛ قاله مجاهـد وغيره . وقال آبن عباس : أى المطمئنة بثواب الله . وعنـه المؤمنة . وقال الحسن : المؤمنة الموقنة . وعن مجاهد أيضا : الراضـية بقضاء الله، التى علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها، وأنّ ما أصابها لم يكن ليخطئها. وقال مقاتل: الآمنة من عذاب الله . وفى حرف أُبيّ بن كعب « يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة » . وقيل : التى عمِلت على يقين بمـا وعد الله فى كتابه . وقال آبن كَيسان : المطمئنة هنا : المخلصة.

---

(١) هذا عجز بيت للقطامى ، من قصيدة مدح بها زفر بن الحارث ، وصدره :

* أكفرا بعد ردّ الموت عنى *

والرتاع : الإبل الراتعة .

وقال ابن عطاء : العارفة التي لا تصبر عنه طرفة عين . وقيل : المطمئنة بذكر الله تعالى؛ بيانه «الَّذِينَ آمَنُوا وتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ»[1] . وقيل : المطمئنة بالإيمان، المُصدِّقة بالبعث والثواب . وقال ابن زيد : المطمئنة لأنها بشرت بالجنة عند الموت، وعند البعث ، ويوم الجمع . وروى عبد الله بن بُرَيدة عن أبيه قال : يعني نفس حمزة . والصحيح أنها عامة في كل نفسٍ مؤمنٍ مخلص طائع . قال الحسن البصري : إن الله تعالى إذا أراد أن يقبض رُوح عبده المؤمن، اطمأنت النفس إلى الله تعالى، واطمأن الله إليها . وقال عمرو بن العاص : إذا تُوُفِّيَ المؤمن أرسل الله إليه مَلَكين، وأرسل معهما تُحفة من الجنة، فيقولان لها : "اخرُجي أيتها النفسُ المطمئنةُ راضية مَرضية، ومَرضيا عنك، اخرجي إلى رَوْحٍ وريحان، ورَبٍّ راضٍ غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح المسك وَجَد أحد من أنفه على ظهر الأرض . وذكر الحديث . وقال سعيد بن زايد : قرأ رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم « يَأَيَّتُها النفسُ المُطْمَئِنَّةُ » ، فقال أبو بكر : ما أحسن هذا يارسول الله ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن المَلَكَ سيقولها لك يا أبا بكر " . وقال سعيد بن جبير : مات ابن عباس بالطائف ، فجاء طائر لم يُرَ على خِلقته طائر قط، فدخل نعشه ، ثم لم يُرَ خارجا منه ، فلما دفن تليت هذه الآية على شَفير القبر — لا يُدْرَى من تلاها — : ﴿ يأَيَّتُها النفسُ المُطْمَئِنةُ ارجِعِي إلى رَبِّك راضيةً مرضية ﴾. وروى الضحاك أنها نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه حين وقف بئر رُومة[2] . وقيل : نزلت في خُبَيب بن عدِي الذي صَلَبه أهل مكة ، وجعلوا وجهه إلى المدينة ، فحوّل الله وجهه نحو القِبلة . والله أعلم .

معنى ﴿ إِلَى رَبِّكِ ﴾ أي إلى صاحبك وجسدك؛ قاله ابن عباس وعكرمة وعطاء . واختاره الطَّبَرِي ؛ ودليله قراءة ابن عباس « فادْخُلِي فِي عَبْدِي » على التوحيد ، فيأمر الله تعالى الأرواح غدا أن ترجع إلى الأجساد . وقرأ ابن مسعود « في جسدِ عبدي » . وقال الحسن : ارجعي إلى ثواب ربك وكرامته . وقال أبو صالح : المعنى : ارجعي إلى الله . وهذا عند الموت .

---

(١) آية ٣٨ سورة الرعد . (٢) هي بئر بالمدينة .

﴿ فادْخلِي فِي عِبادِي ﴾ أى فى أجساد عبادى؛ دليله قراءة ابن عباس وابن مسعود . قال ابن عباس : هذا يومَ القيامة ؛ وقاله الضحاك . والجمهور على أن الجنة هى دار الخلود التى هى مَسْكَن الأبرار ، ودار الصالحين والأخيار . ومعنى « فِي عِبادِي » أى فى الصالحين من عبادى؛ كما قال: «لَنُدْخِلَنَّهم فِي الصَّالِحِين»[1] . وقال الأخفش: «فِي عِبادِي» أى فى حِزبى؛ والمعنى واحد . أى انتظمى فى سِلْكهم . ﴿ وادخلِي جنتِي ﴾ معهم .

سورة « البلد »

مكية باتفاق . وهى عشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾

يجوز أن تكون « لا » زائدة؛ كما تقدم فى « لا أقسِم بِيومِ القِيامَة »[2] ؛ قاله الأخفش . أى أقسم ؛ لأنه قال : «بِهذا البلدِ » وقد أقسم به فى قوله : « وهذا البلدِ الامينِ » فكيف يَجْحَد القسم به وقد أقسم به . قال الشاعر :

تذكَّرتُ ليلى فاعترتنى صَبابة * وكاد ضمِيم القلبِ لا يتقطّع

أى يتقطع ، ودخل حرف « لا » صلة ؛ ومنه قوله تعالى : « ما مَنَعَك ألَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُك »[3] بدليل قوله تعالى فى (ص) : «ما منعك ان تسجد»[4] . وقرأ الحسن والأعمش وابن كثير« لَأُ قْسِم» من غير ألف بعد اللام إثباتا . وأجاز الأخفش أيضا أن تكون بمعنى« أَلَا » . وقيل : ليست بنفى القسم ، وإنما هو كقول العرب : لا والله لا فعلت كذا ، ولا والله ما كان

---

(١) آية ٩ سورة العنكبوت .　　(٢) راجع جـ ١٩ ص ٩٠

(٣) آية ١٢ سورة الأعراف راجع جـ ٧ ص ١٧٠　　(٤) آية ٧٥ .

كذا ، ولا والله لأفعلنّ كذا . وقيل : هى نفى صحيح ؛ والمعنى : لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه، بعد خروجك منه . حكاه مكىّ . ورواه ٱبن أبى نجيح عن مجاهد قال: «لا» ردٌّ عليهم . وهذا ٱختيار ٱبن العربىّ؛ لأنه قال: «وأما من قال إنها ردّ، فهو قول ليس له ردّ؛ لأنه يصح به المعنى، ويتمكن اللفظ والمراد» . فهو ردّ لكلام من أنكر البعث ثم ٱبتدأ القسم . وقال القشيرىّ: قوله «لا»: ردّ لما توهم الإنسان المذكور فى هذه السورة، المغرور بالدنيا. أى ليس الأمر كما يحسبه، من أنه لن يقدر عليه أحد، ثم ٱبتدأ القسم . و «البلد»: هى مكة، أجمعوا عليه . أى أُقسم بالبلد الحرام الذى أنت فيه، لكرامتك علىّ وحبى لك . وقال الواسطىّ أى نحلف لك بهذا البلد الذى شرفته بمكانك فيه حيا، وبركتك ميتا ؛ يعنى المدينة . والأول أصح ؛ لأن السورة نزلت بمكة بٱتفاق .

قوله تعالى : وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾

يعنى فى المستقبل ؛ مثل قوله تعالى : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ »[1] . ومثله واسع[2] فى كلام العرب . تقول لمن تَعِدُه الإكرامَ والحباء: أنت مُكرَمٌ محبُوّ. وهو فى كلام الله واسع، لأن الأحوال المستقبلة عنده كالحاضرة المشاهدة ؛ وكفاك دليلا قاطعا على أنه للآستقبال ، وأن تفسيره بالحال محال : أن السورة بٱتفاق مكية قبلَ الفتح . فروى منصور عن مجاهد: « وأَنتَ حِلٌّ » قال : ما صنعت فيه من شىء فأنت فى حِلّ . وكذا قال ٱبن عباس : أُحِلّ له يوم دخل مكة أن يقتل من شاء، فقتل ٱبن خَطَل[3] ومِقْيس بن صُبَابة وغيرهما . ولم يَحِلّ لأحد من الناس أن يقتل بها أحدا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى السُّدّى قال : أنت فى حِلّ ممن قاتلك أن تقتله . وروى أبو صالح عن ٱبن عباس قال : أُحِلّت له ساعة من نهار، ثم أُطبِقت وحرّمت إلى يوم القيامة ، وذلك يومَ فتح مكة . وثبت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الله حرّم مكة يوم خَلَق السمواتِ والأرضَ، فهى حَرام إلى أن تقوم الساعة، فلم

(١) آية ٣٠ سورة الزمر . (٢) فى بعض نسخ الأصل : « شائع » .

(٣) هو عبد الله ، كان معلقا بأستار الكعبة ؛ فقتله أبو برزة الأسلمى بأمر الرسول صلوات الله عليه .

تَحِلّ لأحد قبلي، ولا تَحِلّ لأحد بعدي، ولم تحِلّ لي إلّا ساعةً من نهار" الحديث. وقد تقدّم في سورة «المائدة». ابن زيد: لم يكن بها أحد حلالا غيرَ النبيّ صلى الله عليه وسلم. وقيل: وأنت مُقِيم فيه وهو محلك. وقيل: وأنت فيه محْسن، وأنا عنك فيه راضٍ. وذكر أهل اللغة أنه يقال: رجل حِلّ وحَلال ومُحِلّ، ورجل حَرامٌ ومُحِل، ورجل حَرام ومُحْرِم. وقال قتادة: أنت حِلٌّ به: لست بآثم. وقيل: هو ثناء على النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ أي إنك غير مرتكب في هذا البلد ما يَحْرُم عليك ارتكابه، معرفة منك بحق هذا البيت؛ لا كالمشركين الذين يرتكبون الكفر بالله فيه. أي أقسم بهذا البيت المعظم الذى قد عَرَفتَ حرمته، فأنت مقيم فيه معظم له، غير مرتكب فيه ما يحرُم عليك. وقال شُرَحْبِيل بن سعد: «وأنت حِل بهذا البلد» أي حلال؛ أي هم يحرّمون مكة أن يقتلوا بها صيدا أو يَعضِدوا[1] بها شجرة، ثم هم مع هذا يستحلون إخراجك وقتلك.

قوله تعالى: وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾

قال مجاهد وقتادة والضحاك والحسن وأبو صالح: «وَوَالِدٍ» آدم عليه السلام. «وما ولد» أي وما نَسَل من ولده. أقسم بهم لأنهم أَعجبُ ما خلق الله تعالى على وجه الأرض؛ لما فيهم من التِّبيان والنطق والتدبير، وفيهم الأنبياء والدُّعاة إلى الله تعالى. وقيل: هو إقسام بآدم والصالحين من ذُرّيته[2]، وأما غير الصالحين فكأنهم بهائم. وقيل: الوالد إبراهيم. وما ولد: ذرّيته؛ قاله أبو عمران الجَوْنِيّ. ثم يحتمل أنه يريد جميع ذرّيته. ويحتمل أنه يريد المسلمين من ذريته. قال الفرّاء: وصَلحتْ «ما» للناس؛ كقوله: «مَا طابَ لَكُمْ»، وكقوله: «وما خَلَقَ الذَّكَرَ والأُنثَى» وهو الخالق للذكر والأنثى. وقيل: «ما» مع ما بعدها في موضع المصدر؛ أي ووالد وولادته؛ كقوله تعالى: «والسماءِ وما بناها». وقال عكرمة وسعيد بن جُبير: «ووالِدٍ» يعني الذى يولد له. «وما ولد»

---

(١) عضد الشجرة وغيرها: قطعها بالمعضد والمعضد: سيف يمتهن في قطع الشجرة.

(٢) في بعض نسخ الأصل: «وأما الطالحون».

يعنى العاقر الذى لا يُولَد له ؛ وقاله ٱبن عباس. و « ما » على هذا نفى . وهو بعيد، ولا يصح إلا بإضمار الموصول ؛ أى و والد والذى ما ولد ؛ وذلك لا يجوز عند البصريين . وقيل : هو عموم فى كل والد وكل مولود ؛ قاله عطية العَوفى . ورُوى معناه عن ٱبن عباس أيضا . وهو ٱختيار الطبرى . قال الماوردى : و يحتمل أن الوالد النبيّ صلى الله عليه وسلم، لتقدّم ذكره، وما ولد أمّته؛ لقوله عليه السلام: " إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم". فأقسم به و بأمّته بعد أن أقسم ببلده ؛ مبالغة فى تشريفه عليه السلام .

قوله تعالى : لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾

إلى هنا ٱنتهى القَسَم ؛ وهذا جوابه . ولله أن يُقْسم بما يشاء من مخلوقاته، لتعظيمها، كما تقدم . والإنسان هنا ٱبن آدم . ﴿ فى كَبَدٍ ﴾ أى فى شدّة وعناء من مكابدة الدنيا . وأصل الكَبَد الشدّة . ومنه تَكَبَّد اللبن : غلُظ وخَثُر وٱشتدّ . ومنه الكَبِد؛ لأنه دم تغلّظ وٱشتدّ . ويقال : كابدت هذا الأمر : قاسيت شدّته . قال لَبيد :

يا عينُ هلّا بكيتِ أربدَ إذْ * قُمْنا وقام الخصومُ فى كَبَدِ

قال ٱبن عباس والحسن : « فى كَبَد » أى فى شدّة ونَصَب . وعن ٱبن عباس أيضا : فى شدّة من حمله وولادته و رضاعه ونَبْت أسنانه، وغير ذلك من أحواله. و روى عكرمة عنه قال : منتصبا فى بطن أمه . والكَبَد : الاستواء والاستقامة . فهذا ٱمتنان عليه فى الخلقة . ولم يخلق الله جل ثناؤه دابة فى بطن أمها إلا منكَبة على وجْهها إلا ٱبن آدم ، فإنه منتصب ٱنتصابا ؛ وهو قول النخعيّ ومجاهد وغيرهما . ٱبن كيسان : منتصبا رأسُه فى بطن أمه ؛ فإذا أذِن الله أن يخرج من بطن أمه قَلَبَ رأسَه إلى رجلى أمّه . وقال الحسن : يُكابِد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة . وعنه أيضا : يكابد الشكر على السَّرّاء و يكابد الصبرَ على الضَّرّاء ؛ لأنه لا يخلو من أحدهما . و رواه ٱبن عمر. وقال يَمانٌ : لم يخلق الله خلقا يكابد ما يكابد ٱبن آدم ؛ وهو مع ذلك أضعف الخلق . قال عُلماؤنا : أوّل ما يكابد قطع سُرّته ، ثم إذا

قُمِط قِماطا، وشُدّ رِباطا، يكابد الضيق والتعب، ثم يكابد الآرتضاع، ولو فاته لضاع، ثم يكابد نبت أسنانه، وتحرّك لسانه، ثم يكابد الفِطام، الذى هو أشدّ من اللِّطام، ثم يكابد الختان، والأوجاع والأحزان، ثم يكابد المُعَلِّم وصولته، والمؤدّب وسياسته، والأستاذ وهيبته، ثم يكابد شغل التّزْويج والتعجيل فيه[1]، ثم يكابد شُغْل الأولاد، والخدم والأجناد، ثم يكابد شغل الدور، وبناء القصور، ثم الكِبَر والهَرَم، وضعف الركبة والقدم، فى مصائب يكثر تعدادُها، ونوائب يطول إيرادُها، من صُداع الرأس، ووجع الأضراس، ورمد العين، وغمّ الدَّين، ووجع السنّ، وألم الأذن. ويكابِد مِحَناً فى المال والنفس، مثل الضرب والحبس، ولا يمضى عليه يوم إلّا يقاسى فيه شدّة، ولا يكابد إلا مشقة، ثم الموت بعد ذلك كله، ثم مساءلة المَلَك، وضَغْطة القبر وظلمته، ثم البعث والعرض على الله، إلى أن يستقرّ به القرار، إما فى الجنة وإما فى النار، قال الله تعالى: «لَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ فِى كَبَدٍ»، فلو كان الأمر إليه لما آختار هذه الشدائد. ودلّ هذا على أن له خالقا دبّره، وقضى عليه بهذه الأحوال، فليمتثل أمره. وقال آبن زيد: الإنسان هنا آدم. وقوله: «فِى كَبَدٍ» أى فى وسط السماء. وقال الكَلْبيّ: إن هذا نزل فى رجل من بنى جُمَح[2]، كان يقال له أَبُو الأشدين، وكان يأخذ الأديم العُكاظِيّ فيجعله تحت قدميه، فيقول: من أزالنى عنه فله كذا. فيجذبه عشرة حتى يتمزق ولا تزول قدماه، وكان من أعداء النبيّ صلى الله عليه وسلم، وفيه نزل «أيحسَبُ أن لَن يَقْدِرَ عليه أَحد» يعنى: لقوّته. ورُوى عن آبن عباس. «فِى كَبَدٍ» أى شديدا، يعنى شديد الخَلق، وكان من أشدّ رجال قريش. وكذلك رُكانة بن هاشم بن عبد المطلب، وكان مثلا فى البأس والشدّة. وقيل: «فِى كَبَدٍ» أى جرىء القلب، غليظ الكَبِد، مع ضعف خِلقته، ومهانة مادّته. آبن عطاء: فى ظلمة وجهل. الترمِذيّ: مُضيعا ما يَعْنِيه، مشتغلا بما لا يعنيه.

---

(1) فى نسخة من نسخ الأصل وحاشية الجمل: «ثم يكابد شغل التزيج والتعجيل فيه، والتزويج».

(2) كذا فى نسخ الأصل. وفى الكشاف وروح المعانى والبيضاوى والثعلبي: «أبو الأشد».

قوله تعالى : أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يقدِرَ عَلَيه أَحَد ﴾ أى أيظنّ آبن آدم أن لن يعاقبه الله عز وجل . ﴿ يَقُول أهلكت ﴾ أى أنفقت . ﴿ مالًا لُبَدًا ﴾ أى كثيرا مجتمعا . ﴿أَيَحْسَبُ﴾ أى أيظنّ. ﴿ أَنْ لم يَرَهُ ﴾ أى أن لم يعاينه ﴿أَحَدٌ﴾ بل علم الله عز وجل ذلك منه، فكان كاذبا فى قوله : أهلكت ولم يكن أنفقه . وروى أبو هريرة قال : يوقف العبد، فيقال ماذا عملت فى المال الذى رزقتك؟ فيقول : أنفقته وزكّيته . فيقال : كأنك إنما فعلت ذلك ليقال سخىّ، فقد قيل ذلك . ثم يؤمر به إلى النار. وعن سعيد عن قتادة : إنك مسئول عن مالك من أين جمعت؟ وكيف أنفقت؟ وعن ابن عباس قال : كان أبو الأشدّين يقول : أنفقت فى عداوة محمد مالا كثيرا وهو فى ذلك كاذب . وقال مقاتل : نزلت فى الحارث بن عامر بن نوفل، أذنب فاستفتى النبىّ صلى الله عليه وسلم، فأمره أن يكفّر . فقال : لقد ذهب مالى فى الكفّارات والنفقات، منذ دخلت فى دين محمد . وهذا القول منه يحتمل أن يكون استطالة بما أنفق، فيكون طغيانا منه، أو أسفا عليه، فيكون ندما منه . وقرأ أبو جعفر «مالًا لُبَّدًا» بتشديد الباء مفتوحة، على جمع لابد؛ مثل راكع وركّع، وساجد وسُجّد، وشاهد وشُهّد، ونحوه . وقرأ مجاهد وحُميد بضمّ الباء واللام مخففا، جمع لُبود . الباقون بضمّ اللام وكسرها وفتح الباء مخففا، جمع لُبْدَة ولبدة، وهو ما تلبد؛ يريد الكثرة . وقد مضى فى سورة « الجن » القول فيه.(1) وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ «أيحسُبُ» بضم السين فى الموضعين . وقال الحسن : يقول أتلفت مالا كثيرا، فمن يحاسبنى به؛ دعنى أحسُبه . ألم يعلم أن الله قادر على مُحاسبته، وأن الله عز وجل يرى صنيعه، ثم عدّد عليه نعمه فقال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل له عَيْنَيْنِ ﴾ يبصر بهما ﴿ ولِسانًا ﴾ ينطق به . ﴿ وشَفَتَيْنِ ﴾ يستُر بهما

(1) راجع جـ ١٩ ص ٢٢ وما بعدها .

ثغره. والمعنى: نحن فعلنا ذلك، ونحن نقدر على أن نبعثه ونُحصِيَ عليه ما عمله. وقال أبو حازم: قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى قال: يابن آدم، إن نازعك لسانك فيما حَرّمتُ عليك، فقد أَعنْتُكَ عليه بطبقين، فأطبِق؛ وإن نازعك بصرك فيما حرّمت عليك، فقد أعنتك عليه بطبقين، فأطبِق؛ وإن نازعك فرجك إلى ما حرّمتُ عليك، فقد أعنتك عليه بطبقَين، فأطبق". والشَّفَة: أصلها شَفْهة، حذفت منها الهاء، وتصغيرها: شُفيهة، والجمع: شِفاهٌ. ويقال: شَفَهات وشَفَوات؛ والهاء أقيس، والواو أعمّ، تشبيها بالسنوات. وقال الأزهريّ: يقال هذه شَفَة في الوصل وشَفَهْ، بالتاء والهاء. وقال قتادة: نِعم الله ظاهرة، يقررك بها حتى تشكر.

قوله تعالى: وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾

يعني الطريقين: طريق الخير وطريق الشر. أي بيناهما له بما أرسلناه من الرسُل. والنجد: الطريق في ارتفاع. وهذا قول ابن عباس وابن مسعود وغيرهما. وروى قتادة قال: ذُكِر لنا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقول: "يأيُّها الناسُ، إنّما هما النَّجْدان: نجد الخير، ونجد الشر، فلِم نجعل نجد الشر أحب إليك من نجد الخير". ورُوِى عن عكرمة قال: النَّجدان: الثديان. وهو قول سعيد بن المسيِّب والضحاك، وروِى عن ابن عباس وعليّ رضى الله عنهما؛ لأنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه. فالنجد: العُلُوّ، وجمعه نُجُود؛ ومنه سُمِّيَتْ «نجـد»، لارتفاعها عن انخفاض تِهامة. فالنجدان: الطريقان العاليان. قال امرؤ القيس:

فريقان منهمْ جازعٌ بَطْنَ نخلةٍ(1) * وآخرُ منهم قاطِـعٌ نجدَ كَبْكَبِ

قوله تعالى: فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾

أي فهلا أنفق ماله الذي يزعم أنه أنفقه في عداوة محمد، هلا أنفقه لاقتحام العَقَبة فيأمن! والاقتحام: الرّمْيُ بالنفس في شيء من غير رَوِيّة؛ يقال منه: قَحَم في الأمر قُحُوما: أي رمى

(1) كذا في الأصل وديوان امرئ القيس: وفي اللسان (مادة نجد):

* غداة غدوا فسالك بطن نخلة *

والجازع: القاطع. وبطن نخلة: موضع بين مكة والطائف. وكبكب: الجبل الأحمر الذي تجده بظهرك إذا وقفت بعرفة.

بنفسه فيه من غير روية . وقحّم الفرَس فارسَه تقحيما على وجهه : إذا رماه . وتقحيم النفس في الشيء: إدخالها فيه من غير روية . والقُحْمة (بالضم) المَهْلَكة، والسنة الشديدة. يقال: أصابت الأعراب القُحْمة: إذا أصابهم قحط، فدخلوا الريف. والقُحَم : صِعاب الطريق. وقال الفرّاء والزجاج : وذكر « لا » مرة واحدة ، والعرب لا تكاد تفرد « لا » مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضع، حتى يُعيدوها في كلام آخر؛ كقوله تعالى: «فلا صدّق ولا صلى»(1) « ولا خَوفٌ عليهم ولا هم يحزنون » . وإنما أفردوها لدلالة آخر الكلام على معناه ؛ فيجوز أن يكون قوله : « ثم كان من الذين آمنوا » قائما مقام التكرير؛ كأنه قال : فلا ٱقتحم العقبة ولا آمن. وقيل: هو جارٍ مجرى الدعاء؛ كقوله : لا نجا ولا سلِم. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ ما العَقَبةُ﴾ ؟ قال سفيان بن عُيينة : كل شيء قال فيه « وما أدراك » ؟ فإنه أَخْبَر به ، وكل شيء قال فيه « وما يدريك » ؟ فإنه لم يخبر به . وقال : معنى « فلا ٱقتحم العقبة » أى فلم يقتحم العقبة؛ كقول زُهَـير :

وكانَ طَوَى كَشْحا على مُسْتَكِنَّةٍ * فلا هُـوَ أبداها ولم يَتَقَـدَّمِ(2)

أى فلم يبدها ولم يتقدّم. وكذا قال المبرّد وأبو علىّ : « لا »: بمعنى لم . وذكره البخارِىّ عن مجاهد . أى فلم يقتحم العقبة في الدنيا، فلا يحتاج إلى التكرير. ثم فَسَّر العقبة وركوبها فقال: « فَكُّ رَقَبةٍ » وكذا وكذا ؛ فبين وجوها من القُرَب المالية . وقال ٱبن زيد وجماعة من المفسرين: معنى الكلام الٱستفهام الذى معناه الإنكار؛ تقديره : أفلا ٱقتحم العقبة، أو هلا ٱقتحم العقبة . يقول : هلا أنفق ماله في فكّ الرقاب ، وإطعام السَّغْبان، ليجاوز به العقبة؛ فيكون خيرا له من إنفاقه في عداوة محمد صلى الله عليه وسلم . ثم قيل : ٱقتحام العقبة ها هنا ضرب مَثَل ، أى هل تَحَمَّلَ عِظام الأمور في إنفاق ماله في طاعة ربه ، والإيمان به . وهذا إنما يليق بقول من حمل « فَلا ٱقتَحَمَ العَقَبَةَ » على الدعاء؛ أى فلا نجا ولا سلم من لم ينفق ماله في كذا وكذا . وقيل : شبه عِظم الذنوب وثِقلها وشدّتها بعقبة ، فإذا أعتق رقبة وعمِل صالحا، كان مثله كمثل من ٱقتحم العقبة ، وهى الذنوب التى تضره وتؤذيه وتثقله . قال

(1) آية ٣١ سورة القيامة . (2) الكشح : الخاصرة . ومستكنة : على نية أكنها في نفسه .

ابن عمر : هذه العقبة جبل فى جهنم . وعن أبى رجاء قال : بلغنا أن العقبة مَصْعَدُها سبعة آلاف سنة ، ومهبِطها سبعة آلاف سنة . وقال الحسن وقتادة : هى عقبة شديدة فى النار دون الجسر، فٱقتحِمُوها بطاعة الله . وقال مجاهد والضحاك والكلبي : هى الصراط يُضْرب على جهنم كحَدّ السيف ، مسيرة ثلاثة آلاف سنة ، سهلا وصُعودا وهُبوطا . واقتحامه على المؤمن كما بين صلاة العصر إلى العشاء . وقيل : اقتحامه عليه قدرُ ما يصلى صلاة المكتوبة . وروى عن أبى الدرداء أنه قال : إن وراءنا عقبة ، أَنْجَى الناس منها أخفهم حِمْلا . وقيل : النار نفسها هى العقبة . فروى أبو رجاء عن الحسن قال : بلغنا أنه ما من مسلم يُعْتق رقبة إلا كانت فداءه من النار . وعن عبد الله بن عمر قال : من أعتق رقبة أعتق الله عز وجل بكل عضو منها عضوا منه . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال : "من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضوا من أعضائه من النار، حتى فرّجه بفرجه". وفى الترمذى عن أبى أُمامة وغيره من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "أيّما ٱمرئٍ مُسْلِمٍ أعتقَ ٱمرأً مُسْلِما ، كان فَكَاكَهُ من النار، يَجْزِى كل عضو منه عضوا منه، وأيُّما ٱمرأة مسلمة أعتقتْ ٱمرأة مُسلمة، كانت فَكاكَها من النار ، يجزى كل عضو منها عضوا منها" . قال : هذا حديث حسن صحيح غريب . وقيل : العقبة خلاصه من هول العَرْض . وقال قتادة وكعب : هى نار دون الجسر . وقال الحسن : هى والله عقبة شديدة : مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوّه الشيطان . وأنشد بعضهم :

إنى بُليتُ بأربعٍ يَرْمِينَنِى * بالنَّبْل قد نَصَبوا علىّ شِراكَا

إبليسُ والدنيا ونفسى والهوَى * من أين أرجو بينهن فَكاكا

يا ربِّ ساعدنى بعفوٍ إننى * أصبحت لا أرجو لمن سِواكا

قوله تعالى : وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾

فيه حذف ؛ أى وما أدراك ما ٱقتحام العقبة . وهذا تعظيم لٱلتزام أمر الدين ؛ والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، ليعلمه ٱقتحام العقبة . قال القشيرى : وحمل العقبة على

عَقَبة جهنم بعيد؛ إذ أحد فى الدنيا لم يقتحم عقبةَ جهنم؛ إلا أن يحمل على أن المراد فهلاَّ صَبَّر نفسه بحيث يمكنه ٱقتحام عقبة جهنم غدا. واختار البخاري قول مجاهد: إنه لم يقتحم العقبة فى الدنيا. قال ابن العربي: «وإنما اختار ذلك لأجل أنه قال بعد ذلك فى الآية الثانية: «وما أدراكَ ما العَقَبةُ»؟ ثم قال فى الآية الثالثة: «فَكُّ رَقَبةٍ»، وفى الآية الرابعة «أَوْ إطْعامٌ في يومٍ ذِي مَسْغَبةٍ»، ثم قال فى الآية الخامسة: «يَتِيما ذا مَقْرَبةٍ»، ثم قال فى الآية السادسة: «أو مِسكِينا ذا مَتْرَبةٍ»؛ فهذه الأعمال إنما تكون فى الدنيا. المعنى: فلم يأت فى الدنيا بما يُسَهِّل عليه سلوك العقبة فى الآخرة».

قوله تعالى: فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ فكها: خلاصها من الأسر. وقيل: من الرق. وفى الحديث: "وفكُّ الرقبةِ أن تُعين فى ثمنها" من حديث البراء، وقد تقدم فى سورة «براءة»[1]. والفكّ: هو حلّ القيد؛ والرِّق قيد. وسمى المرقوق رَقَبة؛ لأنه بالرق كالأسير المربوط فى رقبته. وسُمِّى عتقها فَكًّا كفك الأسير من الأَسْر. قال حسان:

كَمْ من أسيرٍ فَكَكْناه بلا ثَمَنٍ * وجَزِّ ناصيةٍ كنّا مَوَاليها

وروى عُقبة بن عامر الجهنيّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من أعتق رقبة مؤمنة كانت فداءه من النار". قال الماوردي: ويحتمل ثانيا أنه أراد فك رقبته وخلاص نفسه، باجتناب المعاصي، وفعل الطاعات؛ ولا يمتنع الخبر من هذا التأويل، وهو أشبه بالصواب.

الثانيــة — قوله تعالى: ﴿رَقَبَةٍ﴾ قال أَصْبَغُ: الرقبة الكافرة ذات الثمن أفضل فى العتق من الرقبة المؤمنة القليلة الثمن؛ لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم وقد سُئل أيّ الرقاب أفضل؟ قال: "أغلاها ثمنا، وأنفسها عند أهلها". ابن العربي: «والمراد فى هذا الحديث: (من

(١) راجع جـ ٨ ص ١٨١.

المسلمين)، بدليل قوله عليه السلام : "مَنْ أَعْتَقَ آمْرَأً مُسْلما" و"مَنْ أعتق رقبةً مُؤْمِنة". وما ذكره أصبغ وَهْلَة(١)، وإنما نظر إلى تنقيص المال، والنظر إلى تجريد المعتق للعبادة، وتفريغه للتوحيد، أولى » .

الثالثة — العِتق والصدقة من أفضل الأعمال . وعن أبي حنيفة : أن العتق أفضل من الصدقة . وعند صاحبيه الصدقة أفضل . والآية أدل على قول أبي حنيفة؛ لتقديم العتق على الصدقة . وعن الشعبي في رجل عنده فضل نفقة : أيضعه في ذي قرابة أو يعتق رقبة ؟ قال : الرقبة أفضل ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من فك رقبة فك الله بكل عضو منها عضوا من النار " .

قوله تعالى : أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ او إطعامٌ في يومٍ ذِى مَسْغَبةٍ ﴾ أى مَجاعة . والسَّغَب : الجوع . والساغب : الجائع — وقرأ الحسن « أو إطعامٌ في يومٍ ذا مَسْغَبةٍ » بالألف في « ذا » — وأنشد أبو عبيدة :

فلو كنتُ جاراً يابن قَيْس بن عاصِمٍ(٢) * لمَا بِتَّ شَبْعاناً وجارُك ساغِبا

وإطعام الطعام فضيلة، وهو مع السَّغَب الذى هو الجوع أفضل . وقال النَّخَعِيّ في قوله تعالى : « أو إطعامٌ في يومٍ ذِى مَسْغَبَةٍ » قال : في يوم عزيز فيه الطعام . ورُوِى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من موجباتِ الرحمةِ إطعامُ المُسْلِم السَّغْبانَ " . ﴿ يَتِيماً ذا مَقْرَبةٍ ﴾ أى قرابة . يقال : فلان ذو قرابتى وذو مَقْرَبتى . يعلمك أن الصدقة على القرابة أفضل منها على غير القرابة، كما أن الصدقة على اليتيم الذى لا كافل له أفضل من الصدقة على اليتيم الذى يجد من يَكْفله . وأهل اللغة يقولون : سُمِّى يتيما لضعفه . يقال : يَتُمَ الرجل يُتْما : إذا ضعف .

(١) كذا في الأصول وابن العربي، ولعلها المرة من الوهل، وهو الغلط . وهل إلى الشيء (بالفتح) يهل (بالكسر) وهلا (بالسكون) : إذا ذهب وهمه إليه . ويجوز أن يكون بمعنى غلطة أو سهوة .

(٢) كذا في الأصول . يريد : فلو كنت جارا قائما بحق الجوار لما حدث هذا .

وذكروا أن اليَتيم فى الناس من قِبل الأب ، وفى البهائم من قِبل الأمهات . وقد مضى فى سورة « البقرة » مُستوفًى[1]، وقال بعض أهل اللغة : اليتيم الذى يموت أبواه . وقال قيس ٱبن الملوّح :

إلَى اللهِ أشكو فقدَ لَيْلَى كما شَكا ❊ إلَى اللهِ فقــدَ الوالِدَيْن يَتِيمُ

قوله تعالى : ﴿ أو مِسْكِينا ذا مَتْرَبةٍ ﴾ أى لا شىء له ، حتى كأنه قد لصِق بالتّراب من الفقر، ليس له مأْوى إلا التراب . قال ٱبن عباس : هو المطروح على الطريق، الذى لا بيت له . مجاهد : هو الذى لا يقيه من التراب لِباس ولا غيره . وقال قتادة : إنه ذو العيال . عكرمة : المديون . أبو سنان : ذُو الزّمانَةِ . ٱبن جبير : الذى ليس له أحد . وروى عكرمة عن ٱبن عباس : ذو المَتْرَبَة البعيد التربة؛ يعنى الغريب البعيد عن وطنه . وقال أبو حامد الخارَزَنْجِىّ: المَتْربة هنا : من التّريب؛ وهى شدة الحال . يقال ترِب: إذا ٱفتقر. قال الهُذَلِىّ:

وكُنّا إذا ما الضيفُ حَلّ بأرْضِنا ❊ سَفَكْنا دِماءَ البُدْن فى تُرْبة الحالِ

وقرأ ٱبن كثير وأبو عمرو والكسائىّ : « فَكّ » بفتح الكاف، على الفعل الماضى . « رقبةً » نصبا لكونها مفعولا « أو أَطْعَمَ » بفتح الهمزة ونصب الميم، من غير ألف، على الفعل الماضى أيضا؛ لقوله : « ثم كان من الذين آمنوا » فهذا أشكل بـ « فكّ وأطعمَ » . وقرأ الباقون : « فكٌّ » رفعا، على أنه مصدر فككت . « رقبةٍ » خفض بالإضافة. « أو إطعامٌ » بكسر الهمزة وألف ورفع الميم وتنوينها على المصدر أيضا . وٱختاره أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأنه تفسير لقوله تعالى: « وما أدْراكَ ما العَقبَةُ » ؟ ثم أخبره فقال : « فكُّ رَقَبةٍ . أو إطْعَامٌ » . المعنى : ٱقتحام العقبة : فكّ رقبة أو إطعام . ومن قرأ بالنصب فهو محمول على المعنى؛ أى ولا فَكّ رقبةً ، ولا أطعمَ فى يومٍ ذا مَسْغَبة؛ فكيف يجاوز العَقَبة . وقرأ الحسن وأبو رَجاء : « ذا مسغبة » بالنصب على أنه مفعول « إطعام » أى يطعمون ذا مَسْغَبة و « يَتيمًا » بدل منه . الباقون « ذِى مَسْغَبة » فهو صفة لـ « يوم » . ويجوز أن يكون قراءة النصب صفة لموضع الجار والمجرور؛ لأن قوله : « فى يوم » ظرف منصوب الموضع ، فيكون وصفا له على المعنى دون اللفظ .

(١) راجع جـ ٢ ص ١٤ طبعة ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كانَ مِنَ الذينَ آمنوا ﴾ يعنى : أنه لا يقتحم العقبَةَ من فكَّ رقبة، أو أطعمَ فى يوم ذا مَسْغَبة ، حتى يكون من الذين آمنوا ؛ أى صدّقوا ، فإن شرط قبول الطاعات الإيمان بالله . فالإيمان بالله بعد الإنفاق لاينفع ، بل يجب أن تكون الطاعة مصحوبة بالإيمان ، قال الله تعالى فى المنافقين : « وما منعهم أن تقبل مِنهم نفقاتهم إلّا أنهم كفروا بِاللهِ و بِرَسولِه »(١) . وقالت عائشة : يارسول الله ، إن آبن جُدْعَانَ كان فى الجاهلية يصِل الرحِم ، و يُطعم الطعام ، و يَفُكُّ العانىَ ، و يُعتق الرقاب ، ويحمل على إبله لله ، فهل ينفعه ذلك شيئا ؟ قال : " لا ، إنه لم يقل يوماً ربِّ آغفرْلى خطيئتى يومَ الدِّين" . وقيل : « ثُمَّ كانَ مِن الذينَ آمَنُوا » أى فعل هذه الأشياء وهو مؤمن ، ثم بقى على إيمانه حتى الوفاة ؛ نظيره قوله تعـالى : « وإنِّى لَغَفَّار لمن تاب وآمن وعمِل صالحا ثم آهتدى »(٢) . وقيل : المعنى ثم كان من الذين يؤمنون بأن هذا نافع لهم عند الله تعالى . وقيل : أتى بهـذه القُرَب لوجه الله ، ثم آمن بمحمد صـلى الله عليه وسـلم . وقد قال حكيم بن حزام بعد ما أسلم ، يارسول الله ، إنا كنا نَتَحَنَّث(٣) بأعمالٍ فى الجاهلية ، فهل لنـا منها شىء ؟ فقـال عليه السلام : " أسلمت على ما أسلفت من الخير" . وقيل : إن « ثم » بمعنى الواو ؛ أى وكان هذا المعتِق الرقبة ، والمطعم فى المسغبة ، من الذين آمنوا . ﴿ وتَواصَوْا ﴾ أى أوصى بعضهم بعضا . ﴿ بِالصـبْرِ ﴾ على طاعة الله ، وعن معاصيه ؛ وعلى ما أصابهم من البلاء والمصائب . ﴿ وتواصَوْا بِالمَرْحَمِةِ ﴾ أى بالرَّحمة على الخلق ؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك رحِموا اليتيم والمسكين . ﴿ أُولئـكَ أَصحابُ المَيْمَنةِ ﴾ أى الذين يُؤْتَون كتبهم بأيمـانهم ؛ قاله محمد بن كعب القُرَظىّ وغيره . وقال يحيى بن سلام : لأنهم مَيامينُ على أنفسهم . آبن زيد : لأنهم أُخِذوا من شِقّ آدم الأيمن . وقيـل : لأن منزلتهم عن اليمين ؛ قاله مَيمون بن مِهْران . ﴿ والذين كفروا

(١) آية ٥٤ سورة التوبة . (٢) آية ٨٢ سورة طه . (٣) أى نتقرب بها إلى الله .

بِآيَاتِنا ﴾ أى القرآن . ﴿ هُمْ أَصْحابُ المَشْأَمَةِ ﴾ أى يأخذون كتبهم بشمائلهم؛ قاله محمد بن كعب . يحيى بن سلام : لأنهم مَشائيم على أنفسهم . آبن زيد : لأنهم أُخِذوا من شِق آدم الأيسر . ميمون : لأن منزلتهم عن اليسار .

قلت : ويجمع هذه الأقوال أن يُقال : إن أصحاب الميمنة أصحابُ الجنة ، وأصحاب المَشأمة أصحابُ النار؛ قال الله تعالى : « وأَصحابُ اليمينِ مَا اصحابُ اليمينِ، فى سِدْرٍ مَخْضُودٍ »[(١)] ، وقال : « وأصحابُ الشِّمالِ ما أصحاب الشِّمالِ . فِي سَمُومٍ وحَمِيم » . وما كان مثله . ومعنى ﴿ مُؤْصَدَة ﴾ أى مطبَقة مُغْلَقة . قال :

تَحِنُّ إلى أجبال مكة ناقتي * ومن دُونِها أبوابُ صنعاءَ مُؤْصَدَهْ

وقيل : مُبْهمة ، لا يُدْرَى ما داخلُها . وأهل اللغة يقولون : أَوْصَدْتُ البابَ وآصَدْتُه؛ أى أغلقته . فمن قال أوصدت، فالاسم الوِصاد ، ومن قال آصدته، فالاسم الإصاد . وقرأ أبو عمرو وحفص وحمزة ويعقوب والشَّيْزَرِىُّ عن الكسائى « مُؤْصَدَة » بالهمز هنا، وفى « الهمزة » . الباقون بلا همز . وهما لُغتان . وعن أبى بكر بن عياش[(٢)] قال : لنا إمام يهمز « مُؤْصَدَة » ، فأشتهى أن أَسُدّ أذنىّ إذا سمعته .

سـورة « الشمس »

مكية بآتفاق ، وهى خَمسَ عَشرةَ آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَٱلشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾

قال مجاهد : ﴿ وضُحاها ﴾ أى ضوئها و إشراقها . وهو قَسَم ثان . وأضاف الضحى إلى الشمس، لأنه إنما يكون بآرتفاع الشمس . وقال قتادة : بهاؤها. السُّدّى : حرّها . وروى الضحاك عن آبن عباس : « وضحاها » قال : جعل فيها الضوء وجعلها حارة . وقال اليزيدىّ : هو آنبساطها . وقيل : ما ظهر بها من كل مخلوق؛ فيكون القسم بها وبمخلوقات الأرض

(١) آية ٢٨ ، ٤٢ سورة الواقعة . (٢) كان ينكر على الكسائى همز (مؤصدة) .

كلها . حكاه الماوردِيّ . والضُّحَا : مؤنثة . يقال : ٱرتفعت الضُّحا ، [وهي] فوق الضَّحْو[1]. وقد تُذَكَّر . فمن أنّث ذهب إلى أنها جمع ضَحْوَة . ومن ذكر ذهب إلى أنه ٱسم على فُعَل ، نحو صُرَدٍ ونُغَرٍ[2]. وهو ظرف غير متمكن مثل سَحَر . تقول : لقِيتُه ضُحًا وضُحَا ؛ إذا أردت به ضُحا يومِك لم تنوّنه . وقال الفرّاء : الضُّحا هو النهار ؛ كقول قتادة . والمعروف عند العرب أن الضحا : إذا طلعت الشمس وبُعَيْد ذلك قليلا ، فإذا زاد فهو الضَّحاء بالمد . ومن قال : الضُّحا : النهار كله ، فذلك لدوام نور الشمس . ومن قال : إنه نور الشمس أو حرها ، فنور الشمس لا يكون إلا مع حر الشمس . وقد ٱستدل من قال : إن الضحى حر الشمس بقوله تعالى : «ولا تَضْحَى» أى لا يؤذيك الحرّ . وقال المبرد : أصل الضُّحَا من الضِّحّ ، وهو نور الشمس ، والألف مقلوبة من الحاء الثانيــة . تقول : ضَحْوَة وضَحَوات ، وضَحَوَاتٌ وضُحَا ، فالواو من (ضَحْوَة) مقلوبة عن الحاء الثانية ، والألف فى (ضُحَـا) مقلوبة عن الواو . وقال أبو الهيثم : الضِّــح : نقيض الظّل ، وهو نور الشمس على وجه الأرض ، وأصـله الضُّحا ، فٱستثقلوا الياء مع سكون الحاء ، فقلبوها ألفا .

قوله تعـالى : وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَـٰهَا ﴿٢﴾

أى تَبِعها : وذلك إذا سقطت رِىءَ الهلال . يقال : تَلَوْت فلانا : إذا تَبِعته . قال قتادة : إنما ذلك ليلةَ الهلال ، إذا سَقطت الشمس رِىءَ الهلال[3]. وقال ٱبن زيد : إذا غَرَبت الشمس فى النصف الأول من الشهر ، تلاها القمر بالطلوع ، وفى آخر الشهر يتلُوها بالغروب . الفراء : «تلاها» : أخذ منها ؛ يذهب إلى أن القمر يأخذ من ضوء الشمس . وقال قوم : «والقمرِ إذا تلاَهَا» حين ٱستوى وٱستدار ، فكان مِثلَها فى الضياء والنور ؛ وقاله الزجاج .

---

(١) كذا فى حاشية الجمل نقلا عن القرطبي . وفى نسخ الأصل وتفسير ابن عادل : « فوق الصخور » . تحريف . يريد أن الضحا : أشد ارتفاعا من الضحو والضحوة (كما فى اللسان : ضحا) .

(٢) الصرد : طائر فوق العصفور . والنغر : فرخ العصفور .

(٣) أصله (رئى) : قدمت الياء على الهمزة .

قوله تعالى : وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّٰهَا ﴿٣﴾

أى كشفها . فقال قوم : جلّى الظلمة، وإن لم يجر لها ذكر ، كما تقول : أضحت باردة ؛ تريد أضحت غداتُنا باردة . وهذا قول الفرّاء والكلبيّ وغيرهما . وقال قوم : الضمير فى «جلّاها» للشمس ؛ والمعنى : أنه يبين بضوئه جِرْمها . ومنه قول قيس بن الخَطِيم :

تَجَلَّت لنا كالشمس تحتَ غَمامةٍ * بدا حاجبٌ منها وضَنَّت بحاجِبِ

وقيل : جَلَّى ما فى الأرض من حيوانها حتى ظهر ، لاستتاره ليلا وانتشاره نهارا . وقيل : جَلّى الدنيا . وقيل : جَلّى الأرض، وإن لم يجر لها ذكر ؛ ومثله قوله تعالى : « حتى تَوَارَتْ بِالحِجَابِ » [1] على ما تقدّم آنفا .

قوله تعالى : وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾

أى يغشى الشمس ، فيَذْهَب بضوئها عند سقوطها؛ قاله مجاهد وغيره . وقيل : يغشى الدنيا بالظُّلَم ، فتُظلم الآفاق . فالكناية ترجع إلى غير مذكور .

قوله تعالى : وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾

أى وبنيانها . فما مصدرية؛ كما قال : « بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي » [2] أى بغفران ربى ؛ قاله قتادة، واختاره المبرد . وقيل : المعنى ومَن بناها ؛ قاله الحسن ومجاهد؛ وهو اختيار الطبريّ . أى ومن خلقها ورفعها، وهو الله تعالى . وحُكِى عن أهل الحجاز : سُبحانَ ما سَبَّحْتَ له ؛ أى سبحان مَنْ سَبَّحت له .

قوله تعالى : وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾

أى وطحوها . وقيل : ومَنْ طحاها؛ على ماذكرناه آنفا . أى بسطها ؛ كذا قال عامة المفسرين؛ مثل دحاها . قال الحسن ومجاهد وغيرهما : طحاها ودحاها : واحد؛ أى بسطها

---

(١) آية ٣٢ سورة ص . (٢) آية ٢٧ سورة يس .

من كل جانب . والطَّحْو : البسط؛ طَحَا يطحُو طحْوا، وطَحَى يَطْحِى طَحْيا، وطَحَيت : اضطجعت؛ عن أبى عمرو. وعن ابن عباس: طحاها : قَسَمها. وقيل: خلقها؛ قال الشاعر:

وما تَدْرِى جَذِيمة من طَحَاها * ولا مَنْ ساكِنُ العرش الرَّفيع

الماوردىّ : ويحتمل أنه ما خرج منها من نبات وعيون وكنوز؛ لأنه حياة لما خُلِق عليها. ويقال فى بعض أيمان العرب : لا ، والقمر الطَّاحِى؛ أى المُشْرِف المشرق المرتفع . قال أبوعمرو : طحا الرجل : إذا ذهب فى الأرض. يقال : ما أدرى أين طَحَا! ويقال: طحا به قلبه : إذا ذهب به فى كل شىء . قال علقمة :

طَحَا بكَ قَلْبٌ فى الحِسانِ طَروبُ * بُعَيْدَ الشَّبابِ عَصْرَ حانَ مَشِيبُ

قوله تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾﴾

قيل : المعنى وتسويتها . « فما » : بمعنى المصدر . وقيل : المعنى ومن سَوّاها، وهو الله عز وجل. وفى النفس قولان : أحدهما آدم. الثانى — كل نفس منفوسة. وسوّى: بمعنى هيأ. وقال مجاهد : سوّاها : سَوَّى خَلْقها وعَدَّل . وهذه الأسماء كلها مجرورة على القَسَم . أقسم جل ثناؤه بخلقه لما فيه من عجائب الصنعة الدالّة عليه .

قوله تعالى : ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: (فَأَلْهَمَهَا) أى عَرَّفها؛ كذا رَوَى ابن أبى نَجِيح عن مجاهد. أى عرفها طريق الفجور والتقوى ؛ وقاله ابن عباس . وعن مجاهد أيضا : عَرَّفها الطاعةَ والمعصية . وعن محمد بن كعب قال : إذا أراد الله عز وجل بعبده خيرا، ألهمه الخيرَ فعمل به، وإذا أراد به السوء، ألهمه الشر فعمل به. وقال الفَراء: « فألهمها » قال: عَرَّفها طريق الخير وطريق الشر؛ كما قال : « وهَدَيْناه النَّجْدَيْنِ »[1] . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : أَلْهَمَ المؤمن المتقى تقواه ، وألهم الفاجر فجوره . وعن سعيد عن قتادة قال : بيَّن لها فجورها وتقواها . والمعنى

(١) آية ١٠ سورة البلد .

متقارب . ورُوِى عن أبى هريرة قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم «فألهمها فجورها وتقواها» قال: "اللّهمّ آتِ نفسى تقواها، وزكّها أنت خيرُ من زكّاها، أنت وليُّها ومولاها".
ورواه جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس: أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية «فألهمها فجورها وتقواها» رفع صوته بها، وقال: "اللهم آتِ نفسى تقواها، أنت وليها ومولاها، وأنت خيرُ من زكّاها". وفى صحيح مسلم، عن أبى الأسود الدُّؤَلىّ قال: قال لى عمران ابن حصين: أرأيتَ ما يعمل الناس اليوم، ويكدحون فيه، أشىء قُضِى ومَضَى عليهم من قَدَرٍ سبق، أو فيما يَستقبلون مما أتاهم به نبيُّهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شىء قُضِى عليهم، ومَضى عليهم. قال فقال: أفلا يكون ظُلما؟ قال: ففزِعت من ذلك فزَعا شديدا، وقلت: كل شىء خَلْقُ اللهِ ومِلْك يده، فلا يُسْأَل عما يفعلُ وَهُمْ يُسْأَلون. فقال لى: يرحمك الله! إنى لم أرد بما سألتك إلا لأَحزِر عقلك[2]، إنّ رجلين من مُزَينة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا: يارسول الله، أرأيت ما يعملُ الناس اليوم ويكدحون فيه: أشىء قُضِىَ عليهم ومضى فيهمْ من قَدَرٍ قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيُّهم. وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: "لا بل شىء قُضِى عليهم ومضى فيهم. وتصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل «ونفسٍ وما سوّاها. فألهمها فجورها وتقواها»". والفجور والتقوى: مصدران فى موضع المفعول به.

قوله تعالى: قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفلحَ مَنْ زكّاها﴾ هذا جواب القسم، بمعنى: لقد أفلح. قال الزجاج: اللام حذفت، لأن الكلام طال، فصار طوله عِوضا منها. وقيل: الجواب محذوف؛ أى والشمس وكذا وكذا لَتُبْعثن. الزمخشرىّ: تقديره لَيُدَمْدِمنّ الله عليهم؛ أى على أهل مكة، لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما دَمْدَم على ثمود؛ لأنهم كذبوا صالحا. وأما «قد أفلح من زكّاها» فكلام تابع لأوّله؛ لقوله: «فألهمها فجورها وتقواها»، على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم

(١) فى بعض الأصول: «مما يستقبلون به ... الخ».
(٢) أى لأمتحن عقلك وفهمك ومعرفتك.

فى شىء . وقيل : هو على التقديم والتأخير بغير حذف ؛ والمعنى : قد أفلح من زَكّاها ، وقد خاب من دَسّاها ، والشمس وضحاها . ﴿ أفلح ﴾ فاز . ﴿ مَنْ زَكّاها ﴾ أى من زكى الله نفسه بالطاعة . ﴿ وقَدْ خابَ مَنْ دَسّاها ﴾ أى خسِرت نفسٌ دَسَّها الله عز وجل بالمعصية . وقال ابن عباس : خابت نفس أضلها وأغواها . وقيل : أفلح من زكى نفسه بطاعة الله ، وصالح الأعمال ، وخاب من دسّ نفسه فى المعاصى ؛ قاله قتادة وغيره . وأصل الزكاة : النمو والزيادة ، ومنه زكا الزرع ؛ إذا كثر رَيْعُه ، ومنه تزكية القاضى للشاهد ؛ لأنه يرفعه بالتعديل ، وذكر الجميل . وقد تقدم هذا المعنى فى أول سورة « البقرة » مستوفًى[1] . فمصطنع المعروف والمبادر إلى أعمال البِر ، شَهَر نفسه ورفعها . وكانت أجواد العرب تنزل الرُّبا وارتفاعَ الأرض ، ليشتهر مكانُها للمُعْتَفِين[2] ، وتوقد النار فى الليل للطارقين . وكانت اللئام تنزل الأَوْلاج[3] والأطراف والأهضام ، ليخفى مكانها عن الطالبين . فأولئك علَّوا أنفسهم وزكّوها ، وهؤلاء أخفَوا أنفسهم ودَسُّوها . وكذا الفاجر أبدا خفِيّ المكان ، زَمِرُ[4] المروءة ، غامض الشخص ، ناكس الرأس بركوب المعاصى . وقيل : دساها : أغواها . قال :

وأَنتَ الذى دَسَّيْتَ عَمْرا فأصبحت　　*　　حلائلُه منـه أراملَ ضُـيَّعا[5]

قال أهل اللغة : والأصل : دسَّسها ، من التدسيس ، وهو إخفاء الشىء فى الشىء ، فأبدلت سينه ياء ؛ كما يقال : قَصَّيت أظفارى ؛ وأصله قَصَّصْت أظفارى . ومثله قولهم فى تَقَضَّضَ : تقضى . وقال ابن الأعرابى : « وقَدْ خَابَ من دَسّاها » أى دس نفس فى جملة الصالحين وليس منهم .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٤٣ طبعة ثانية أو ثالثة .　(٢) المعتفى : كل طالب فضل أو رزق .

(٣) الأولاج : ما كان من كهف أو غار يلجأ إليه . والأهضام : أسافل الأودية .

(٤) الزمر : القليل .　(٥) الذى فى اللسان (مادة دسا) :

وأنت الذى دسيت عمرا فأصبحت　*　نساؤهم فيهم أرامل ضيع

وقال : دسيت : أغويت وأفسدت . وعمرو : قبيلة .

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ أى بطغيانها، وهو خروجها عن الحدّ فى العصيان؛ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما . وعن آبن عباس « بِطغواها » أى بعذابها الذى وُعِدَتْ به . قال: وكان آسم العذاب الذى جاءها الطَّغْوى ؛ لأنه طَغَى عليهم . وقال محمد كعب : « بِطغواها » بأجمعها . وقيل : هو مصدر، وخرج على هـذا المخرج، لأنه أَشْكَلُ برءوس الآى . وقيـل : الأصل بطَغْياها، إلا أن «فَعْلَى» إذا كانت من ذوات الياء أبدلت فى الآسم واوا ، لِيُفصَل بين الآسم والوصف . وقراءة العامة بفتح الطاء . وقرأ الحسن والجَحْدرِى وحمـاد بن سلمة (بضم الطاء) على أنه مصدر ؛ كالرُّجْعَى والحُسْنى وشبههما فى المصادر . وقيل : هما لغتان. ﴿ إِذِ آنبَعَثَ ﴾ أى نهض . ﴿ أشـقاها ﴾ لعَقْر الناقة . وآسمه قُدَار بن سالِف . وقد مضى فى « الأعراف »[1] بيـان هذا ، وهل كان واحدا أو جمـاعة . وفى البخارىّ عن عبـد الله ابن زَمْعة أنه سمع النبىّ صلى الله عليه وسلم يخطُب، وذكر الناقة والذى عَقَرها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إِذِ آنبَعَثَ أَشْقَاهَا ، آنبعث لهـا رجل عزيز عارِم[2] ، منيع فى رهطه ، مثل أبى زَمْعة " وذكر الحديث . خرّجه مسلم أيضا . وروى الضحاك عن علىّ : أن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قال له : " أتدرى من أشقى الأوّلين " قلت : الله ورسوله أعلم . قال : " عاقر الناقة — قال — أتدرى من أشقى الآخرين " قلت : الله ورسوله أعلم . قال : "قاتلك".

﴿ فقالَ لَهُمْ رسولُ اللهِ ﴾ يعنى صالحا . ﴿ نَاقَةَ اللهِ ﴾ « ناقةَ » منصوب على التحذير؛ كقولك : الأسدَ الأسدَ، والصبىَّ الصبىَّ، والحذارَ الحذارَ . أى احذروا ناقة الله؛ أى عَقْرها . وقيل : ذروا ناقة الله، كما قال : « هذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »[3] . ﴿ وسُقْيَاها ﴾ أى ذروها وشربها . وقد مضى فى سورة « الشعراء »[4] بيانه والحمد لله . وأيضا فى سورة «اقتربتِ الساعة»[5] . فإنهم لمـا اقترحوا الناقة، وأخرجها لهم من الصخرة ، جعل لهم شِرب يوم من بئرهم ، ولها شِربُ يوم مكان ذلك، فشقّ ذلك عليهم .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤١ (٢) العارم : الجبار المفسد الخبيث . (٣) آية ٧٣ سورة الأعراف .
(٤) راجع جـ ١٣ ص ١٣١ (٥) راجع جـ ١٧ ص ١٤١

﴿ فكذّبوه ﴾ أى كذبوا صالحا عليه السلام فى قوله لهم : " إنكم تُعَذَّبونَ إنْ عقرتُموها".
﴿ فعقروها ﴾ أى عقرها الأشقى . وأضيف إلى الكل؛ لأنهم رَضُوا بفعله . وقال قتادة : ذُكر لنا أنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم . وقال الفرّاء : عقرها آثنان؛ والعرب تقول : هذان أفضلُ الناس ، وهذان خير الناس ، وهذه المرأة أشقى القوم ؛ فلهذا لم يقل : أشقياها .

قوله تعالى : ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ﴾ أى أهلكهم وأطبق عليهم العذابُ بذنبهم الذى هو الكفر والتكذيب والعَقْر . وروى الضحاك عن آبن عباس قال : دَمْدم عليهم قال : دَمَّرَ عَلَيْهم ربُّهم بذَنبهم؛ أى بجُرمهم . وقال الفرّاء : دَمْدم أى أرجف . وحقيقة الدمدمة تضعيف العذاب وترديده . ويقال : دَمَمْت على الشيء : أى أطبقت عليه، ودمم عليه القبرَ: أطبقه . وناقة مدمومة : أَلْبَسها الشحم . فإذا كررت الإطباق قلت : دَمْدَمْت . والدمدمة : إهلاك باستئصال؛ قاله المؤرِّج . وفى الصحاح : ودَمْدَمْت الشيء : إذا ألزقته بالأرض وطَحْطَحْتُه . ودمدم الله عليهم : أى أهلكهم . القُشَيرى : وقيل دَمْدَمت على الميت الترابَ : أى سَوَّيتُ عليه . فقوله «فدمدم عليهم» أى أهلكهم ، فجعلهم تحت التراب . ﴿ فَسَوَّاها ﴾ أى سَوّى عليهم الأرض . وعلى الأول « فسوّاها » أى فسوّى الدَّمدمة والإهلاك عليهم . وذلك أن الصيحة أهلكتهم ، فأتت على صغيرهم وكبيرهم . وقال آبن الأنبارى : دمدمَ أى غضِب . والدمدمة : الكلام الذى يزعج الرجل . وقال بعض اللغويين : الدمدمة : الإدامة؛ تقول العرب : ناقة مُدَمْدَمة أى سمينة . وقيل : « فسوّاها » أى فسوّى الأمة فى إنزال العذاب بهم ، صغيرهم وكبيرهم ، وضِيعهم وشريفهم ، ذكرهم وأنثاهم . وقرأ آبن الزُّبير « فَدَهْدَم » وهما، لغتان ؛ كما يقال : امتُقِع لونُه وانْتُقِع .

قوله تعالى : وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا ﴿١٥﴾

أى فعل الله ذلك بهم غير خائف أن تلحقه تَبِعة الدَّمدمة من أحد ؛ قاله آبن عباس والحسن وقتادة ومجاهد . والهاء فى «عُقْباها» ترجع إلى الفَعْلة؛ كقوله : " مَن اغتسل يوم

الجمعة فيها ونِعمتْ" أى بالفعلة والخصلة . قال السدّى والضحاك والكلبى : ترجع إلى العاقر؛ أى لم يخف الذى عقرها عُقْبى ما صنع . وقاله آبن عباس أيضا . وفى الكلام تقديم وتأخير، مجازه : إذ انبعث أشقاها ولا يخاف عُقْباها . وقيل : لا يخاف رسول الله صالح عاقبة إهلاك قومه، ولا يخشى ضررا يعود عليه من عذابهم؛ لأنه قد أنذرهم، ونجاه الله تعالى حين أهلكهم. وقرأ نافع وآبن عامر « فلا » بالفاء، وهو الأجود؛ لأنه يرجع إلى المعنى الأول؛ أى فلا يخاف الله عاقبة إهلاكهم . والباقون بالواو، وهى أشبه بالمعنى الثانى؛ أى ولا يخاف الكافر عاقبة ما صنع . وروَى آبن وهب وابن القاسم عن مالك قالا : أخرج إلينا مالك مصحفا لجدّه، وزعم أنه كتبه فى أيام عُثمان بن عفان حين كتب المصاحف، وفيه : « ولا يخاف » بالواو . وكذا هى فى مصاحف أهل مكة والعراقيين بالواو، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم ، اتباعا لمصحفهم .

سـورة « والليـل »

مَكِّيّة . وقيل : مَدَنِيّة . وهى إحدى وعشرون آية بإجماع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ والليل إذا يَغْشَى ﴾ أى يُغَطِّى . ولم يذكر معه مفعولا للعلم به . وقيل : يغشى النهار . وقيل : الأرض . وقيل : الخلائق . وقيل : يغشى كل شىء بظلمته . وروى سعيد عن قتادة قال : أولُ ما خلق الله النـورُ والظلمة ، ثم مَيَّز بينهما ، فجعل الظلمة ليـلا أسود مظلما، والنور نهارا مضيئا مبصرا . ﴿ والنهارِ إذا تجلَّى ﴾ أى إذا انكشف ووضح وظهر، وبان بضوئه عن ظلمة الليل . ﴿ وما خَلَقَ الذَّكَرَ والأُنثى ﴾ قال الحسن : معناه والذى خلق

الذكر والأنثى ؛ فيكون قد أقسم بنفسه عزّ وجل . وقيـل : معناه وخلق الذكر والأنثى ؛ فـ«ما» مصدرية على ما تقدم . وأهل مكة يقولون للرعد : سبحان ما سبّحت له ؛ فما على هذا بمعنى من ، وهو قول أبي عبيـدة وغيره . وقد تقـدّم . وقيل : المعنى وما خلق من الذكر والأنثى؛ فتكون «من» مضمرة، ويكون القَسَم منه بأهل طاعته من أنبيائه وأوليائه، ويكون قَسَمُه بهم تَكْرِمَةً لهم وتشريفًا . وقال أبو عبيـدة : «وما خلق» أى ومن خلق . وكذا قوله : «والسَّماءِ وَمَا بناها»، و«نَفْسٍ وما سَوّاها» «ما» في هذه المواضع بمعنى مَن . ورُوِىَ عن ابن مسعود أنه كان يقرأ «والنّهارِ إذا تجلّى.والذّكَرِ والأُنْثَى» ويُسْقِط «وما خلق» . وفى صحيح مسلم عن عَلْقَمة قال : قَدِمْنا الشام فأتانا أبو الدَّرْدَاء فقال : فيكم أحد يقـرأ علىّ قراءةَ عبد الله ؟ فقلت : نعم ، أنا . قال : فكيف سمعتَ عبدَ الله يقرأ هذه الآية «واللّيلِ إذا يَغْشَى» ؟ قال : سمعته يقرأ «واللّيـلِ إذا يَغْشَى . والذّكَرِ والأنثى» قال : وأنا والله هكذا سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها، ولكن هؤلاء يريدون أن أقرأ «وَمَاخَلَقَ» فلا أتابعهم (١) . قال أبو بكر الأنبارىّ : وحدّثنا محمد بن يحيى المَرْوَزِىّ قال حدّثنـا محمد قال حدّثنا أبو أحمد الزّبيرى قال حدّثنا إسرائيـل عن أبي إسحاق عن عبـد الرحمن بن يزيد عن عبد الله قال : أقرأني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم «إنّى أنا الرازق ذو القُوّةِ المَتِين»؛ قال أبو بكر : كلٌّ مِن هذين الحديثين مردود ؛ بخـلاف الإجماع له ، وأن حمزة وعاصمًا يَرْوِيان عن عبـد الله بن مسـعود ما عليه جماعة المسلمين ، والبناء على سَنَدَيْن يوافقان الإجماع أَوْلَى من الأخذ بواحد يخالفه الإجماع والأمـة ، وما يُبْنَى على رواية واحد إذا حاذاه رواية جماعة تخالفه ، أُخِذ برواية الجماعة وأُبْطِل نقـل الواحد ؛ لمـا يجوز عليه من النسيان والإغفال . ولو صح الحديث عن أبي الدَّرداء وكان إسناده مقبولا معروفا، ثم كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ

(١) وفى كتاب الأحكام لابن العربي ما نصه : «هذا مما لا يلتفت إليه بشر، إنما المعول عليه ما فى المصحف فلا تجوز مخالفته لأحد، ثم بعد ذلك يقع النظر فيما يوافق خطه مما لم يثبت ضبطه حسب ما بيناه فى موضعه ؛ فإن القرآن لا يثبت بنقـل الواحد وإن كان عدلا ، وإنما يثبت بالتواتر الذى يقع به العلم ، وينقطع معـه العذر وتقوم به الحجة على الخلق» .

وسائر الصحابة رضى الله عنهم يخالفونه ، لكان الحكم العمل بما روته الجماعة ، ورفض ما يحكيه الواحد المنفرد ، الذى يسرع إليه من النسيان ما لا يسرع إلى الجماعة ، وجميع أهل الملة .

وفى المراد بالذكر والأنثى قولان : أحدهما — آدم وحوّاء ؛ قاله ٱبن عباس والحسن والكلبيّ . الثانى — يعنى جميع الذكور والإناث من بنى آدم والبهائم ؛ لأن الله تعالى خلق جميعهم من ذكر وأنثى من نوعهم . وقيل : كل ذكر وأنثى من الآدميين دون البهائم لاختصاصهم بولاية الله وطاعته . ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ هذا جواب القسم . والمعنى : إن عملكم لمختلف . وقال عكرمة وسائر المفسرين : السعى : العمل ؛ فساعٍ فى فَكاك نفسه ، وساعٍ فى عَطَبها ؛ يدل عليه قوله عليه السلام : "الناس غاديان : فمبتاع نفسه فمعتِقها ، و بائع نفسه فمو بِقها"[1] . وشتى : واحده شتيت ؛ مثل مريض ومرضى . وإنما قيل للمختلف شتى لتباعد ما بين بعضه و بعضه . أى إنّ عملكم لمتباعد بعضه من بعض ؛ لأن بعضه ضلالة وبعضه هدى . أى فمنكم مؤمن وبر ، وكافر وفاجر ، ومطيع وعاصٍ . وقيل : « لشتى » أى لمختلف الجزاء ؛ فمنكم مثاب بالجنة ، ومعاقب بالنار . وقيل : أى لمختلف الأخلاق ؛ فمنكم راحم وقاس ، وحليم وطائش ، وجواد وبخيل ؛ وشبه ذلك .

قوله تعالى : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فأمّا من أَعطى وٱتقى ﴾ قال ٱبن مسعود : يعنى أبا بكر رضى الله عنه ؛ وقاله عامة المفسرين . فروِى عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر يُعْتق على الإسلام عجائز ونساء ، قال : فقال له أبوه قحافة : أى بنى ! لو أنك

(١) هذه رواية الحديث كما فى الثعلبى . والذى فى نسخ الأصل : « الناس غاديان : فبائع نفسه فعتقها ، أو موبقها » .

عتقت رجالا جَلْدًا(١) يمنعونك ويقومون معك ؟ فقـال : يا أبتِ إنمـا أريد ما أريد . وعن ابن عباس في قوله تعالى: «فأمّا مَنْ أَعْطَى» أي بَذَل. «وَٱتَّقَى» أي محارم الله التي نهى عنها. ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ أي بالخَلَف من الله تعالى على عطائه. ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : "ما من يوم يُصْبِح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللّهُــمَّ أعطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ويقــول الآخر اللّهمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا" . وروى من حديث أبي الدَّرْداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ما من يوم غَرَبت شَمْسُه إلا بُعِث بجنبتها مَلَكان يُنَادِيَان يسمعهما خلق الله كلّهم إلا الثَّقَلَيْن اللّهُمَّ أعطِ مُنفِقا خَلَفًا وأَعطِ مُمْسِكًا تَلَفًا" فأنزل الله تعـالى في ذلك في القرآن « فأمّا مَنْ أَعْطَى » الآيات . وقال أهل التفسير: « فأمّا مَنْ أعطى » المُعْسِرين . وقال قتادة : أعطى حَقّ الله تعالى الذي عليه . وقال الحسن: أعطى الصدق من قلبه . ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ أي بلا إله إلا الله؛ قاله الضحاك والسُّلَمِيّ وٱبن عباس أيضا . وقال مجاهــد : بالجنة ؛ دليله قوله تعالى : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ(٢)» الآية . وقال قتادة: بمَوعود الله الذي وَعَده أن يثيبه . زيد بن أسلم: بالصلاة والزكاة والصوم . الحسن : بالخَلَف من عطائه ؛ وهــو اختيار الطبريّ . وتقدم عن ابن عباس ، وكلّه متقارب المعنى ؛ إذ كله يرجع إلى الثواب الذي هو الجنة .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ أي نرشده لأسباب الخير والصلاح حتى يسهل عليه فعلها . وقال زيد بن أسلم: «لليسرى» للجنة. وفي الصحيحين والترمذي عن عليّ رضي الله عنه قال : كنا في جنازة بالبَقِيع ، فأتى النبيُّ صلى الله عليه وسلم فجلس وجلسنا معه، ومعه عُود يَنْكُتُ به في الأرض ، فــرفع رأسه إلى السماء فقال : "ما مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إلّا [قد] كُتِب مَدْخَلُها" فقال القوم: يارسول الله، أفلا نتّكِل على كتابنا ؟ فمن كان من أهل السـعادة فإنه يعمل للسعادة ، ومن كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء . قال : "بل

(١) كذا في كتاب أسباب النزول وروح المعاني . وفي نسخ الأصل : « ما يريد » . وفي تفسير الثعلبي ورواية أخرى في أسباب النزول : « لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك ؟ قال : منع ظهري أريد » .

(٢) آية ٢٦ سورة يونس .

آعملوا فكل ميسر، أما من كان من أهل السعادة فإنه يُيَسَّر لعمل السعادة، وأما من كان من أهل الشــقاء فإنه ييسر لعمل الشقاء — ثم قرأ — « فأمّا من اعطى وآتقى وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخِل وآستغنى ، وكذب بِالحسنى ، فسنيسره لِلعسرى » " لفظ الترمذي" . وقال فيه : حديث حسن صحيح . وسأل غلامان شابان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : العمل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ؟ أم فى شيء يستأنف ؟ فقال عليه السلام : "بل فيما جفت به الأقلام ، وجرت به المقادير" قالا : ففيم العمل؟ قال : "آعملوا ، فكل ميسر لعمل الذى خلق له " قالا : فالآن نجِد ونعمل .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وأما من بخِل وآستغنى ﴾ أى ضنّ بما عنده ، فلم يبذل خيرا . وقد تقدّم بيانه وثمرته فى الدنيا فى سورة « آل عمران »[1] . وفى الآخرة مآله النار ، كما فى هذه الآية . روى الضحاك عن آبن عباس ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ قال : سوف أحول بينه و بين الإيمان بالله و برسوله . وعنه عن آبن عباس قال : نزلت فى أمية بن خلف وروى عكرمة عن آبن عباس : « وأما من بخِل وآستغنى » يقول : بخِل بماله ، واستغنى عن ربه . ﴿ وكذّب بِالحُسنى ﴾ أى بالخلف . وروى آبن أبى نجيح عن مجاهد : « وكذب بِالحسنى » قال : بالجنة . وبإسناد عنه آخر قال « بالحسنى » أى بلا إله إلا الله . ﴿ فسنيسره ﴾ أى نسهل طريقه . ﴿ للعُسْرَى ﴾ أى للشر . وعن آبن مسعود : للنار . وقيل : أى فسنعسر عليه أسباب الخير والصلاح حتى يصعب عليه فعلها . وقــد تقــدّم أن الملك ينادى صباحا ومساء: " اللهم أعطِ منفِقا خلفا ، وأعط ممسكا تلفا " . رواه أبو الدرداء .

مسألة : قال العلماء : ثبت بهذه الآية وبقوله : « ومِمــا رزقناهم ينفِقون »[2] ، وقوله : « الذين ينفِقون أموالهم بِالليلِ والنهارِ سِرا وعلانية »[3] إلى غير ذلك من الآيات — أن الجود من مكارم الأخلاق ، والبخل من أرذلها . وليس الجواد الذى يعطى فى غير موضع العطاء ، ولا البخيل الذى يمنع فى موضع المنع ، لكن الجواد الذى يعطى فى موضع العطاء ، والبخيل

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٩١ (٢) آية ٣ سورة البقرة . (٣) آية ٢٧٤ سورة البقرة .

الذى يمنع فى موضع العطاء، فكل من آستفاد بما يعطى أجرا وحمدا فهو الجواد . وكل من آستحق بالمنع ذما أو عقابا فهو البخيل. ومن لم يستفد بالعطاء أجرا ولا حمدا، و إنما استوجب به ذما فليس بجواد، و إنما هو مسرف مذموم، وهو من المبذّرين الذين جعلهم الله إخوان الشياطين، وأوجب الحجْر عليهم. ومن لم يستوجب بالمنع عقابا ولاذما، وآستوجب به حمدا، فهو من أهل الرشد، الذين يستحقون القيام على أموال غيرهم، بحسن تدبيرهم وسَداد رأيهم.

الرابعـــة ـــ قال الفراء: يقول القائل: كيف قال: «فسنيسره للعسرى» ؟ وهل فى العسرى تيسير؟ فيقال فى الجواب: هذا فى إجازته بمنزلة قوله عز وجل: «فبشرهم بِعذابٍ أليم»[(١)]، والبِشارة فى الأصل على المفرح والسارّ، فإذا جمع فى كلامين هذا خير وهذا شر، جاءت البشارة فيهما . وكذلك التيسير فى الأصـل على المفرح، فإذا جمع فى كلامين هذا خير وهذا شر، جاء التيسير فيهما جميعا. قال الفراء: وقوله تعالى «فسنيسره»: سنهيئه. والعرب تقول: قد يَسَّرت الغنم: إذا ولدت أو تهيأت للولادة. قال:

هما سـيدانا يزعمان وإنما * يَسُودانِنا أن يَسَّرتْ غنماهما[(٢)]

قوله تعـالى: ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وما يُغنِي عنه ماله إذا تردّى ﴾ أى مات. يقال: رَدِىَ الرجُل يَرْدَى ردًى: إذا هلك. قال: * صرفت الهوى عنهنّ من خشية الردى *

وقال أبو صالح وزيد بن أسلم: «إذا تردى»: سقط فى جهنم؛ ومنه المتردّية. ويقال: رَدِى فى البئر وتردى: إذا سقط فى بئر، أو تهوّر من جبل. يقال: ما أدرى أين رَدِىَ؟ أى أين ذهب. و«ما»: يحتمل أن تكون جحدا؛ أى ولا يغنى عنه ماله شيئا؛ ويحتمل أن تكون استفهاما

(١) آية ٢١ سـورة آل عمران.

(٢) البيت لأبى أسيدة الدبيرى. وقبله.

إن لنا شـيخين لا ينفعاننا * غنيين لا يجـدى علينا غناهما

معناه التوبيخ؛ أى أىّ شىء يغنى عنه إذا هلك ووقع فى جهنم! ﴿ إنّ علينا للهُدَى ﴾ أى إن علينا أن نُبيِّن طريق الهدى من طريق الضلالة. فالهدى: بمعنى بيان الأحكام، قاله الزجاج. أى على الله البيان، بيان حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته؛ قاله قتادة. وقال الفرّاء: من سلك الهدى فعلى الله سبيله، لقوله: «وعلى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ» (1) يقول: من أراد الله فهو على السبيل القاصد. وقيل: معناه إن علينا للهدى والإضلال، فترك الإضلال، كقوله: «بِيدِكَ الخير» (2)، و «بِيدِه ملكوت كل شىء» (3). وكما قال: «سرابيل تقِيكم الحَرّ» (4) وهى تقى البرد؛ عن الفرّاء أيضا. وقيل: أى إن علينا ثواب هداه الذى هديناه. ﴿ وإنّ لنا للآخِرةَ والأولَى ﴾ «لَلآخِرَةَ» الجنة. «والأولى» الدنيا. وكذا روى عطاء عن ابن عباس. أى الدنيا والآخرة لله تعالى. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: ثواب الدنيا والآخرة، وهو كقوله تعالى: «من كان يرِيد ثواب الدنيا فعِند اللهِ ثواب الدنيا والاخِرةِ» (5) فمن طلبهما من غير مالكهما فقد أخطأ الطريق.

قوله تعالى: فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿ فأَنذرتكم ﴾ أى حذرتكم وخوفتكم. ﴿ نارا تَلَظَّى ﴾ أى تَلَهَّب وتتوقد. وأصله تتلظى. وهى قراءة عُبيد بن عُمير، ويحيى بن يعمر، وطلحة بن مصرف. ﴿ لا يصلاها ﴾ أى لا يجد صَلَاها وهو حرها. ﴿ إلا الأشْقَى ﴾ أى الشقى. ﴿ الذِى كذب ﴾ نبى الله محمدا صلى الله عليه وسلم. ﴿ وَتولَّى ﴾ أى أعرض عن الإيمان. وروى مكحول عن أبى هريرة قال: كل يدخل الجنة إلا من أباها. قال: يا أبا هريرة، ومن يأبى أن يدخل الجنة؟ قال: الذى كَذّب وتَولّى. وقال مالك: صلّى بنا عمر بن عبد العزيز المغرب، فقرأ «والليل

---

(1) آية ٩ سورة النحل. (2) آية ٢٦ سورة آل عمران. (3) آية ٨٣ سورة يس.
(4) آية ٨١ سورة النحل. (5) آية ١٣٤ سورة النساء.

إذا يغشى » فلما بلغ « فأنذرتكم نارا تَلَظَّى » وقع عليه البكاء ، فلم يقدر يتعدّاها من البكاء، فتركها وقرأ ســورة أخرى . وقال الفرّاء : « إلا الأشقى » إلا من كان شقيا فى علم الله جل ثناؤه . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : « لا يصلاها إلا الأشــقى » أميــة بن خلف ونظراؤه الذين كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم . وقال قتادة : كذب بكتاب الله، وتولى عن طاعة الله . وقال الفرّاء : لم يكن كذب بردّ ظاهر، ولكنه قصّر عما أُمر به من الطاعة؛ فجُعل تكذيبا؛ كما تقول : لقِىَ فلان العدوّ فكذب : إذا نكل ورجع عن اتباعه . قال : وسمعت أبا ثروان يقول : إن بنى نُمَيْر ليس لِحَدِّهم(١) مكذوبة . يقول . إذا لَقُوا صدقوا القتال، ولم يرجعوا . وكذلك قوله جل ثنــاؤه : « ليس لِوقعتِها كاذبة(٢) » يقول : هى حق . وسمعت سلم بن الحسن يقول : سمعت أبا إسحاق الزجاج يقول : هذه الآية التى من أجلها قال أهل الإرجاء(٣) بالإرجاء، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر؛ لقوله جل ثناؤه : « لا يَصلاها إلا الأشقى . الذى كذب وتولى » وليس الأمر كما ظنوا . هذه نار موصوفة بعينها، لا يصلى هذه النار إلا الذى كذب وتولى . ولأهل النار منازل ؛ فمنها أن المنافقين فى الدَّرْك الأسفل من النار؛ والله سبحانه كل ما وعد عليه بجنس من العذاب فجائز أن يعذب به . وقال جل ثناؤه : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء(٤) » ، فلو كان كل من لم يشرك لم يعــذّب ، لم يكن فى قوله : « ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » فائدة، وكان « ويغفر مادون ذلك » كلاما لا معنى له .

الزمخشرىّ : الآية واردة فى الموازنة بين حالتى عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ فى صفتيهما المتناقضتين ، فقيل : الأشقى، وجعل مختصا بالصَّلى، كأن النار لم تخلق

(١) كذا فى الأصول وأساس البلاغة للزمخشرى . والذى فى تفسير الفرّاء ولسان العرب — مادة كذب — : « لحدهم » بالحاء المهملة . وحدّ الرجل : بأسه ونفاذه فى نجدته . (٢) آية ٢ سورة الواقعة .

(٣) هم المرجئة ، وهم فرقة من فرق الاسلام ، يعتقدون أنه لا يضر مع الايمان معصية ، كما أنه لا ينفع مع الكفر طاعة . سموا مرجئة ، لاعتقادهم أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصى؛ أى أخره عنهم . وقيل : المرجئة فرقة من المسلمين يقولون : الإيمان قول بلا عمل ؛ كأنهم قدّموا القول، وأرجئوا العمل ، أى أخروه؛ لأنهم يرون أنهم لو لم يصلوا ولم يصوموا لنجاهم إيمانهم . (٤) آية ٤٨ سورة النساء .

إلا له . وقيل : الأتقى، وجعل مختصا بالجنة ، كأن الجنة لم تخلق إلا له . وقيل : هما أبو جهل أو أمية بن خلف . وأبو بكر رضي الله عنه .

قوله تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وسيجنبها ﴾ أي يكون بعيدا منها . ﴿ الأتقى ﴾ أي المتقي الخائف . قال ابن عباس : هو أبو بكر رضي الله عنه ، يزحزح عن دخول النار . ثم وصف الأتقى فقال ﴿ الذي يؤتي ماله يتزكى ﴾ أي يطلب أن يكون عند الله زاكيا، ولا يطلب بذلك رياء ولا سمعة ، بل يتصدق به مبتغيا به وجه الله تعالى . وقال بعض أهل المعاني : أراد بقوله « الأتقى » و « الأشقى » أي التقيّ والشقيّ ؛ كقول طرفة :

تمنى رجال أن أموت و إن أمت * فتلك سبيل لست فيها بأوحدِ

أي واحد ووحيد ؛ وتوضع (أفعَل) موضع فعيل ، نحو قولهم : الله أكبر بمعنى كبير ، « وهو أهون عليه »(1) بمعنى هين .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وما لِأحدٍ عِندهُ مِنْ نِعمةٍ تُجْزَى ﴾ أي ليس يتصدق ليجازِيَ على نعمة، إنما يبتغي وجه ربه الأعلى، أي المتعالي ﴿ ولسوف يرضى ﴾ أي بالجزاء. فروى عطاء والضحاك عن ابن عباس قال : عَذَّب المشركون بلالا ، و بلال يقول أَحَد أَحَد ؛ فمرّ به النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " أحد — يعني الله تعالى — ينجيك " ثم قال لأبي بكر : " يا أبا بكر إنّ بلالا يعذب في الله" فعرف أبو بكر الذي يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانصرف إلى منزله ، فأخذ رطلا من ذهب، ومضى به إلى أمية بن خلف، فقال له : أتبيعني بلالا؟ قال : نعم؛ فاشتراه فأعتقه . فقال المشركون : ما أعتقه أبو بكر إلا ليد كانت له عنده ؛ فنزلت « وما لأحدٍ عِندَه » أي عند أبي بكر « من نعمة » ، أي من يدٍ ومِنّة ، « تُجْزَى » بل

(1) آية ٢٧ سورة الروم .

« ابتغاءَ » بما فعل « وجْهَ ربِّهِ الأَعْلَى » . وقيل : اشترى أبو بكر من أمية وأبيّ بن خلف بلالا ، ببردة وعشر أواق ، فأعتقه لله ، فنزلت : « إنَّ سَعْيَكُم لشتَّى » . وقال سعيد بن المسيب : بلغنى أن أمية بن خلف قال لأبى بكر حين قال له أبو بكر : أتبيعُنِيه ؟ فقال : نعم ، أبيعه بنِسطاس ، وكان نِسْطاس عبدا لأبى بكر ، صاحب عشرة آلاف دينار وغلمان وجوارٍ ومواشٍ ، وكان مشركا ، فحمله أبو بكر على الإسلام ، على أن يكون له مالُه ، فأبى ، فباعه أبو بكر به . فقال المشركون : ما فعل أبو بكر ببلال هذا إلا ليد كانت لبلال عنده ؛ فنزلت « وما لِاحدٍ عِنده مِن نِعمةٍ تُجْزَى . إلا ابتِغاء » أى لكن ابتغاء ؛ فهو استثناء منقطع ؛ فلذلك نصبت . كقولك : ما فى الدار أحد إلا حمارا . ويجوز الرفع . وقرأ يحيى بن وثاب « إلا ٱبتغاءُ وجهِ ربه » بالرفع ، على لغة من يقول : يجوز الرفع فى المستثنى . وأنشد فى اللغتين قول بشر بن أبى خازم :

أضحتْ خَلاءً قِفارا لا أنيسَ بها　*　إلا الجآذرَ والظلمانَ تختلفُ (١)

وقول القائل :

وبلدةٍ ليسَ بهـا أنيسُ　*　إلا اليعافيرُ وإلا العِيسُ (٢)

وفى التنزيل : « ما فعلوه إلا قليلٌ مِنهـم (٣) » وقد تقدم . (وجهِ ربِّهِ الأعلى) أى مَرْضـاته وما يقرّب منه . و « الأعلى » من نعت الرب الذى ٱستحق صفات العلو . ويجوز أن يكون « ٱبتغاء وجهِ ربه » مفعولا له على المعنى ؛ لأن معنى الكلام : لا يؤتى ماله إلا ٱبتغاء وجهِ ربه ، لا لمكافأة نعمته . (ولَسوفَ يَرْضَى) أى سوف يعطيه فى الجنة ما يُرْضى ؛ وذلك أنه يعطيه أضعاف ما أنفق . وروى أبو حَيّان التيميّ عن أبيه عن عليّ رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رَحِم الله أبا بكر ! زوجنِي ٱبنته ، وحملنى إلى دار الهجرة ، وأعتق بلالا من ماله " . ولمـا اشـتراه أبو بكر قال له بلال : هل اشتريتنى لعملك أو لعمل الله ؟ قال : بل لعمل الله

---

(١) الجآذر (جمع جؤذر) وهو ولد البقـرة الوحشية . والظلمان (بالكسر والضم) : جمع الظليم ؛ وهو الذكر من النعام .　(٢) اليعافير : جمع يعفور : وهو ولد الظبية ؛ وولد البقرة الوحشية أيضا . والعيس : إبل بيض تخالط بياضها شقرة ؛ جمع أعيس وعيساء .　(٣) آية ٦٦ سورة النساء . راجع جـ ٥ ص ٢٧٠ .

قال : فذرنى وعمل الله، فأعتقه . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا (يعنى بلالا رضى الله عنه) . وقال عطاء — وروى عن آبن عباس — : إن السورة نزلت فى أبى الدّحداح، فى النخلة التى آشتراها بحائط له ؛ فيما ذكر الثعلبىّ عن عطاء . وقال القشيرىّ عن آبن عباس : بأربعين نخلة ؛ ولم يسم الرجل . قال عطاء : كان الرجل من الأنصار نخلة ، يسقط من بلحها فى دار جارٍ له ، فيتناوله صبيانه ، فشكا ذلك إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "تبيعها بنخلة فى الجنة" ؟ فأبى ؛ فخرج فلقيه أبو الدّحداح فقال : هل لك أن تبيعنيها بـ« حُسْنَى » : حائطٍ له . فقال : هى لك . فأتى أبو الدّحداح إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم، وقال : يارسول الله، اشترها منى بنخلة فى الجنة . قال : "نعم، والذى نفسى بيده" فقال : هى لك يا رسول الله ؛ فدعا النبىّ صلى الله عليه وسلم جار الأنصارىّ، فقال : "خذها" فنزلت « والليـلِ إذا يغشى » إلى آخر الســورة فى بستان أبى الدحداح وصاحب النخلة . « فأما من أعطى واتقى » يعنى أبا الدحداح . « وصدّق بِالحسنى » أى بالثواب . « فسنيسره لِليسرى » : يعنى الجنة . « وأما من بخِل واستغنى » يعنى الأنصارىّ . « وكذّب بِالحسنى » أى بالثواب . « فسنيسره لِلعسرى »، يعنى جهنم . وما يغنِى عنه ماله إذا تردّى » أى مات . إلى قوله : « لا يصلاها إلا الأشقى » يعنى بذلك الخزرجىّ؛ وكان منافقا، فمات على نفاقه . « وسَيُجَنَّبُهَا الأتقى » يعنى أبا الدحداح . « الذِى يؤتِى ماله يتزكى » فى ثمن تلك النخلة . « ما لِأحدٍ عنده مِن نِعمةٍ تُجْزَى » يكافئه عليها ؛ يعنى أبا الدحداح . « ولسوف يرضى » إذا أدخله الله الجنــة . والأكثر أن السورة نزلت فى أبى بكر رضى الله عنــه . وروى ذلك عن آبن مسعود وآبن عباس وعبــد الله بن الزبير وغيرهم . وقــد ذكرنا خبرا آخر لأبى الدحداح فى ســورة « البقرة »، عند قوله : « من ذا الذى يُقْرِض اللهَ قَرْضا حسنا » (١) . والله تعالى أعلم .

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٣٧

سورة « الضحى »

مكية بآتفاق . وهى إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)

قوله تعالى : ﴿ والضُّحَى . والليلِ إذا سَجَى ﴾ قد تقدّم القول فى «الضحى»[1] ، والمراد به النهار؛ لقوله : « والليلِ إذا سَجَى » فقابله بالليل . وفى سورة (الأعراف) « أفأَمِنَ أهْلُ القُرى أن يأتِيَهم بأسُنا بَيَاتاً وهم نائمون . أو أَمِنَ أَهْلُ القرى أن يأتِيَهم بأسُنَا ضُحًى وهمْ يَلْعبون »[2] أى نهارا . وقال قتادة ومقاتل وجعفر الصادق : أقسم بالضحى الذى كلم الله فيه موسى، وبليلة المِعراج . وقيل : هى الساعة التى خرّ فيها السَّحَرة سجدا . بيانه قوله تعالى : « وأن يُحْشَر النـاس ضُحًى »[3] . وقال أهل المعانى فيه وفى أمثاله : فيه إضمار، مجازه ورب الضحى . و « سَجَا » معناه : سكن ؛ قاله قتادة ومجاهد وآبن زيد وعكرمة . يقال : ليلة ساجية أى ساكنة . و يقال للعين إذا سكن طرفها : ساجية . يقال : سجا الليل يسجو سَجْوا[4] : إذا سكن . والبحر إذا سجا : سكن . قال الأعشى :

فما ذنبنا[5] أن جاش بحر آبن عمكم * و بحرك ساجٍ ما يوارِى الدعامِصا

وقال الراجز :

يا حَبَّذَا القَمْراءُ والليلُ الساجْ * وطُرُقٌ مِثلُ مُلاءِ النَّسَّاجْ

---

(١) راجع ص ٧٢ وما بعدها من هذا الجزء . (٢) آية ٩٧ ، ٩٨ (٣) آية ٥٩ سورة طه .
(٤) فى اللسان : « يسجو سجوا وسجوا » . (٥) فى ديوان الأعشين : * أتوعدنى أن جاش ... *
والدعامص : جمع الدعموص : وهو دويبة صغيرة تكون فى مستنقع الماء .

وقال جرير :

ولقــد رمينَك يوم رُحْن بأعينٍ * ينظرن من خَلَل الستور سواجى

وقال الضحاك : «سجا» غطّى كل شيء . قال الأصمعيّ : سَجْو الليل : تغطيته النهار، مثلما يُسَجّى الرجل بالثوب . وقال الحسن : غشي بظــلامه ؛ وقاله آبن عباس . وعنــه : إذا ذهب . وعنه أيضا : إذا أظلم . وقال سعيد بن جبير : أقبــل؛ وروى عن قتادة أيضــا . وروى آبن أبي نَجيح عن مجاهد : « سجا » استوى . والقول الأوّل أشهر في اللغة : «سجا» سكن؛ أي سكن الناس فيه . كما يقال: نهار صائم،وليل قائم . وقيل : سكونه استقرار ظلامه واستواؤه . ويقال : « والضحى . والليلِ إذا سَجَا » : يعنى عباده الذين يعبــدونه فى وقت الضحى ، وعباده الذين يعبدونه بالليــلِ إذا أظلم . ويقال : « الضحى » : يعنى نور الجنة إذا تنوّر . « والليل إذا سجا » : يعنى ظلمة الليل إذا أظلم . ويقال : « والضحى » : يعنى النور الذى فى قلوب العارفين كهيئة النهار . « والليلِ إذا سجا » : يعنى السواد الذى فى قلوب الكافرين كهيئة الليل؛ فأقسم الله عز وجل بهذه الأشياء . ﴿ما ودّعَكَ ربُّك﴾ : هذا جواب القسم . وكان جبريل عليه السلام أبطأ على النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال المشركون : قلاه الله وودّعه ؛ فنزلت الآية . وقال ابن جريج : احتبس عنه الوحى اثنى عشر يوما . وقال ابن عباس : خمسة عشر يوما . وقيل : خمسة وعشرين يوما . وقال مقاتل : أربعين يوما . فقال المشركون : إن محمدا ودّعه ربه وقلاه، ولو كان أمره من الله لتابع عليه، كما كان يفعل بمن كان قبله من الأنبياء . وفى البخاريّ عن جندب بن سفيان قال : اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يَقُم ليلتين أو ثلاثا ؛ فجاءت امرأة (١) فقالت : يا محمد ، إنى لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ، لم أره قرِبَك منذ ليلتين أو ثلاث ؛ فأنزل الله عز وجل « والضُّحى . والليل إذا سجى . ما ودّعك ربك وما قلى » . وفى الترمذيّ عن جندب البجليّ قال : كنت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فى غار فدميت إصبعه، فقــال النبيّ صلى الله عليه وســلم : " هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ ،

(١) هى العوراء بنت حرب ، أخت أبى سفيان ، وهى حمالة الحطب ، زوج أبى لهب .

وفي سَبيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ " ! قال : وأبطأ عليه جبريل فقال المشركون : قد وُدِّعَ محمد ؛ فأنزل الله تبارك وتعالى « ما ودَّعَكَ رَبُّك وما قَلَى » . هذا حديث حسن صحيح . لم يذكر الترمذى : « فلم يَقُم ليلتين أو ثلاثا » أسقطه الترمذى . وذكره البخارى ؛ وهو أصح ما قيل فى ذلك . والله أعلم . وقد ذكره الثعلبى أيضا عن جندب بن سفيان البجلى ، قال : رُمِى النبيّ صلى الله عليه وسلم فى إصبعه بحجر ، فدمِيت ، فقال : " هَلْ أنتِ إلّا إصْبَعٌ دَمِيتِ ، وفى سبيلِ اللهِ ما لَقِيتِ " فمكث ليلتين أو ثلاثا لا يقوم الليل . فقالت له أم جميل امرأة أبى لهب : ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث ؛ فنزلت «والضُّحَى» . وروى عن أبى عمران الجَوْنى ، قال : أبطأ جبريل على النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى شق عليه ؛ فجاء وهو واضع جبهته على الكعبة يدعو ؛ فنكت بين كتفيه ، وأنزل عليه : « ما ودّعك ربُّك وما قَلَى » . وقالت خولة — وكانت تخدُم النبيّ صلى الله عليه وسلم — : إن جَرْوًا دخل البيت ، فدخل تحت السرير فمات ، فمكث نبيّ الله صلى الله عليه وسلم أياما لا ينزل عليه الوحى . فقال : " يا خولة ، ما حدث فى بيتى ؟ ما لجبريل لا يأتينى " ! قالت خولة فقلت : لو هيأت البيت وكنسته ؛ فأهويت بالمكنسة تحت السرير ، فإذا جَرْوٌ ميت ، فأخذته فألقيته خلف الجدار ؛ فجاء نبيّ الله ترعد لَحْياه — وكان إذا نزل عليه الوحى استقبلته الرِّعدة — فقال : "يا خولة دثرينى " فأنزل الله هذه السورة . ولما نزل جبريل سأله النبيّ صلى الله عليه وسلم عن التأخر فقال : " أما علمت أنا لا ندخل بيتا فيه كلب ولا صُورة " . وقيل : لما سألته اليهود عن الروح وذى القرنين وأصحاب الكهف قال : " سأخبركم غدًا " ولم يقل إن شاء الله . فاحتبس عنه الوحى ، إلى أن نزل جبريل عليه بقوله « ولا تقولنّ لِشيءٍ إنى فاعِل ذلك غدًا إلا أن يشاء الله »[1] فأخبره بما سئل عنه . وفى هذه القصة نزلت « ما ودّعك ربك وما قلى » . وقيل : إن المسلمين قالوا : يا رسول الله ، مالك لا ينزل عليك الوحى ؟ فقال : " وكيف ينزل علىّ وأنتم لا تنقون رواجبكم — وفى رواية براجمكم[2] — ولا تقصون أظفاركم ولا تأخذون من شواربكم " . فنزل

(١) آية ٢٣ سورة الكهف . (٢) الرواجب (واحدها راجبة) : وهى ما بين عقد الأصابع . والبراجم (واحدها برجمة بالضم) : هى العقد التى فى ظهور الأصابع يجتمع فيها الوسخ .

جبريل بهذه السورة، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما جئت حتى اشتقت إليك " فقال جبريل : " وأنا كنت أشدّ إليك شوقا، ولكني عبد مأمور " ثم أنزل عليه « وما نتنزل إلا بأمر ربك »(١) . « ودّعك » بالتشديد : قراءة العامة ، من التوديع ، وذلك كتوديع المُفارق . وروى عن ابن عباس وابن الزبير أنهما قرأاه « وَدَعك » بالتخفيف ، ومعناه : تركك . قال :

وثم وَدَعْنا آلَ عمرو وعامر * فرائسَ أطراف المثقفة السمْرِ(٢)

واستعماله قليل . يقال : هو يدع كذا ، أى يتركه . قال المبرد محمد بن يزيد : لا يكادون يقولون وَدَعَ ولا وَذَرَ ، لضعف الواو إذا قدمت ، واستغنوا عنها بترك .

قوله تعالى : ﴿ وما قَلَى ﴾ أى ما أبغضك ربك منذ أحبك . وترك الكاف ، لأنه رأس آية . والقِلَى : البغض ، فإن فتحت القاف مددت ، تقول : قلاه يقليه قِلًى وقَلَاء . كما تقول : قريت الضيف أقريه قِرًى وقَرَاء . ويقلاه : لغة طيئ . وأنشد ثعلب :

* أيامَ أمِّ الغَمْرِ لا نَقْلاها *(٣)

أى لا نُبغضها . ونَقْلِي أى نُبغض . وقال(٤) :

أسِيئى بنا أو أحْسِنِي لا ملومةٌ * لدينا ولا مَقْلِيَّـةٌ إنْ تَقَلَّتِ

وقال آمرؤ القيس :

* ولستُ بمقْلِيّ الخِلال ولا قالِ *(٥)

وتأويل الآية : ما ودّعك ربك وما قلاك . فترك الكاف لأنه رأس آية ؛ كما قال عز وجل : « والذاكِرين الله كثيرا والذاكِراتِ »(٦) أى والذاكراتِ الله .

---

(١) آية ٦٤ سورة مريم . (٢) المثقفة والمثقف : الرمح .

(٣) كذا في اللسان . وفي الأصول : « يا رب » . وبعده كما في اللسان :

* ولو تشاء قبلت عيناها *

(٤) هو كثير عزة . (٥) صدر البيت :

* صرفت الهوى عنهن من خشية الردى *

(٦) آية ٣٥ سورة الأحزاب .

قوله تعالى : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ ﴾

روى سلمة عن ابن إسحاق قال : « وَلَلْآخِرة خير لكَ مِنَ الأُولى » أى ما عندى فى مرجعك إلىّ يا محمد، خير لك مما عجلت لك من الكرامة فى الدنيا . وقال ابن عباس : أُرِى النبيّ صلى الله عليه وسلم مايفتح الله على أمته بعده، فسُرّ بذلك، فنزل جبريل بقوله : « وللآخرة خير لك من الاولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى » . قال ابن إسحاق : الفَلَجُ فى الدنيا، والثواب فى الآخرة . وقيل : الحوض والشفاعة . وعن ابن عباس : أَلفُ قَصْر من لؤلؤ أبيض ترابه المِسك . رفعه الأوزاعيّ، قال : حدثنى إسماعيل بن عبيد الله، عن على بن عبد الله ابن عباس، عن أبيه قال : أُرِى النبي صلى الله عليه وسلم ما هو مفتوح على أمّته، فسر بذلك؛ فأنزل الله عز وجل « والضحى — إلى قوله تعالى — وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى »، فأعطاه الله جل ثناؤه ألف قصر فى الجنة، ترابها المسك؛ فى كل قصر ما ينبغى له من الأزواج والخدم . وعنه قال : رضِى محمد ألا يدخل أحد من أهل بيته النار . وقال السدى . وقيل : هى الشفاعة فى جميع المؤمنين . وعن علىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يشفعنِي الله فى أُمّتِي حتى يقول الله سبحانه لى : رضيت يا محمد؟ فأقول يارب رضِيت" . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبيّ صلى الله عليه وسلم تلا قول الله تعالى فى إبراهيم : « فمن تَبِعَنِي فإنه مِنى ومَنْ عصانِى فإنكَ غفورٌ رحِيمٌ »(١) وقول عيسى : « إن تعذبهم فإنهم عِبادُكَ »(٢)، فرفع يديه وقال : "اللهم أمتى أمتى" و بكى . فقال الله تعالى لجبريل : "اذهب إلى محمد، وربك أعلم، فسله ما يبكيك" فأتى جبريل النبيّ صلى الله عليه وسلم، فسأله فأخبره . فقال الله تعالى لجبريل : "اذهب إلى محمد، فقل له : إن الله يقول لك : إنا سنرضيك فى أمتك

(١) آية ٣٦ سورة إبراهيم .

(٢) آية ١١٨ سورة المائدة .

ولا نسوءك[1] ". وقال علىّ رضى الله عنه لأهل العراق : إنكم تقولون إن أرجىَ آية فى كتاب الله تعالى : « قل يا عبادىَ الذين أسرفوا على انفسِهم لا تقنطوا مِن رحمةِ اللهِ »[2] قالوا : إنا نقول ذلك . قال : ولكنا أهل البيت نقول : إن أرجى آية فى كتاب الله قوله تعالى : « ولَسوف يعطيكَ ربك فترضَى » . وفى الحديث : لما نزلت هذه الآية قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إذًا واللهِ لا أرضَى وواحد من أمتى فى النار " .

قوله تعالى : أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾

عدد سبحانه مِنَنَه على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ الم يجِدْكَ يتيما ﴾ لا أب لك، قد مات أبوك. ﴿ فآوى ﴾ أى جعل لك مأوى تأوِى إليه عند عمك أبى طالب، فكفلك. وقيل لجعفر بن محمد الصادق : لم أُوتِم النبى صلى الله عليه وسلم من أبويه ؟ فقال : لئلا يكون لمخلوق عليه حق . وعن مجاهد : هو من قول العرب : درّة يتيمة؛ إذا لم يكن لها مِثل . فمجاز الآية : ألم يجدك واحدا فى شرفك لا نظير لك، فآواك الله بأصحابٍ يحفظونك ويَحُوطونك .

قوله تعالى : وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾

أى غافلا عما يراد بك من أمر النبوّة ، فهداك : أى أرشدك . والضلال هنا بمعنى الغفلة ؛ كقوله جل ثناؤه : « لا يضِلّ ربى ولا ينسى »[3] أى لا يغفل . وقال فى حق نبيه : « وإن كنت مِن قبلِهِ لمِن الغافلِين »[4] . وقال قوم : « ضالّا » لم تكن تدرى القرآن والشرائع، فهداك الله إلى القرآن، وشرائع الإسلام؛ عن الضحاك وشهر بن حوشب وغيرهما . وهو معنى

---

(١) رواية الحديث كما ورد فى صحيح مسلم : كتاب الإيمان : « أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم « رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى » الآية، وقول عيسى عليه السلام « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفرلهم فإنك أنت العزيز الحكيم » فرفع يديه وقال : " اللهم أمتى أمتى " ، وبكى؛ فقال الله عز وجل : « ياجبريل إذهب إلى محمد وربك أعلم، فسله ما يبكيك » فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام، فسأله ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم؛ فقال الله : « ياجبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك فى أمتك ولانسوءك » .

(٢) آية ٥٣ سورة الزمر . (٣) آية ٥٢ سورة طه . (٤) آية ٣ سورة يوسف .

قوله تعالى: « ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان »، على ما بينا فى سورة « الشورى »[١] .
وقال قوم : « ووجدك ضالا » أى فى قوم ضلال ، فهداهم الله بك . هذا قول الكلبي والفراء . وعن السدى نحوه؛ أى ووجد قومك فى ضلال، فهداك إلى إرشادهم . وقيل : «ووجدك ضالا » عن الهجرة، فهداك إليها . وقيل : « ضالا » أى ناسيا شأن الاستثناء حين سُئلت عن أصحاب الكهف وذى القرنين والروح ، فأذكرك ؛ كما قال تعالى : « أَن تَضِلّ إحداهما »[٢] . وقيل : ووجدك طالبا للقبلة فهداك إليها؛ بيانه : « قد نَرَى تَقَلُّبَ وجهِك فى السماءِ »[٣]... الآية . ويكون الضلال بمعنى الطلب ؛ لأن الضال طالب . وقيل : ووجدك متحيرا عن بيان ما نزل عليك، فهداك إليه؛ فيكون الضلال بمعنى التحير؛ لأن الضال متحير . وقيل : ووجدك ضائعا فى قومك؛ فهداك إليه؛ ويكون الضلال بمعنى الضياع . وقيل : ووجدك محبا للهداية، فهداك إليها؛ ويكون الضلال بمعنى المحبة . ومنه قوله تعالى : « قالوا تاللهِ إنك لفِى ضلالِك القديمِ »[٤] أى فى محبتك . قال الشاعر :

هذا الضلالُ أشاب منى المفرِقا * والعارِضَيْنِ ولم أكن متحققا[٥]
عجبا لعزةَ فى اختيار قطيعتى * بعد الضلال فحبلها قد أخلقا

وقيل : « ضالا » فى شِعاب مكة، فهداك وردّك إلى جدّك عبد المطلب . قال ابن عباس : ضل النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو صغير فى شِعاب مكة، فرآه أبو جهل منصرفا عن أغنامه ، فردّه إلى جده عبد المطلب ؛ فمنّ الله عليه بذلك ، حين ردّه إلى جده على يدى عدوّه . وقال سعيد بن جبير : خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم مع عمه أبى طالب فى سفر، فأخذ إبليس بزمام الناقة فى ليلة ظَلْماء ، فعدل بها عن الطريق ، فجاء جبريل عليه السلام ، فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى أرض الهند ، وردّه إلى القافلة؛ فمنّ الله عليه بذلك . وقال كعب : إن حليمة لما قضت حق الرضاع، جاءت برسول الله صلى الله عليه وسلم لتردّه على عبد المطلب،

(١) آية ٥٢ راجع جـ ١٦ ص ٥٥　(٢) آية ٢٨٢ سورة البقرة .
(٣) آية ١٤٤ سورة البقرة .　(٤) آية ٩٥ سورة يوسف .
(٥) المفرق (كمقعد ومجلس) : وسط الرأس . والعارض : صفحة الخد .

فسمعت عنـد باب مكة : هنيئا لكِ يا بطحاء مكة ، اليـوم يرد إليك النور والدين والبهـاء والجمال . قالت : فوضعته لأُصلـح ثيابى ، فسمعت هدّة شديدة ، فآلتفت فلم أره ، فقلت : مَعْشَرَ النـاس ، أين الصبيّ ؟ فقـالوا : لم نر شيئا ؛ فصحت : وامحمداه ! فإذا شـيخ فانٍ يتوكأ على عصاه ، فقال : اذهبي إلى الصنم الأعظم ؛ فإن شاء أن يردّه عليك فعل . ثم طاف الشيخ بالصنم ، وقبل رأسه وقال : يا رب ، لم تزل مِنتك على قريش ، وهذه السعدية تزعم أن ٱبنها قد ضل ، فردّه إن شئت . فانكب (هُبَلُ) على وجهه ، وتساقطت الأصنام ، وقالت : إليك عنا أيها الشيخ ، فهلاكنا على يدى محمد . فألقى الشيخ عصاه ، وٱرتعد وقال : إن لٱبنكِ ربا لا يضيعه ، فٱطلبيه على مَهَل . فٱنحشرت قريش إلى عبد المطلب ، وطلبوه فى جميع مكة ، فلم يجدوه . فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعا ، وتضرع إلى الله أن يردّه ، وقال :

يا ربِّ رُدَّ ولدى محمـدَا * ٱردده ربى وٱتخذ عندى يدا

يا رب إنْ محمـدٌ لم يُوجدا * فشمل قومى كلهـم تبدّدا

فسمعوا مناديا ينادى من السماء : معاشَر الناس لا تضِجوا ، فإن لمحمد ربا لا يخذله ولا يضيعه ، وإن محمدا بوادى تِهامة ، عند شجرة السَّمُر . فسار عبد المطلب هو وورقة بن نوفل ، فإذا النبيّ صلى الله عليه وسلم قائم تحت شجرة ، يلعب بالأغصان وبالورق . وقيل : « ووجدك ضالا » ليلة المعراج ، حين انصرف عنك جبريل وأنت لا تعرف الطريق ، فهداك إلى ساق العرش . وقال أبو بكر الورّاق وغيره : « ووجدك ضالا » : تحب أبا طالب ، فهداك إلى محبة ربك . وقال بسام بن عبدالله : « ووجدك ضالا » بنفسك لا تدرى من أنت ، فعرفك بنفسك وحالك . وقال الجنيدى : ووجدك متحيرا فى بيان الكتاب ، فعلمك البيان ؛ بيانه : « لِتبين للناس ما نُزِّل إليهم »(١) ... الآية . « لِتبين لهم الذى ٱختلفوا فيه »(٢) . وقال بعض المتكلمين : إذا وجدت العرب شجرة منفردة فى فلاة من الأرض ، لا شجر معها ، سموها ضالة ، فيهتدى بها إلى الطريق ؛ فقال الله تعالى

(١) آية ٤٤ سورة النحل .
(٢) آية ٦٤ سورة النحل .

لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « ووجدك ضالًّا » أى لا أحد على دينك، وأنت وحيد ليس معك أحد، فهديتُ بك الخلقَ إلىّ .

قلت : هــذه الأقوال كلها حِسان، ثم منها ما هو معنوىّ، ومنها ما هو حِسىّ . والقول الأخير أعجب إلىّ ؛ لأنه يجمع الأقوال المعنوية . وقال قوم : إنه كان على جملة ما كان القوم عليــه ، لا يُظهر لهم خلافا على ظاهر الحال ؛ فأما الشرك فلا يُظَنُّ به ؛ بل كان على مراسم القوم فى الظاهر أربعين سنة . وقال الكلبىّ والسدّى : هذا على ظاهره ؛ أى وجدك كافرا والقوم كفار فهداك[1] . وقد مضى هذا القول والردّ عليه فى سورة « الشورى »[2] . وقيل : وجدك مغمورا بأهل الشرك، فميزك عنهم . يقال : ضل المـاء فى اللبن ؛ ومنه « أئِذا ضَلَلْنا فِى الأرضِ »[3] أى لحقنا بالتراب عند الدفن، حتى كأنا لا نتميز من جملته . وفى قراءة الحسن « ووجدك ضالٌّ فهدى » أى وجدك الضال فاهتدى بك ؛ وهذه قراءة على التفسير . وقيل : « ووجدك ضالا » لا يهتدى إليك قومك، ولا يعرفون قدرك ؛ فهدى المسلمين إليك، حتى آمنوا بك .

قوله تعالى : وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾

أى فقيرا لا مال لك . ﴿فأغنى﴾ أى فأغناك بخديجة رضى الله عنها ؛ يقال : عال الرجل يعيل عَيلة : إذا افتقر . وقال أُحَيحة بن الجُلاح :

فمـا يَــدْرِى الفقــيرُ متى غِنـاهُ * وما يــدْرِى الغــنِىّ مــتى يَعِيــل

أى يفتقر . وقال مقاتل : فرضّاك بمـا أعطاك من الرزق . وقال الكلبىّ : قنعك بالرزق . وقال ابن عطاء : ووجدك فقير النفس ، فأغنى قلبك . وقال الأخفش : وجدك ذا عيال ؛ دليله « فأغنى » . ومنه قول جرير :

اللهُ أنزلَ فى الكتاب فريضــةً * لابْــنِ السبيل ولِلْفقير العائل

---

(١) مثل هذه الأقوال لا يصح نسبتها إلى سـيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه ، ولا لأحد من الأنبياء ؛ لأن العصمة ثابتة لهم قبل النبوّة و بعدها ، من الكبائر والصغائر على الصحيح . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٥٥ فما بعدها .
(٣) آية ١٠ سورة السجدة .

وقيل : وجدك فقيرا من الحُجَج والبراهين، فأغناك بها . وقيل : أغناك بما فتح لك من الفتوح، وأفاءه عليك من أموال الكفار . القشيري : وفي هذا نظر؛ لأن السورة مكية، وإنما فرض الجهاد بالمدينة .

وقراءة العامة « عائلا » . وقرأ ابن السميقع « عَيِّلا » بالتشديد؛ مثل طيب وهين .

قوله تعالى : فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿فأَمَّا اليتيمَ فلا تَقْهَرْ﴾ أي لا تَسَلَّطْ[1] عليه بالظلم، ادفع إليه حقه، واذكر يتمك؛ قاله الأخفش . وقيل : هما لغتان بمعنى . وعن مجاهد « فلا تقهر » فلا تَحْتَقِرْ . وقرأ النخعي والأشهب العُقَيلي « تَكْهر » بالكاف، وكذلك هو في مصحف ابن مسعود . فعلى هذا يحتمل أن يكون نهيا عن قهره، بظلمه وأخذ ماله . وخص اليتيم لأنه لا ناصر له غير الله تعالى؛ فغلّظ في أمره، بتغليظ العقوبة على ظالمه . والعرب تعاقب بين الكاف والقاف . النحاس : وهذا غلط، إنما يقال كَهَره : إذا اشتدّ عليه وغَلَّظ . وفي صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي، حين تكلم في الصلاة بردّ السلام، قال : فبأبي هو وأمي ! ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه — يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم — فوالله ما كَهَرَني، ولا ضربني، ولا شتمني ... الحديث . وقيل : القهر الغلبة . والكَهْر : الزجر .

الثانيــة — ودلت الآية على اللطف باليتيم، وبره والإحسان إليه؛ حتى قال قتادة : كن لليتيم كالأب الرحيم . وروِى عن أبي هريرة أن رجلا شكا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه؛ فقال : "إن أردت أن يلين، فامسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين" . وفي الصحيح عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أنا وكافل اليتيم له أو لغيره كهاتين" .

(١) في بعض نسخ الأصل : « لا تسطو » .

وأشار بالسبابة والوُسطى . ومن حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن اليتيم إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن ، فيقول الله تعالى لملائكته : يا ملائكتي ، من ذا الذي أبكى هذا اليتيم الذي غيبت أباه في التراب ، فتقول الملائكة ربنا أنت أعلم[1] ، فيقول الله تعالى لملائكته : يا ملائكتي ، اشهدوا أن من أسكته وأرضاه ؟ أن أرضيه يوم القيامة " . فكان ابن عمر إذا رأى يتيما مسح برأسه ، وأعطاه شيئا . وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من ضم يتيما فكان في نفقته، وكفاه مئونته، كان له حجابا من النار يوم القيامة ، ومن مسح برأس يتيم كان له بكل شعرة حسنة " . وقال أكثم ابن صَيفي : الأذلّاء أربعة : النمام، والكذاب، والمديون، واليتيم .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وأما السائلَ فلا تنهرْ ﴾ أي لا تزجره؛ فهو نهي عن إغلاظ القول . ولكن رُدّه ببذل يسير، أو ردّ جميل، واذكر فقرك؛ قاله قتادة وغيره . وروى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يمنعن أحدُكم السائلَ، وأن يعطيه إذا سأل، ولو رأى في يده قُلْبين[2] من ذهب " . وقال إبراهيم بن أدهم : نعم القوم السُّؤّال : يحملون زادنا إلى الآخرة . وقال إبراهيم النخعي : السائل بريد الآخرة، يجيء إلى باب أحدكم فيقول : هل تبعثون إلى أهليكم بشيء . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " رُدُّوا السائل ببذل يسير، أو ردّ جميل، فإنه يأتيكم من ليس من الإنس ولا من الجن، ينظر كيف صنيعكم فيما خولكم الله " . وقيل : المراد بالسائل هنا ، الذي يسأل عن الدِّين ؛ أي فلا تنهره بالغِلظة والجَفْوة ، وأجبه برفق ولين؛ قاله سفيان . قال ابن العربي : وأما السائل عن الدين فجوابه فرض على العالِم، على الكفاية ، كإعطاء سائل البِرّ سواء . وقد كان أبو الدرداء ينظر إلى أصحاب الحديث ، ويبسط رداءه لهم ، ويقول : مرحبا بأحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي حديث أبي هارون العَبْدي ، عن أبي سعيد الخُدْري[3] ، قال : كنا إذا أتينا أبا سعيد يقول : مَرْحَبًا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الناس لكم تَبَع

---

(١) كذا في الأصول ط ، ب ، ح ، ص . (٢) القلب (بضم وسكون) : السوار .
(٣) القائل هو أبو هارون العبدي .

وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا". وفي رواية "يأتيكم رجال مِن قِبل المشرق"... فذكره. و «اليتيم» و «السائل» منصوبان بالفعل الذى بعده؛ وحق المنصوب أن يكون بعد الفاء، والتقدير: مهما يكن من شيء فلا تقهر اليتيم، ولا تنهر السائل. وروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "سألت ربى مسئلة وددت أنى لم أسألها: قلت يا رب اتخذت إبراهيم خليلا، وكلمت موسى تكليما، وسخرت مع داود الجبال يسبحن، وأعطيت فلانا كذا؛ فقال عز وجل: ألم أجدك يتيما فآويتك؟ ألم أجدك ضالا فهديتك؟ ألم أجدك عائلا فأغنيتك؟ ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أوتك ما لم أُوتِ أحدا قبلك: خواتيمَ سورة البقرة، ألم أتخذك خليلا، كما اتخذت إبراهيم خليلا؟ قلت بلى يا رب".

الرابعة — قوله تعالى: ﴿وأما بِنعمةِ ربك فحدث﴾ أى انشر ما أنعم الله عليك بالشكر والثناء. والتحدث بنعم الله، والاعتراف بها شكر. وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد «وأما بنعمة ربك» قال بالقرآن. وعنه قال: بالنبوّة؛ أى بلغ ما أرسلت به. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، والحكم عام له ولغيره. وعن الحسن بن علىّ رضى الله عنهما قال: إذا أصبت خيرا، أو عملت خيرا، فحدّث به الثقة من إخوانك. وعن عمرو بن ميمون قال: إذا لقى الرجل من إخوانه من يثق به، يقول له: رزق الله من الصلاة البارحة كذا وكذا. وكان أبو فراس عبد الله بن غالب إذا أصبح يقول: لقد رزقنى الله البارحة كذا، قرأت كذا، وصليت كذا، وذكرت الله كذا، وفعلت كذا. فقلنا له: يا أبا فِراس، إن مثلك لا يقول هذا! قال يقول الله تعالى: «وأمّا بِنعمةِ ربك فحدث» وتقولون أنتم: لا تحدّث بنعمة الله! ونحوه عن أيوب السختِيانىّ وأبى رجاء العُطارِدِىّ رضى الله عنهم. وقال بكر بن عبد الله المُزَنِىّ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "من أُعطِى خيرا فلم يُرَ عليه، سمى بغيض الله، معاديا لنعم الله". وروى الشعبيّ عن النعمان بن بشير قال: قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "من لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس، لم يشكر الله، والتحدّث بالنعم شكر، وتركه كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب". وروى النسائى عن مالك بن نضلة الجُشَمِىّ قال: كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا، فرآنى رَثَّ الثياب فقال: "ألك مال؟" قلت:

نعم، يارسول الله، من كل المال. قال: "إذا آتاك الله مالا فلْيُرَ أثره عليك". وروى أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده".

فصل — يكبّر القارئ في رواية البزي عن ابن كثير — وقد رواه مجاهد عن ابن عباس، عن أبيّ بن كعب، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم — إذا بلغ آخر «والضحى» كبّر بين[1] كل سورة تكبيرة، إلى أن يختم القرآن، ولا يصل آخر السورة بتكبيره؛ بل يفصل بينهما بسكتة. وكأن المعنى في ذلك أن الوحي تأخر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أياما، فقال ناس من المشركين: قد ودعه صاحبه وقلاه؛ فنزلت هذه السورة فقال: "الله أكبر". قال مجاهد: قرأت على ابن عباس، فأمرني به، وأخبرني به عن أبيّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. ولا يكبّر في قراءة الباقين؛ لأنها ذريعة إلى الزيادة في القرآن.

قلت: القرآن ثبت نقلا متواترا سوره وآياته وحروفه؛ لا زيادة فيه ولا نقصان؛ فالتكبير على هذا ليس بقرآن. فإذا كان بسم الله الرحمن الرحيم المكتوب في المصحف بخط المصحف ليس بقرآن، فكيف بالتكبير الذي هو ليس بمكتوب. أما أنّه ثبت سنة بنقل الآحاد، فاستحبه ابن كثير، لا أنه أوجبه فخطأ من تركه. ذكر الحاكم أبو عبدالله محمد بن عبد الله الحافظ في كتاب «المستدرك» له على البخاري ومسلم: حدثنا أبو يحيي محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن يزيد، المقرئ الإمام بمكة، في المسجد الحرام، قال: حدثنا أبو عبد الله محمد بن علي بن زيد الصائغ، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن القاسم بن أبي بزة: سمعت عكرمة بن سليمان يقول: قرأت على إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين، فلما بلغت «والضحى» قال لي كبر عند خاتمة كل سورة حتى تختم، فإني قرأت على عبد الله بن كثير فلما بلغت «والضحى» قال: كبر حتى تختم. وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد، وأخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك، وأخبره ابن عباس أن أُبَيّ بن كعب أمره بذلك، وأخبره أُبَيّ بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره بذلك. هذا حديث صحيح ولم يخرجاه.

---

(١) كذا في الأصول، ولعل اللفظ (بعد) في مكان (بين).

سورة « ألم نشرح »

مكية فى قول الجميع . وهى ثمانى آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١)

شرح الصدر : فتحه ؛ أى ألم نفتح صدرك للإسلام . وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : ألم نُلين لك قلبك . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : قالوا يا رسول الله، أينشرح الصدر ؟ قال : " نعم وينفسح " . قالوا : يارسول الله، وهل لذلك علامة ؟ قال : " نعم التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود، والاعتداد للموت ، قبل نزول الموت". وقد مضى هذا المعنى فى « الزمر »(١) عند قوله تعالى : « أفمن شرح الله صدره للإسلامِ فهو على نورٍ من ربه » . وروى عن الحسن قال : « ألم نشرح لك صدرك» قال : مُلئ حكما وعلما . وفى الصحيح(٢) عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة — رجلٍ من قومه — أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " فبينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلا يقول : أحد الثلاثة(٣) فأُتيت بطَسْت من ذهب، فيها ماء زمزم، فشرح صدرى إلى كذا وكذا" قال قتادة قلت : مايعنى؟ قال : إلى أسفل بطنى، قال : " فاستخرِج قلبى، فغُسِل قلبى بماء زمزم، ثم أعيد مكانه ، ثم حُشِى إيمانا وحِكمة " . وفى الحديث قِصة . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " جاءنى ملكان فى صورة طائر ، معهما ماء وثلج ، فشرح أحدهما صدرى ، وفتح

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٧ (٢) وهذه رواية الترمذى فى كتاب التفسير . (٣) فى صحيح مسلم : «أحد الثلاثة بين الرجلين » روى أنه صلى الله عليه وسلم كان نائما معه حينئذ عمه حمزة بن عبد المطلب وابن عمه جعفر ابن أبى طالب . راجع شرح هذا الحديث فى صحيح مسلم (باب الإسراء) . وفى شرح القسطلانى فى كتاب بدء الخلق (باب ذكر الملائكة) .

الآخر بمنقاره فيه فغسله ". وفى حديث آخر قال : " جاءنى مَلَك فشق عن قلبى ، فاستخرج منه عذرة[١] ، وقال : قلبك وكيع ، وعيناك بصيرتان ، وأذناك سميعتان ، أنت محمد رسول الله ، لسانك صادق ، ونفسك مطمئنة ، وخلقك قُثَم ، وأنت قيم ". قال أهل اللغة : قوله " وكيع أى يحفظ ما يوضع فيه . يقال : سِقاء وكيع ؛ أى قوى يحفظ ما يوضع فيه . وٱستوكعتْ معدته ، أى قويت . وقوله " قُثَم " أى جامع . يقال : رجل قَثوم للخير ؛ أى جامع له . ومعنى « ألم نشرح » قد شرحنا ؛ الدليل على ذلك قوله فى النسْق عليه : « ووضعنا عنك وِزرك » ، فهذا عطف على التأويل ، لا على التنزيل ؛ لأنه لو كان على التنزيل لقال : ونضع عنك وِزرك . فدل هذا على أن معنى « ألم نشرح » : قد شرحنا . و « لم » جَحْد ، وفى الاسفهام طرف من الجحد ، وإذا وقع جحد ، رجع إلى التحقيق ؛ كقوله تعالى : « أليس الله بِأحكم الحاكمين »[٢] ومعناه : الله أحكم الحاكمين . وكذا « أليس الله بِكاف عبده »[٣] . ومثله قول جرير يمدح عبد الملك ابن مروان :

ألستم خيرَ من ركب المطايا * وأندى العالمين بطونَ راحِ

المعنى : أنتم كذا .

قوله تعالى : وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ ووضعنا عنك وِزْرَك ﴾ ، أى حططنا عنك ذنبك . وقرأ أنس « وحللنا ، وحَطَطْنَا » . وقرأ ابن مسعود : « وحللنا عنك وِقرك » . هذه الآية مثل قوله تعالى : « لِيغفِر لك الله ما تقدّم مِن ذنبِك وما تأخر »[٤] . قيل : الجميع كان قبل النبوّة . والوِزْر : الذنب ؛ أى وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية ؛ لأنه كان صلى الله عليه وسلم فى كثير من مذاهب قومه ، وإن لم يكن عبدَ صنما ولاوَثنا . قال قتادة والحسن والضحاك : كانت للنبيّ صلى الله عليه وسلم ذنوب أثقلته ؛ فغفرها الله له . ﴿ الذى أَنْقَض ظَهْرَك ﴾ أى أثقله حتى سمع

---

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل . وفى بعضها الآخر : « غدرة » بالغين المعجمة والدال المهملة . ولم نقف على هذا اللفظ لغير القرطبي . ولعله محرف عن (علقة) . (٢) آية ٨ سورة التين . (٣) آية ٣٦ سورة الزمر .
(٤) آية ٢ سورة الفتح .

نقيضه؛ أى صوته . وأهل اللغة يقولون : أنقض الحمل ظهر الناقة : إذا سمعت له صريرا من شدة الحمل . وكذلك سمعت نقيضَ الرّحل ؛ أى صريره . قال جميل :

وحتى تداعتْ بالنقيض حِبالُه * وهَمتْ بَوانِي زَوْرِه أن تَحطَّمَا

« بَوانِي زورِه » : أى أصول صدره . فالوِزر : الحمل الثقيل . قال المحاسبي : يعني ثِقل الوِزر لو لم يعف الله عنه . ﴿ الذى أنقضَ ظهرَك ﴾ أى أثقله وأوهنه . قال : وإنما وصفت ذنوب الأنبياء بهذا الثقل ، مع كونها مغفورة ، لشدّة اهتمامهم بها، وندمهم منها، وتحسرهم عليها . وقال السُّدّى : « ووضعنا عنك وِزرك » أى وحططنا عنك ثِقلك . وهى فى قراءة عبد الله ابن مسعود «وحططنا عنك وِقرْك»[1] . وقيل: أى حططنا عنك ثقل آثام الجاهلية. قال الحسين ابن الفضل : يعني الخطأ والسهو . وقيـل : ذنوب أمتك، أضافها إليه لاشتغال قلبه بها . وقال عبد العزيز بن يحيى وأبو عبيدة: خففنا عنك أعباء النبوّة والقيام بها، حتى لا تثقل عليك . وقيل : كان فى الابتداء يثقل عليه الوحى، حتى كاد يرمى نفسه من شاهق الجبل، إلى أن جاءه جبريل وأراه نفسه ؛ وأزيل عنـه ما كان يخاف من تغير العقل . وقيـل : عصمناك عن احتمال الوِزر، وحفظناك قبل النبوّة فى الأربعين من الأدناس ؛ حتى نزل عليك الوحى وأنت مطهر من الأدناس .

قوله تعالى : وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾

قال مجاهد : يعني بالتأذين . وفيه يقول حسان بن ثابت :

أَغَـرُّ عليـه للنبـوّة خـاتَمٌ * من الله مشهود يلوح ويُشْهـدُ

وضمّ الإله اسم النبيّ إلى اسمه * إذا قال فى الخمس المؤذنُ أَشْهدُ

ورُوِى عن الضحاك عن ابن عباس، قال : يقول له لا ذُكِرتُ إلا ذُكِرتَ معى فى الأذان، والإقامة والتشهد ، ويوم الجمعة على المنابر، ويوم الفطر، ويوم الأضحى : وأيام التشريق ،

---

(١) فى شواذ ابن خالويه : « وحططنا عنك وزرك » عن أنس بن مالك . « وحللنا وحططنا » جميعا عنه ، وعن ابن مسعود .

و يوم عرفة ، وعند الجمار ، وعلى الصفا والمروة ، وفى خطبة النكاح ، وفى مشارق الأرض ومغاربها . ولو أن رجلا عبد الله جل ثناؤه ، وصدّق بالجنة والنار وكل شيء ، ولم يشهد أن محمدا رسول الله ، لم ينتفع بشيء وكان كافرا . وقيل : أى أعلينا ذكرك ، فذكرناك فى الكتب المنزلة على الأنبياء قبلك ، وأمرناهم بالبشارة بك ، ولا دِين إلا ودِينك يظهر عليه . وقيل : رفعنا ذكرك عند الملائكة فى السماء ، وفى الأرض عند المؤمنين ، ونرفع فى الآخرة ذكرك بما نعطيك من المقام المحمود ، وكرائم الدرجات .

قوله تعالى : فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾

أى إن مع الضّيقة والشدّة يسرا ، أى سعة وغِنى . ثم كرر فقال : ﴿ إِنَّ مَعَ العسرِ يُسرًا ﴾ ، فقال قوم : هذا التكرير تأكيد للكلام ؛ كما يقال : اِرمِ اِرمِ ، اِعجَلْ اعجَلْ ؛ قال الله تعالى : « كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون »(1) . ونظيره فى تكرار الجواب : بَلَى بلَى ، لا ، لا . وذلك للإطناب والمبالغة ؛ قاله الفرّاء . ومنه قول الشاعر :

هَممتُ بنفسِىَ بعضَ الهموم * فأولَى لنفسىَ أولَى لها(2)

وقال قوم : إن من عادة العرب إذا ذكروا اسما معرّفا ثم كرّروه ، فهو هو . و إذا نكّروه ثم كرّروه فهو غيره . وهما اثنان ، ليكون أقوى للأمل ، وأبعث على الصبر ؛ قاله ثعلب . وقال ابن عباس : يقول الله تعالى خلقت عُسْرا واحدا ، وخلقت يُسْرين ، ولن يغلب عسر يسرين . وجاء فى الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى هذه السورة : أنه قال : " لن يغلب عسر يسرين " . وقال ابن مسعود(3) : والذى نفسى بيده ، لو كان العسر فى حَجَر ، لطلبه اليسر حتى يدخل عليه ؛ ولن يغلب عسر يسرين . وكتب أبو عبيدة بن الجرّاح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعا من الروم ، وما يُتخوف منهم ؛ فكتب إليه عمر رضى الله عنهما : أما بعد ، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من مَنزِلِ شِدّة ، يجعل الله بعده فرجا ، و إنه لن يغلب عسر يسرين ، و إن الله تعالى يقول فى كتابه : « ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا

(1) آية ٣ سورة التكاثر . (2) البيت للخنساء . ويروى : * هممت بنفسى كل الهموم *
(3) أى فى روايته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

واتقوا الله لعلكم تفلِحون »[١] . وقال قوم منهم الجُرْجانيُّ : هذا قول مدخول ؛ لأنه يجب على هذا التدريج إذا قال الرجل : إن مع الفارس سيفا ، إن مع الفارس سيفا ، أن يكون الفارس واحدا والسيف اثنان . والصحيح أن يقال : إن الله بعث نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم مُقِلًّا مُخِفًّا ، فعيره المشركون بفقره ، حتى قالوا له : نجمع لك مالا ؛ فاغتم وظنّ أنهم كذبوه لفقره ؛ فعزّاه الله ، وعدد نعمه عليه ، ووعده الغنى بقوله : « فإنّ مع العسرِ يسرا » أى لا يحزنك ما عيروك به من الفقر ؛ فإن مع ذلك العسرِ يسرا عاجلا ؛ أى فى الدنيا . فأنجز له ما وعده ؛ فلم يمت حتى فَتَح عليه الحجاز واليمن ، ووسَّع ذات يده ، حتى كان يعطى الرجل المائتين من الإبل ، ويهب الهبات السنية ، ويُعِدّ لأهله قوت سنة . فهذا الفضل كله من أمر الدنيا ؛ وإن كان خاصا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقد يدخل فيه بعض أمته إن شاء الله تعالى . ثم ابتدأ فضلا آخرا من الآخرة وفيه تأسية وتعزية له صلى الله عليه وسلم ، فقال مبتدئا : « إنّ مع العسرِ يسرا » فهو شيء آخر . والدليل على ابتدائه ، تعرّيه من فاء أو واو أو غيرها من حروف النّسق التى تدل على العطف . فهذا وعد عام لجميع المؤمنين ، لا يخرج أحد منه ؛ أى إن مع العسر فى الدنيا للمؤمنين يسرا فى الآخرة لا محالة . وربما اجتمع يسر الدنيا ويسر الآخرة . والذى فى الخبر : "لن يغلب عسر يسرين" يعنى العسر الواحد لن يغلبهما ، وإنما يغلب أحدهما إن غلب ، وهو يسر الدنيا ؛ فأما يسر الآخرة فكائن لامحالة ، ولن يغلبه شيء . أو يقال : «إن مع العسر» وهو إخراج أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة «يسرا» ، وهو دخوله يوم فتح مكة مع عشرة آلاف رجل ، مع عِزٍ وشرف .

قوله تعالى : فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿فإذا فَرغتَ﴾ قال ابن عباس وقتادة : فإذا فرغت من صلاتك ﴿ فٱنصَبْ ﴾ أى بالغ فى الدعاء وسله حاجتك . وقال ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض

---

(١) آية سورة آل عمران .

فانصَبْ فى قيام الليل . وقال الكلبيّ : إذا فرغت من تبليغ الرسالة « فانصَب » أى آستغفر لذنبك وللؤمنين والمؤمنات . وقال الحسن وقتادة أيضا : إذا فرغت من جهاد عدوك ، فانصب لعبادة ربك . وعن مجاهد : « فإذا فرغت » من دنياك، «فآنصب» فى صلاتك . ونحوه عن الحسن . وقال الجنيد : إذا فرغت من أمر الخلق، فاجتهد فى عبادة الحق. قال آبن العربى : « ومن المبتدعة من قرأ هذه الآية « فانْصِب » بكسر الصاد، والهمْز[1] من أوله ، وقالوا : معناه : انصِب الإمام الذى تستخلفه . وهذا باطل فى القراءة، باطل فى المعنى؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يستخلف أحدا . وقرأها بعض: الجهال «فانْصَبَّ» بتشديد الباء، معناه : إذا فرغت من الجهاد ، فجِدَّ فى الرجوع إلى بلدك . وهذا باطل أيضا قراءة ، لمخالفة الإجماع، لكن معناه صحيح؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: " السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدَكم نومَه وطعامه وشرابه ، فإذا قضى أحدكم نَهْمَته، فليعجل الرجوع إلى أهله " . وأشدّ الناس عذابا وأسوأهم مباء ومآبا ، من أخذ معنى صحيحا ، فركب عليه مِن قِبـل نفسه قراءة أو حديثا ، فيكون كاذبا على الله ، كاذبا على رسوله ؛ ومن أظلم ممن آفترى على الله كذبا » .

قال المهدويّ : وروى عن أبى جعفر المنصور : أنه قرأ « ألم نشرحَ لك صدرك » بفتح الحاء؛ وهو بعيد، وقد يؤوّل على تقدير النون الخفيفة، ثم أبدلت النون ألفا فى الوقف، ثم حُمِل الوصل على الوقف ، ثم حذف الألف . وأنشد عليه :

اضْرِبَ عنك الهمومَ طارِقَها　*　ضربك بالسوط قَوْنَس الفَرَسِ[2]

أراد : اضرِبْن . ورُوى عن أبى السَّمال « فإذا فرِغت » بكسر الراء ، وهى لغة فيه . وقرئ « فرغِّب » أى فرغب الناس إلى ما عنده .

الثانية ــ قال آبن العربىّ : « روى عن شُرَيح أنه مر بقوم يلعبون يوم عِيد، فقال ما بهذا أمر الشارع . وفيه نظر، فإن الحَبَش كانوا يلعبون بالدّرق والحراب فى المسجد يوم

(١) أى همز الوصل لا القطع ، لأن ماضيه ثلاثى : (نصب ينصب) .
(٢) قونس الفرس : ما بين أذنيه . وقيل مقدم رأسه . والبيت لطرفة ، و يقال إنه مصنوع عليه .

العيد، والنبي صلى الله عليه وسلم ينظر . ودخل أبو بكر فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة رضى الله عنها وعندها جاريتان من جوارى الأنصار تغنيان؛ فقال أبو بكر : أبمزمور الشيطان فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال : " دعهما يا أبا بكر، فإنه يوم عيد " . وليس يلزم الدءوب على العمل، بل هو مكروه للخلق » .

تفسير سورة « والتين »

مكية فى قول الأكثر . وقال ابن عباس وقتادة : هى مدنية ، وهى ثمانى آيات .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ والتينِ والزيتونِ ﴾ قال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وإبراهيم النخعي وعطاء بن أبى رباح وجابر بن زيد ومقاتل والكلبي : هو تينكم الذى تأكلون، وزيتونكم الذى تعصرون منه الزيت؛ قال الله تعالى : « وشجرةً تخرج مِن طورِ سَيْناء تَنْبُتُ بِالدُّهنِ وصِبْغٍ لِلآكِلِين »[1] . وقال أبو ذر : أُهدِى للنبي صلى الله عليه وسلم سَلُّ تِين؛ فقال : " كلوا " وأكل منه . ثم قال : " لو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة، لقلت هذه، لأن فاكهة الجنة بلا عَجَم[2] ، فكلوها فإنها تقطع البواسِير ، وتنفع من النِّقْرِس " . وعن معاذ : أنه استاك بقضيب زيتون ، وقال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " نِعم السواك الزيتون ! من الشجرة المباركة، يطيب الفم، و يذهب بالحفر[3]، وهى سِواكى وسواك الأنبياءِ مِن قبلى " .

وروى عن ابن عباس أيضا : التين : مسجِد نوح عليه السلام الذى بُنِى على الجودى ، والزيتون : مسجد بيت المقدس . وقال الضحاك : التين : المسجد الحرام، والزيتون المسجد

---

(١) آية ٢٠ سورة المؤمنون . (٢) العجم (بالتحريك) : النوى .
(٣) الحفر (بفتح الحاء وسكون الفاء وفتحها) : صفرة تعلو الأسنان .

الأقصى . آبن زيد : التين : مسجد دمشق ، والزيتون : مسجد بيت المقدس . قتادة : التين : الجبل الذى عليه دمشق : والزيتون : الجبل الذى عليه بيت المقدس . وقال محمد بن كعب : التين : مسجد أصحاب الكهف ، والزيتون : مسجد إيلياء . وقال كعبُ الأحبارِ وقتادة أيضا وعكرمة وآبن زيد : التين : دمشق ، والزيتون : بيت المقدس . وهـذا اختيار الطبرى . وقال الفراء : سمعت رجلا من أهل الشام يقول : التين : جبال ما بين حُلْوان إلى هَمَذان ، والزيتون : جبال الشام . وقيل : هما جبلان بالشام ، يقال لهما طور زيتا وطور تِينا (بالسريانية) سميا بذلك لأنهما ينبتانهما . وكذا روى أبو مِكين عن عكرمة ، قال : التين والزيتون : جبلان بالشام . وقال [النابغة] :

* ... أَتَيْنَ التِّينَ عَنْ عُرُضٍ[1] *

وهذا آسم موضع . و يجوز أن يكون ذلك على حذف مضاف ؛ أى ومنابت التين والزيتون . ولكن لا دليل على ذلك من ظاهر التنزيل ، ولا من قول من لا يجوز خلافه ؛ قاله النحاس .

الثانيـة — أصح هذه الأقوال الأول ؛ لأنه الحقيقة ، ولا يُعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا بدليل . وإنمـا أقسم الله بالتين ، لأنه كان سِتر آدم فى الجنة ؛ لقوله تعـالى : « يخصِفان عليهما مِن ورقِ الجنةِ »[2] وكان ورق التين . وقيـل : أقسم به ليبين وجه المِنة العظمى فيه ؛ فإنه جميل المنظر ، طيب المخبَر ، نَشِر[3] الرائحة ، سهل الجَنْى ، على قدر المضغة . وقد أحسن القائل فيه :

انظر إلى التين فى الغصون ضُحًى * ممـزق الجـلد مائل العُنُقِ

كأنه ربّ نِعمـةٍ سُلِبت * فعاد بعـد الجديد فى الخَلَقِ

أصـغر ما فى النهـود أكبره * لَكِنْ يُنَادَى عليـه فى الطرقِ

(١) البيت بتمامه كما فى كتاب الملاحن لابن دريد وشعراء النصرانية :

صهب الظلال أتين التين عن عرض * يزجين غـيما قليـلا ماؤه شـبما

والصهب والصهبة : الحمـرة . والعرض : الاعتراض ، أو الجانب . ويزجين : يسقن . والشبم ، البارد . والبيت فى وصف سحائب لا ماء فيها . وقد نسبه المؤلف لزهير .

(٢) آية ٢٢ سورة الأعراف .

(٣) كذا فى الأصول ، ولم نجده فى معاجم اللغة .

وقال آخر :

التين يعدل عندى كل فاكهة * إذا آنثنى مائلا فى غصنه الزاهى
مُخَمَّش الوجه قد سالت حلاوته * كأنه راكع من خشية الله

وأقسم بالزيتون لأنه مَثَّل به إبراهيم فى قوله تعالى : « يوقد من شجرة مباركة زيتونة »[(١)] . وهو أكثر أُدُم أهل الشام والمغرب ، يصطبغون به[(٢)] ، ويستعملونه فى طبيخهم ، ويستصبحون به ، ويداوى به أدواء الجوف والقروح والجراحات ، وفيه منافع كثيرة . وقال عليه السلام : "كلوا الزيت وآدهنوا به فإنه من شجرة مباركة"[(٣)] . وقد مضى فى سورة «المؤمنون» القول فيه .

الثالثة — قال آبن العربى : ولآمتنان البارئ سبحانه ، وتعظيم المِنة فى التين ، وأنه مُقتات مدخر [فلذلك][(٤)] قلنا بوجوب الزكاة فيه . وإنما فر كثير من العلماء من التصريح بوجوب الزكاة فيه ، تقية جور الولاة ، فإنهم يتحاملون فى الأموال الزكاتية ، فيأخذونها مغرما ، حَسْب ما أنذر به الصادق صلى الله عليه وسلم . فكره العلماء أن يجعلوا لهم سبيلا إلى مال آخر يتشططون فيه ، ولكن ينبغى للمرء أن يَخرج عن نعمة ربه ، بأداء حقه . وقد قال الشافعى لهذه العلة وغيرها : لا زكاة فى الزيتون . والصحيح وجوب الزكاة فيهما[(٥)] .

قوله تعالى : وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾

روى آبن أبى نجيح عن مجاهد «وطور» قال : جبل . «سِينِين» قال : مبارك (بالسريانية) . وعن عكرمة عن آبن عباس قال : « طور » جبل ، و «سينين» حسن . وقال قتادة : سينين هو المبارك الحسن . وعن عكرمة قال : الجبل الذى نادى الله جل ثناؤه منه موسى عليه السلام . وقال مقاتل والكلبى : « سينين » كل جبل فيه شجر مثمر ، فهو سِينين وسِيناء ، بلغة النَّبَط . وعن عمرو بن ميمون قال : صليت مع عمر بن الخطاب العشاء بمكة ، فقرأ « والتين والزيتون .

(١) آية ٣٥ سورة النور . راجع جـ ١٢ ص ٢٦٣ . (٢) أى يأتدمون به .
(٣) راجع جـ ١٢ ص ١١٦ . (٤) زيادة عن آبن العربى .
(٥) فى نسخ الأصل : « فيها » .

وطور سيناء . وهذا البلد الأمين » قال : وهكذا هي في قراءة عبد الله؛ ورفع صوته تعظيما للبيت . وقرأ في الركعة الثانية : « ألم تر كيف فعل ربك » و « لإيلاف قريش » جمع بينهما . ذكره ابن الأنباري . النحاس : وفي قراءة عبد الله «سيناء» (بكسر السين)، وفي حديث عمرو بن ميمون عن عمر (بفتح السين) . وقال الأخفش : «طور» جبل . و«سينين» شجر، واحدته سينينة . وقال أبو علي : « سينين » فعليل ، فكررت اللام التي هي نون فيه ، كما كررت في زحليل : للمكان الزلق ، وكرديدة : للقطعة من التمر ، وخنذيذ : للطويل . ولم ينصرف «سينين» كما لم ينصرف سيناء؛ لأنه جعل آسما لبقعة أو أرض ، ولو جعل آسما للمكان أو للنزل أو آسم مذكر لآنصرف؛ لأنك سميت مذكرا بمذكر . وإنما أقسم بهذا الجبل لأنه بالشام والأرض المقدسة، وقد بارك الله فيهما؛ كما قال : « إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله » .

قوله تعالى : وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾

يعني مكة . سماه أمينا لأنه آمن؛ كما قال : « أنا جعلنا حرما آمنا[1] » فالأمين : بمعنى الآمن؛ قاله الفراء وغيره . قال الشاعر :

أَلَمْ تَعْلَمِي يا أَسْمُ ويحكِ أنَّني　　حَلَفْتُ يَمِينًا لا أَخُونُ أَمِينِي

يعني : آمني . وبهذا احتج من قال : إنه أراد بالتين دمشق ، وبالزيتون بيت المقدس . فأقسم الله بجبل دمشق ، لأنه مأوى عيسى عليه السلام ، وبجبل بيت المقدس، لأنه مقام الأنبياء عليهم السلام ، وبمكة لأنها أثر إبراهيم ودار محمد صلى الله عليهما وسلم .

قوله تعالى : لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خلقنا الإنسان ﴾ هذا جواب القسم ، وأراد بالإنسان : الكافر . قيل : هو الوليد بن المغيرة . وقيل : كلدة بن أسيد . فعلى هذا نزلت في منكري

(١) آية ٦٧ سورة العنكبوت .

البعث . وقيـل : المراد بالإنسان آدم وذريته . ﴿ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ وهو اعتداله واستواء شبابه ؛ كذا قال عامة المفسرين. وهو أحسن ما يكون ؛ لأنه خلق كل شيء مُنْكَبًا على وجهه ، وخلقه هو مستويا ، وله لسان ذَلِق ، ويد وأصابع يقبض بها . وقال أبو بكر بن طاهر : مزينا بالعقل ، مؤدِّيا للأمر ، مَهْدِيًّا بالتمييز ، مديد القامة ؛ يتناول ما كوله بيده . ابن العربي : « ليس لله تعـالى خلق أحسنُ من الإنسان ، فإن الله خلقه حيا عالما ، قادرا مريدا متكلما ، سميعا بصيرا ، مدبرا حكيما . وهذه صفات الرب سبحانه ، وعنها عبّر بعض العلماء ، ووقع البيان بقـوله : " إن الله خلق آدم على صُورته " يعني على صفاته التي قدمنا ذكرها . وفي رواية " على صورة الرحمن " ومن أين تكون للرحمن صورة متشخصة ، فلم يبق إلا أن تكون معاني » .

وقد أخبرنا المبارك بن عبد الجبار الأزدي قال : أخبرنا القاضي أبو القاسم علي بن أبي علي القاضي المحسِّن عن أبيـه قال : كان عيسى بن موسى الهاشمي يحب زوجته حبا شديدا فقال لها يوما : أنت طالق ثلاثا إن لم تكوني أحسن من القمر ؛ فنهضت واحتجبت عنه ، وقالت : طلقتني ! . وبات بليـلة عظيمة ، فلما أصبح غدا إلى دار المنصور ، فأخبره الخبر ، وأظهر للمنصور جزعا عظيما ؛ فاستحضر الفقهاء واستفتاهم . فقـال جميع من حضر : قد طلقت ؛ إلا رجلا واحدا من أصحاب أبي حنيفة ، فإنه كان ساكتا . فقال له المنصور : مالك لا تتكلم؟ فقال له الرجل : بسم الله الرحمن الرحيم « والتينِ والزيتونِ . وطورِ سِينِين . وهذا البلد الأمينِ . لقد خلقنا الإنسان في أحسنِ تقويمٍ » . يا أمير المؤمنين ، فالإنسان أحسن الأشياء ، ولا شيء أحسن منه . فقال المنصور لعيسى بن موسى : الأمر كما قال الرجل ، فأقبلْ على زوجتك . وأرسل أبو جعفر المنصور إلى زوجة الرجل : أن أطيعي زوجك ولا تعصيه ، فما طلقك .

فهذا يدلك على أنّ الإنسـان أحسن خلق الله باطنا وظاهرا ، جمـال هيئة ، وبديع تركيب : الرأس بمـا فيه ، والصدر بمـا جمعه ، والبطن بمـا حواه ، والفرج وما طواه ، واليدان وما بطشتاه ، والرجلان وما احتملتاه . ولذلك قالت الفلاسفة : إنه العالَم الأصغر ؛ إذ كل ما في المخلوقات جمع فيه[1] .

---

(١) في بعض نسخ الأصل وابن العربي : « أجمع فيه » .

الثانيــة ـــ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ أي إلى أرذل العمر، وهو الهَرَم بعد الشباب، والضعف بعد القوّة، حتى يصير كالصبيّ في الحال الأوّل؛ قاله الضحاك والكلبيّ وغيرهما . وروى ابن أبي نَجِيح عن مجاهد: «ثم رَدَدْناه أَسْفَلَ سافِلِينَ» إلى النار، يعني الكافر، وقاله أبو العالية . وقيل: لما وصفه الله بتلك الصفات الجليلة التي رُكِّب الإنسان عليها، طغى وعلا، حتى قال : «أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى»(١) وحين علم الله هـذا من عبده، وقضاؤه صادر من عنده، رَدَّه أسـفل سافلين؛ بأن جعله مملوءا قَذَرا، مشحونا نجاسـة، وأخرجها على ظاهره إخراجا منكرا، على وجه الاختيار تارة، وعلى وجه الغَلَبة أخرى، حتى إذا شاهد ذلك من أمره، رجع إلى قدره . وقرأ عبد الله «أسفلَ السّافلين» . وقال: «أسفل سافِلِين» على الجمع؛ لأن الإنسان في معنى جمع، ولو قال : أسفل سافلٍ جاز؛ لأن لفظ الإنسان واحد . وتقـول : هذا أفضل قائم . ولا تقول أفضل قائمين؛ لأنك تضمر لواحد، فإن كان الواحد غير مُضْمَر له، رجع آسمه بالتوحيد والجمع؛ كقوله تعالى: «والَّذِي جاءَ بِالصدقِ وصَدَّق بِهِ أولئكَ هُمُ المتَّقون»(٢). وقوله تعـالى : «وإِنَّا إذا أَذَقْنا الإنسانَ مِنَّـا رحمةً فَرِحَ بِها وإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ»(٣). وقد قيل: إن معنى «رَدَدْناه أَسْفَلَ سافلِينَ» أي رددناه إلى الضلال؛ كما قال تعالى : «إن الإنسان لفِي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات» أي إلا هؤلاء، فلا يردون إلى ذلك . والآستثناء على قول من قال «أسفلَ سافلِينَ» : النار، متصل . ومن قال : إنه الهَرَم فهو منقطع .

قوله تعـالى : إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ ﴾ فإنّه تكتب لهم حسناتهم، وتُمْحى عنهم سيئاتهم ؛ قاله ابن عباس . قال : وهم الذين أدركهم الكِبَر، لا يؤاخَذون بما عملوه في كِبرهم .

---

(١) آية ٢٤ سورة النازعات .	(٢) آية ٣٣ سورة الزمر .	(٣) آية ٤٨ سورة الشورى .

وروى الضحاك عنه قال : إذا كان العبد فى شبابه كثير الصلاة كثير الصيام والصدقة ، ثم ضَعُف عما كان يعمل فى شبابه ؛ أجرى الله عز وجل له ما كان يعمل فى شبابه . وفى حديث قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إذا سافَرَ العبدُ أو مَرِض كتبَ اللهُ له مثلَ ما كان يَعمَلُ مُقيما صحيحا " . وقيـل : « إلا الذين آمنـوا وعملوا الصالحات » فإنه لا يَخْرَف ولا يَهرم[(١)] ، ولا يذهب عقل من كان عالمـا عاملا به . وعن عاصم الأحول عن عكرمة قال : من قـرأ القرآن لم يرَدّ إلى أرذل العمر . وروى عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسـلم أنه قال : "طُوبَى لمن طال عمره وحسن عمله" . وروى : إن العبد المؤمن إذا مات أمر الله مَلَكيه[(٢)] أن يتعبدا على قبره إلى يوم القيامة، ويكتب له ذلك .

قوله تعـالى : ﴿ فلهمْ أجرٌ غيرُ مَمْنُونٍ ﴾ قال الضحاك : أجر بغير عمل . وقيل مقطوع .

قوله تعـالى : فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾

قيل : الخطاب للكافر ؛ توبيخـا وإلزاما للحجة . أى إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك فى أحسن تقويم، وأنه يردّك إلى أرذل العمر، وينقلك من حال إلى حال ؛ فمـا يحملك على أن تُكَذِّب بالبعث والجزاء، وقد أخبرك محمد صلى الله عليه وسلم به ؟ وقيل: الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم؛ أى استيقِنْ مع ما جاءك من الله عز وجل، أنه أحكم الحاكمين . رُوِى معناه عن قتادة . وقال قتادة أيضا والفرّاء: المعنى فمن يكذبك أيهـا الرسول بعد هـذا البيان بالدين . واختـاره الطبرى . كأنه قال : فمن يقـدر على ذلك ؛ أى على تكذيبك بالثـواب والعقاب، بعد ما ظهر من قدرتنا على خلق الإنسان والدِّين والجزاء . قال الشاعر :

دِنّا تميـما كما كانتْ أوائلُنـا * دانَتْ أوائلَهمْ فى سالف[(٣)] الزمنِ

---

(١) فى حاشية الجمل نقلا عن القرطبى : « فهم لا يخرفون ولا تذهب عقولهم » .

(٢) فى بعض نسخ الأصل : « ملائكة » وفى بعضها : « ملكين » .

(٣) فى تفسير الشوكانى ، طبعة مصطفى البابى الحلبى (٥ : ٤٠٢) : من سالف .

قوله تعالى : أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾

أى أتقن الحاكمين صنعا فى كل ما خلق . وقيل : « بأحكم الحاكمين » قضاء بالحق، وعدلا بين الخلق . وفيه تقدير لمن اعترف من الكفار بصانع قديم . وألف الاستفهام إذا دخلت على النفى وفى الكلام معنى التوقيف صار إيجابا ؛ كما قال :

* أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا (١) *

وقيل : « فما يُكَذِّبُكَ بعدُ بالدينِ . أليسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحاكِمِين » : منسوخة بآية السيف . وقيل : هى ثابتة ؛ لأنه لا تنافى بينهما . وكان ابن عباس وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما إذا قرأا « أليس الله بأحكم الحاكمين » قالا : بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين؛ فيختار ذلك . والله أعلم . ورواه الترمذى عن أبى هريرة قال : من قرأ سورة « والتين والزيتون » فقرأ « أليسَ اللهُ بأحكَمِ الحاكِمِينَ » فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين . والله أعلم .

سورة « العَلَق »

وهى مكية بإجماع ، وهى أول ما نزل من القرآن ، فى قول أبى موسى وعائشة رضى الله عنهما . وهى تسع عشرة آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾

هذه السورة أول ما نزل من القرآن، فى قول معظم المفسرين . نزل بها جبريل على النبىّ صلى الله عليه وسلم وهو قائم على حِراء، فعلمه خمسَ آيات من هذه السورة . وقيل : إن أول ما نزل « يأيها المُدَّثِّر » ، قاله جابر بن عبد الله ؛ وقد تقدم (٢) . وقيل : فاتحة الكتاب أول ما نزل؛ قاله أبو مَيْسَرة الهَمْدانىّ . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : أول ما نزل من القرآن

---

(١) من قصيدة لجرير يمدح عبد الملك بن مروان . وتمامه : * وأندى العالمين بطون راح *

(٢) راجع جـ ١٩ ص ٥٨ من الطبعة الأولى و جـ ١٩ ص ٥٩ من الطبعة الثانية .

« قلْ تعالَوْا أتْلُ ماحرَّم ربكم عليكم »[(١)] والصحيح الأوّل . قالت عائشــة : أوّل مابُدِئ به رســول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة[(٢)] ، فجاءه الملك فقال : « ٱقرأ بِاسم ربك الذى خلَق ، خلَق الإنسان مِن علَق . ٱقرأ وربُّك الأكرمُ » . خرجه البخاريّ .

وفى الصحيحين عنها قالت : أوّل مابدِئ به رســول الله صلى الله عليه وســلم من ٱلوَحْى الرؤيا الصادقة فى النوم ؛ فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مِثــل فَلَق الصبح ، ثم حُبِّب إليه الخلَاء ، فكان يخلو بغار حِراء، يتحنث[(٣)] فيه الليالىَ ذواتِ العدد ، [قبلَ أنْ يَرْجع إلى أهلِه][(٤)] ويتزوّد لذلك ؛ ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها ؛ حتى فجِئه الحقُّ وهو فى غار حِراء ، فجاءه الملك ، فقال : "ٱقرأ" : فقال : "ماأنا بقارئ — قال — فأخذنى فغطّنى[(٥)] ، حتى بلغ منى الجهدُ ثم أرسلنى"، فقال : "ٱقرأ" فقلت : « ماأنا بقارئ » . فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى" فقال : "ٱقرأ باسم ربك الذى خلَقَ . خلَقَ الإنسانَ مِن عَلَق . ٱقرأ وربك الأكرمُ . الذى علم بِالقلمِ . علم الإنسانَ مالم يعلم" الحديث بكماله . وقال أبو رجاء العُطارِدىّ : وكان أبو موسى الأشعرِىّ يطوف علينا فى هــذا المسجد : مسجدِ البصرة ، فيُقْعِدنا حِلَقا ، فيقرِئنا القرآن ؛ فكأنى أنظر إليه بين ثوبين له أبيضين ، وعنــه أخذت هذه السورة : « ٱقرأْ باسم ربك الذى خلَق » . وكانت أوّلَ سورة أنزلها الله على محمد صلى الله عليه وسلم . وروتْ عائشة رضى الله عنها أنها أوّل سورة أنزلت على رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، ثم بعدها « ن والقلم » ، ثم بعدها « يأيها المدثر » ثم بعدها « والضحى » ذكره المــاوردِىّ . وعن الزُّهرِىّ : أول مانزل سورة : « ٱقرأ باسم ربك — إلى قوله — مالم يعلم » ، فحزِن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل يعلو شواهق الجبال ، فأتاه جبريل فقال له : "إنك نبىُّ الله" فرجع إلى خديجة وقال : "دَثِّرونى وصُبُّوا علىّ ماء باردا"، فنزل « يأيها المدّثر » .

---

(١) آية ١٥١ سورة الأنعام . (٢) كذا فى الأصول ومسلم . وفى البخارى : « الصالحة » .

(٣) يتحنث : أى يتعبد . يقال : فلان يتحنث ، أى يفعل فعلا يخرج به من الإثم والحرج .

(٤) زيادة عن الصحيحين . (٥) الغط : العصر الشديد والكبس .

ومعنى « آقرأ باسم ربك » أى آقرأ ما أنزل إليك من القرآن مفتتحا باسم ربك ، وهو أن تذكر التسمية فى ابتداء كل سورة . فمحل الباء من « باسم ربك » النصب على الحال . وقيل : الباء بمعنى على ، أى آقرأ على آسم ربك . يقال : فعل كذا باسم الله ، وعلى آسم الله . وعلى هذا فالمقروء محذوف، أى آقرأ القرآن، وافتتحه باسم الله . وقال قوم: آسم ربك هو القرآن ، فهو يقول « آقرأ باسم ربك » أى اسمَ ربك ، والباء زائدة ؛ كقوله تعالى « تَنْبُتُ بِالدُّهنِ » ، وكما قال :

* سُودُ المَحاجِرِ لا يَقْرَأْنَ بالسُّوَرِ (١) *

أراد : لا يقرأن السور . وقيل : معنى « اقرأ باسم ربك » أى آذكر آسمه . أمره أن يبتدئ القراءة باسم الله .

قوله تعالى : خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الإنسانَ ﴾ يعنى آبن آدم . ﴿ مِنْ عَلَقٍ ﴾ أى من دمٍ؛ جمع عَلَقة، والعلقة الدّم الجامد ؛ وإذا جرى فهو المسفوح . وقال : « مِنْ عَلَق » فذكره بلفظ الجمع ؛ لأنه أراد بالإنسان الجمع ، وكلهمْ خُلِقوا من عَلَق بعد النطفة. والعَلَقة : قطعة من دمٍ رَطْب، سميت بذلك لأنها تعلَق لرطوبتها بما تَمُرّ عليه ، فإذا جفت لم تكن عَلَقة . قال الشاعر :

تركناه يَخِر على يديه * يمج عليهما عَلَق الوَتِينِ

وخَصّ الإنسانَ بالذكر تشريفا له . وقيل : أراد أن يبين قدرَ نعمته عليه ، بأن خلقه من علقة مَهينة، حتى صار بشرا سَوِيًّا ، وعاقلا مميزا .

قوله تعالى : ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ اقرأْ ﴾ تأكيد، وتم الكلام، ثم استأنف فقال : ﴿ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ أى الكريم . وقال الكلبيّ : يعنى الحليم عن جهل العباد، فلم يُعَجِّل بعقوبتهم . والأول أشبه

(١) هذا عجز بيت للراعى ، وصدره :	* هنّ الحرائر لا ربات أخمرة *

بالمعنى ، لأنه لما ذكر ما تقدّم من نعمه ، دلّ بها على كرمه . وقيل : « إقرأ وربك » أى اقرأ يا محمد وربك يعينك ويفهمك ، وإن كنت غير القارئ . و « الأكرم » بمعنى المتجاوز عن جهل العباد .

قوله تعالى : ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ الذِى علّمَ بِالقلم ﴾ يعنى الخط والكتابة ؛ أى علم الإنسان الخط بالقلم . وروَى سعيد عن قتادة قال : القلم نعمة من الله تعالى عظيمة ، لولا ذلك لم يقم دِين ، ولم يصلُح عيش . فدل على كمال كرمه سبحانه ، بأنه عَلَّمَ عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، ونبَّه على فضل علم الكتابة ، لما فيه من المنافع العظيمة ، التى لا يحيط بها إلا هو . وما دُوِّنت العلوم ، ولا قُيِّدت الحِكم ، ولا ضبطت أخبار الأوّلين ومقالاتهم ، ولا كتبُ الله المُنْزَلة إلا بالكتابة ؛ ولولاهى ما آستقامت أمور الدين والدنيا . وسُمِّى قلما لأنه يُقْلَم ؛ أى يُقطع ، ومنه تقليم الظفر . وقال بعض الشعراء المُحْدَثِين يصف القلم :

فكأنه والحِبْرُ يخضِبُ رأسَهُ * شيخٌ لوصل خَرِيدةٍ يتصنَّعُ
لِمَ لا[1] أُلاحظه بعين جَلالة * وبه إلى الله الصحائفُ ترفعُ

وعن عبد الله بن عمر قال : يا رسول الله ، أأكتب ما أسمع منك من الحديث ؟ قال : " نعم فاكتب ، فإن الله علّم بالقلم " . وروى مجاهد عن أبى عمر قال : خلق الله عز وجل أربعة أشياء بيده ، ثم قال لسائر الحيوان : كن فكان : القلم ، والعَرْش ، وجنة عَدْن ، وآدم عليه السلام . وفيمن علمه بالقلم ثلاثة أقاويل : أحدها — أنه آدم عليه السلام ؛ لأنه أوّل من كتب ، قاله كعب الأحْبار . الثانى — أنه إدريس ، وهو أول من كتب . قاله الضحاك . الثالث : أنه أدخل كل من كتب بالقلم ؛ لأنه ما عَلِم إلا بتعليم الله سبحانه ، وجمع بذلك نعمته عليه فى خَلْقه ، وبين نعمته عليه فى تعليمه ؛ استكمالا للنعمة عليه .

(١) فى الأصول : (ألا) فى موضع (لم لا) ، ولعله تحريف .

الثانية — صح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هُريرة، قال: لما خلق الله الخلق كتب في كتابه — فهو عنده فوق العرش —: «إن رحمتي تغلب غضبي». وثبت عنه عليه السلام أنه قال: "أوّلُ ما خلق الله: القلمُ، فقال له اكتب، فكتب ما يكون إلى يوم القيامة، فهو عنده في الذكر فوق عرشه". وفي الصحيح من حديث ابن مسعود: [أنه](١) سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكا فصوّرها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها، ثم يقول، يا رب، أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب المَلَك ثم يقول: يارب أَجَلَه، فيقول ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يقول يارب رزقَه، ليقضي ربك ما شاء، ويكتب المَلَك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده، فلا يزيد على ما أُمر ولا ينقص، وقال تعالى «إنّ عليكُمْ لحَافظِينَ. كِراما كاتبين»(٢)".

قال علماؤنا: فالأقلام في الأصل ثلاثة: القلم الأول — الذي خلقه الله بيده، وأمره أن يكتب. والقلم الثاني — أقلام الملائكة، جعلها الله بأيديهم يكتبون بها المقادير والكوائن والأعمال. والقلم الثالث — أقلام الناس، جعلها الله بأيديهم، يكتبون بها كلامهم، ويصلون بها مآربهم. وفي الكتابة فضائل جمة. والكتابة من جملة البيان، والبيان مما اختص به الآدميّ.

الثالثة — قال علماؤنا: كانت العرب أقل الخلق معرفة بالكتاب، وأقل العرب معرفة به المصطفى صلى الله عليه وسلم؛ صُرِف عن علمه، ليكون ذلك أثبت لمعجزته، وأقوى في حجته، وقد مضى هذا مبينا في سورة «العنكبوت»(٣). وروى حمّاد بن سَلَمة عن الزبير بن عبد السلام، عن أيوب بن عبد الله الفهري، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تُسْكِنوا نساءكم الغُرَف، ولا تعلموهن الكتابة". قال علماؤنا: وإنما حذرهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك، لأن في إسكانهن الغُرَف تطلعا إلى الرجل؛ وليس في ذلك تحصين لهنّ ولا تستر. وذلك أنهنّ لا يملكن أنفسهنّ حتى يشرفن على الرجل؛ فتحدثَ الفتنة والبلاء؛ فحذرهم أن يجعلوا لهن غُرَفا ذريعة إلى الفتنة.

(١) زيادة لتكملة العبارة. (٢) آية ١٠ سورة الانفطار. (٣) راجع جـ ١٣ ص ٣٥١

وهو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس للنساء خيرٌ لهنّ من ألا يراهنّ الرجال، ولا يرين الرجال" . وذلك أنها خُلقت من الرجل ، فنهمتُها فى الرجل، والرجل خلقت فيه الشهوة ، وجُعلت سكنا له ، فغير مأمون كل واحد منهما فى صاحبه . وكذلك تعليم الكتابة ربما كانت سببا للفتنة ، وذلك إذا عُلِّمتِ الكتابة كتبت إلى من تَهوَى . والكتابة عين من العيون، بها يبصر الشاهد الغائب، والخط هو آثار يده . وفى ذلك تعبير عن الضمير بما لا ينطلق به اللسان ، فهو أبلغ من اللسان . فأحب رسوله الله صلى الله عليه وسلم أن ينقطع عنهنّ أسباب الفتنة، تحصينا لهنّ ، وطهارة لقلوبهنّ .

قوله تعالى : عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

قيل : «الإنسان» هنا آدم عليه السلام . علمه أسماء كل شىء؛ حسب ما جاء به القرآن فى قوله تعالى : «وعلم آدم الأسماء كلها»(١) . فلم يبق شىء إلا وعلّم سبحانه آدمَ اسمَه بكل لغة، وذكره آدم للملائكة كما عُلِّمه. وبذلك ظهر فضله ، وتبيّن قدره، وثبتت نبوّته، وقامت حجة الله على الملائكة وحجتُه ، وآمتثلت الملائكة الأمر لِمَا رأت من شرف الحال ، ورأت من جلال القدرة ، وسمعت من عظيم الأمر . ثم توارثت ذلك ذريته خلفا بعد سلف ، وتناقلوه قوما عن قوم . وقد مضى هذا فى سورة « البقرة »(٢) مستوفًى والحمد لله . وقيل : « الإنسان » هنا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ؛ دليله قوله تعالى : « وعلّمك ما لم تكُنْ تعلم »(٣). وعلى هذا فالمراد بـ « علّمك »(٤) المستقبل؛ فإن هذا من أوائل ما نزل . وقيل :هو عام لقوله تعالى : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً »(٥) .

قوله تعالى : كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى ﴾ إلى آخر السورة . قيل : إنه نزل

---

(١) آية ٣١ سورة البقرة . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٧٩ طبعة ثانية (٣) آية ١١٣ سورة النساء.
(٤) فى نسخة : المشكل . (٥) آية ٧٨ سورة النحل .

فى أبى جهل . وقيل : نزلت السورة كلها فى أبى جهل ؛ نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الصلاة ؛ فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصلى فى المسجد ويقرأ باسم الرب . وعلى هذا فليست السورة من أوائل ما نزل . ويجوز أن يكون خمس آيات من أولها أوّل ما نزلت ، ثم نزلت البقية فى شأن أبى جهل ، وأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بضم ذلك إلى أوّل السورة؛ لأن تأليف السوَر جرى بأمر من الله. ألا ترى أن قوله تعالى : « وآتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله »(1) آخرُ ما نزل ، ثم هو مضموم إلى ما نزل قبله بزمان طويل . و « كَلّا » بمعنى حَقًّا ؛ إذ ليس قبله شىء . والإنسان هنا أبو جهل . والطغيان: مجاوزة الحد فى العصيان . ﴿ أَنْ رآه ﴾ أى لأن رأى نفسه آستغنى؛ أى صار ذا مال وثروة . وقال آبن عباس فى رواية أبى صالح عنه ، قال : لما نزلت هذه الآية وسمع بها المشركون، أتاه أبو جهل فقال: يا محمد تزعم أنه من آستغنى طغى؛ فاجعل لنا جبال مكة ذهبا، لعلنا نأخذ منها، فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك . قال فأتاه جبريل عليه السلام فقال : "يا محمد خيِّرهم فى ذلك فإن شاءوا فعلنا بهم ما أرادوه : فإن لم يسلموا فعلنا بهم كما فعلنا بأصحاب المائدة" . فعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن القوم لا يقبلون(2) ذلك ؛ فكفَّ عنهم إبقاء عليهم . وقيل: « أَنْ رَآه آسْتغنَى » بالعشيرة والأنصار والأعوان . وحذف اللام من قوله « أن رآه » كما يقال : إنكم لَتَطْغَون إن رأيتم غِناكم . وقال الفراء : لم يقل رأى نفسه ، كما قيل قتل نفسه ؛ لأن رأى من الأفعال التى تريد آسما وخبرا، نحو الظن والحِسبان، فلا يقتصر فيه على مفعول واحد . والعرب تطرح النفس من هذا الجنس تقول : رأيتنى وحسبتنى، ومتى تراك خارجا ، ومتى تظنك خارجا . وقرأ مجاهد وحميد وقنبل عن آبن كثير « أن رأهُ آستَغنَى» بقصر الهمزة . الباقون « رآه » بمدّها ، وهو الاختيار .

---

(1) آية ٢٨١ سورة البقرة .

(2) فى نسخة من الأصل : « يقبلون » .

قوله تعالى : إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾

أى مرجع مَنْ هذا وصفه، فنجازيه . والرجعى والمرجع والرجوع : مصادر؛ يقال : رجع إليه رجوعا ومَرْجعا ، و رُجْعَى ؛ على وزن فُعْلَى .

قوله تعالى : أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَرأيتَ الذى يَنْهَى ﴾ وهو أبو جهل ﴿ عَبدًا ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم . فإن أبا جهل قال : إنْ رأيت محمدا يصلّى لأَطأنّ على عنقه ؛ قاله أبو هُريرة . فأنزل الله هذه الآيات تعجبا منه (١) . وقيل : فى الكلام حذف ؛ والمعنى : أَمِنَ هذا الناهى عن الصلاة من العقوبة .

قوله تعالى : أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾

أى أرأيت يا أبا جهل إن كان محمد على هذه الصفة، أليس ناهيه عن التقوى والصلاة هالكا ؟ !

قوله تعالى : أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾

يعنى أبا جهل كذّب بكتاب الله عز وجل ، وأعْرض عن الإيمان . وقال الفرّاء: المعنى « أرأيتَ الذى ينهى . عبدا إذا صلى » وهو على الهدى ، وآمر بالتقوى ، والناهى مكذّب متولّ عن الذكر ؛ أى فما أعجب هذا ! ثم يقول : وَيْلَه ! ألم يعلم أبو جهل بأن الله يرى ؛ أى يراه و يعلم فعله ؛ فهو تقرير وتوبيخ . وقيل : كل واحد من « أرأيت » بدل من الأول . و « أَلَمْ يعلم بأنّ اللهَ يَرَى » الخبر .

قوله تعالى : كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾

---

(١) أى تعجيبا منه ، وهو إيقاع المخاطب وحمله على التعجب (عن حاشية الجمل) .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ أى أبو جهل عن أذاك يا محمد . ﴿ لَنَسْفَعًا ﴾ أى لنأخذن ﴿ بِالنَّاصِيَةِ ﴾ فلنذلنه . وقيل : لنأخذن بناصيته يوم القيامة، وتُطْوَى مع قدميه، ويطرح فى النار ، كما قال تعالى : « فيؤخذ بالنواصي والأقدام » (١) . فالآية — وإن كانت فى أبى جهل — فهى عظة للناس ، وتهديد لمن يمتنع أو يمنع غيره عن الطاعة . وأهل اللغة يقولون : سَفَعْتَ بالشيء : إذا قبضت عليه وجذبته جذبا شديدا . ويقال : سَفَعَ بناصية فرسه . قال :

قَومٌ إذا كَثُرَ الصياح رأيتهمْ * مِنْ بينِ مُلْجِم مُهْرِهِ وسافِع (٢)

وقيل : هو مأخوذ من سَفَعَتْه النار والشمس : إذا غيرت وجهه إلى حال تسويد ؛ كما قال :

أثافِيَّ سُفعا فى مُعَرَّسِ مِرْجَلٍ * ونُؤْيٌ كجذم الحوض أثلمَ خاشع (٣)

والناصية : شعر مقدم الرأس . وقد يعبر بها عن جملة الإنسان ؛ كما يقال : هذه ناصية مباركة؛ إشارة إلى جميع الإنسان . وخص الناصية بالذكر على عادة العرب فيمن أرادوا إذلاله وإهانته أخذوا بناصيته . وقال المبرّد : السَّفْع : الجذب بشدّة؛ أى لَنَجُرَّنْ بناصيته إلى النار . وقيل : السَّفْع الضرب ؛ أى لنلطُمَنّ وجهه . وكله متقارب المعنى . أى يجمع عليه الضرب عند الأخذ ؛ ثم يجرّ إلى جهنم . ثم قال على البدل : ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾

---

(١) آية ٤١ سورة الرحمن . (٢) البيت لحميد بن ثور الهلالى الصحابى . ويروى : « ما بين ملجم ... »

(٣) هكذا ورد البيت فى جميع نسخ الأصل وتفسير ابن عادل ، وهو ملفق من قصيدتين . فالشطر الأول من معلقة زهير . والبيت كما فى ديوانه ومعلقته :

أثافى سفعا فى معرس مرجل * ونؤيا كجذم الحوض لم يتثلم

والشطر الثانى من قصيدة للنابغة : والبيت كما فى ديوانه :

رماد ككحل العين لأيا أبينه * ونؤى كجذم الحوض أثلم خاشع

والأثلم : المتثلم . والخاشع : اللاصق بالأرض . والأثافى : الحجارة التى تجعل عليها القدر ؛ الواحدة أثفية . والسفع : السود . والمعرس : الموضع الذى فيه المرجل . والمرجل : كل قدر يطبخ فيها ، من حجارة أو حديد أو خزف أو نحاس . والنؤى : حاجز يرفع حول البيت من تراب لئلا يدخل البيت الماء من خارج . وجذم الحوض : حرفه وأصله . ولم يتثلم : يعنى النؤى قد ذهب أعلاه ، ولم يتثلم ما بقى منه ، أى يتكسر .

أى ناصية أبى جهل كاذبة فى قولها ، خاطئة فى فعلها . والخاطئ معاقب مأخوذ . والمخطئ غير مأخوذ[١] . ووصف الناصية بالكاذبة الخاطئة ، كوصف الوجوه بالنظر فى قوله تعالى : « إلى ربها ناظرة[٢] » . وقيل : أى صاحبها كاذب خاطئ ؛ كما يقال : نهاره صائم ، وليله قائم ؛ أى هو صائم فى نهاره ، ثم قائم فى ليله .

قوله تعالى : فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿فَلْيَدْعُ نادِيَهُ﴾ أى أهل مجلسه وعشيرته ، فليستنصر بهم . ﴿سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ﴾ أى الملائكة الغلاظ الشداد — عن ابن عباس وغيره — واحدهم زِبْنِيّ ؛ قاله الكسائى . وقال الأخفش : زابن . أبو عبيدة : زِبْنِيَة . وقيل : زَبَانِيّ . وقيل : هو اسم للجمع ؛ كالأبابيل والعباديد . وقال قتادة : هم الشُّرَط فى كلام العرب . وهو مأخوذ من الزَّبْن وهو الدفع ؛ ومنه المُزابنة[٣] فى البيع . وقيل : إنما سموا الزبانية لأنهم يعملون بأرجلهم ، كما يعملون بأيديهم ؛ حكاه أبو الليث السَّمَرْقنديّ — رحمه الله — قال : ورُوِى فى الخبر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه السورة ، وبلغ إلى قوله تعالى : « لنسفعا بالناصية » قال أبو جهل : أنا أدعو قومى حتى يمنعوا عنى ربك . فقال الله تعالى : « فَلْيَدْعُ نادِيَهُ ، سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ » . فلما سمع ذِكر الزبانية رجع فزِعا ؛ فقيل له : خَشِيتَ منه ! قال لا ! ولكن رأيت عنده فارسا يُهدّدنى بالزّبانية ، فما أدرى ما الزبانية ، ومال إلىّ الفارس ، فخشيت منه أن يأكلنى . وفى الأخبار أن الزبانية رءوسهم فى السماء وأرجلهم فى الأرض ، فهم يدفعون الكفار فى جهنم . وقيل : إنهم أعظم الملائكة خَلْقا ، وأشدّهم بطشا . والعرب تطلِق هذا الاسم على من اشتدّ بطشه . قال الشاعر :

مَطاعيمُ فى القُصْوَى مَطاعينُ فى الوَغَى * زَبانيـةٌ غُلْب عِظـامٌ حُلُومُها[٤]

---

(١) الخاطئ : من تعمد لما لا ينبغى ؛ أى القاصد للذنب . والمخطئ : من أراد الصواب فصار إلى غيره .
(٢) آية ٢٣ سورة القيامة . (٣) هى بيع الرطب فى رءوس النخل بالتمر ، ونهى عنها لما يقع فيها من الغبن والجهالة . (٤) غلب : جمع أغلب ، وهو الغليظ الرقبة . والعرب تصف السادة بغلظ الرقبة وطولها . والحلوم : جمع الحلم وهو العقل .

وعن عكرمة عن ابن عباس : «سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ» قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمدا يصلى لأطأن على عنقه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لو فعل لأخذته الملائكة عِيانا " . قال أبوعيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب . وروى عِكرمة عن ابن عباس قال : مر أبو جهل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلّي عند المَقام، فقال : ألم أنهك عن هذا يا محمد ! فأغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال أبو جهل : بأيّ شيء تهددني يا محمد ! والله إنى لأكثر أهل الوادى هذا ناديا ؛ فأنزل الله عز وجل : « فَلْيَدْعُ نَادِيَه . سندع الزبانية » . قال ابن عباس : والله لو دعا ناديَه لأخذته زبانية العذاب من ساعته . أخرجه الترمذي بمعناه، وقال : حسن غريب صحيح . والنادى فى كلام العرب : المجلس الذى ينتدِى فيه القوم ؛ أى يجتمعون ، والمراد أهل النادى ؛ كما قال جرير :

* لهم مجلس صُهْبُ السِّبالِ أذلةٌ (١) *

وقال زهير :

* وفيهم مَقاماتٌ حِسانٌ وُجُوهُهم (٢) *

وقال آخر :

* وٱسْتَبَّ بعدَك يا كُلَيْبُ المجلسُ (٣) *

وقد ناديت الرجل أناديه إذا جالسته . قال زهير :

وجارُ البيتِ والرجلُ المنادِى * أمامَ الحى عَقْدُهما سَواءُ

(١) تمامه : * سواسية أحرارها وعبيدها *

والبيت لذى الرمة لا لجرير . و « صهب » : حمر . و « السبال » : الشعر الذى عن يمين الشفة العليا وشمالها .

(٢) تمام البيت : * وأندية ينتابها القول والفعل *

المقامات : المجالس ؛ وإنما سميت المقامات لأن الرجل كان يقوم فى المجلس ، فيحض على الخير، ويصلح بين الناس . وأندية : جمع الندى، وهو المجلس أيضا ، وفيه الشاهد .

(٣) هذا عجز بيت المهلهل يرثى أخاه كليبا . وصدره :

* نبئت أن النار بعدك أوقدت *

قوله تعـالى : ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾ ﴾

﴿ كَلَّا ﴾ أى ليس الأمر على ما يظنه أبو جهل . ﴿ لَا تُطِعْـهُ ﴾ أى فيما دعاك إليـه من ترك الصـلاة . ﴿ وَٱسْجُدْ ﴾ أى صلّ لله ﴿ وَٱقْتَرِب ﴾ أى تقرب إلى الله جل ثناؤه بالطاعة والعبادة . وقيل : المعنى : إذا سجدت فاقترب من الله بالدعاء . روى عطاء عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "أقرب ما يكون العبـد من ربه ، وأحبه إليه ، جَبْهَتُه فى الأرض ساجدا لله " .

قال علماؤنا : وإنما [كان] ذلك لأنها نهاية العبودية والذلة ؛ ولله غاية العزة ، وله العزة التى لا مقدار لها ؛ فكلما بَعُدت من صفته ، قربت من جنته ، ودنوت من جواره فى داره . وفى الحديث الصحيح : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "أما الركوع فعظموا فيه الرب . وأما السجود فٱجتهدوا فى الدعاء، فإنه قَمِن(١) أن يُستجاب لكم " . ولقد أحسن من قال :

وإذا تذللت الرقاب تواضُعًا ۞ منـا إليـك فعـزُّها فى ذُلِّهـا

وقال زيد بن أسـلم : اسجد أنت يا محمد مصليا ، واقترب أنت يا أبا جهل من النار .

قوله تعالى : ﴿ وَٱسْجُدْ ﴾ هذا من السجود . يحتمل أن يكون بمعنى السجود فى الصلاة ، ويحتمل أن يكون سجود التلاوة فى هذه السورة . قال ٱبن العربى : «والظاهر أنه سجود الصلاة» لقوله تعالى : «أرأيتَ الذى ينهى عبدا إذا صلى – إلى قوله – كلا لا تُطِعه وٱسجد وٱقترب» ، لولا ما ثبت فى الصحيح من رواية مسـلم وغيره من الأئمة عن أبى هريرة أنه قال : سجدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى «إذا السماء ٱنشقت» ، وفى «ٱقرأ بٱسم ربك الذى خلق» سجدتين ، فكان هـذا نصا على أن المـراد سجود التلاوة . وقد روى ٱبن وهب ، عن حماد ابن زيد، عن عاصم بن بَهْدلة ، عن زِرّ بن حُبَيش ، عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، قال : عزائم السجود أربع : «الم» و «حم . تنزيل من الرحمن الرحيم» و «النجم» و «اقـرأ

---

(١) يقال : قمن وقمن بفتح الميم وكسرها ، والذى بالكسر يثنى ويجمع كقمين ؛ أى خليق وجدير .

باسم ربك » . وقال ابن العربي : «وهذا إن صح يلزم عليه السجود الثاني من سورة « الحج » ، وإن كان مقترنا بالركوع ؛ لأنه يكون معناه اركعوا في موضع الركوع ، واسجدوا في موضع السجود» . وقد قال ابن نافع ومطرِّف : وكان مالك يسجد في خاصة نفسه بخاتمة هذه السورة من « اقرأ باسم ربك » وابن وهب يراها من العزائم .

قلت : وقد روينا من حديث مالك بن أنس عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن نافع عن ابن عمر قال : لما أنزل الله تعالى « اقرأ باسم ربك الذي خلق » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمُعاذ : " اكتبها يا معاذ " فأخذ معاذ اللوح والقلم والنون — وهي الدواة — فكتبها معاذ ؛ فلما بلغ « كلا لا تطعه واسجد واقترب» سجد اللوح ، وسجد القلم ، وسجدت النون ، وهم يقولون : اللهم ارفع به ذِكرا، اللهم احْطُطْ به وِزرا ، اللهم اغفر به ذنبا . قال معاذ : سجدت ، وأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسجد .

ختمت السورة . والحمد لله على ما فتح ومنح وأعطى . وله الحمد والمِنة .

سورة « القَدْر »

وهي مَدَنية في قول أكثر المفسرين ؛ ذكره الثعلبي . وحكى الماوردي عكسه .

قلت : وهي مدنية في قول الضحاك، وأحد قولي ابن عباس . وذكر الواقدي أنها أول سورة نزلت بالمدينة . وهي خمس آيات .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿إنا أنزلناه﴾ يعني القرآن وإن لم يجرِ له ذِكر في هذه السورة ؛ لأن المعنى معلوم ، والقرآن كله كالسورة الواحدة . وقد قال : « شهر رمضان الذي أُنزِل فيه القرآنُ »[1] وقال : « حم . والكتابِ المُبينِ . إنا أنزلناه في ليلةٍ مباركةٍ »[2] ، يريد : في ليلة القدر . وقال

(١) آية ١٨٥ سورة البقرة . (٢) أول سورة الدخان .

الشعبي : المعنى إنا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر . وقيل : بل نزل به جبريل عليه السلام جملة واحدة في ليلة القدر ، من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ، إلى بيت العزة، وأملاه جبريل على السَّفرة (١) ،ثم كان جبريل ينزله على النبي صلى الله عليه وسلم نُجوما نجوما (٢) . وكان بين أوّله وآخره ثلاث وعشرون سنة؛ قاله ابن عباس ، وقد تقدّم في سورة « البقرة » (٣) . وحكى المَاوَرْدِيّ عن ابن عباس قال : نزل القرآن في شهر رمضان، وفي ليـلة القدر، في ليلة مباركة ، جملة واحدة من عند الله ، من اللوح المحفوظ إلى السَّفَرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا ؛ فنجّمته السفرة الكرام الكاتبون على جبريل عشرين سنة ، ونجمه جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم عشرين سنة . قال ابن العَرَبِيّ : « وهذا باطل؛ ليس بين جبريل و بين الله واسطة ، ولا بين جبريل ومحمد عليهما السلام واسطة » .

قوله تعالى : ﴿ فِي لَيْـلَةِ الْقَدْرِ ﴾ قال مجاهد : في ليـلة الحكم . ﴿ وما أَدْرَاكَ ما ليلةُ القدْرِ ﴾ قال : ليلة الحكم . والمعنى ليلة التقدير ؛ سميت بذلك لأن الله تعالى يقدّر (٤) فيها ما يشاء من أمره، إلى مثلها من السنة القابلة؛ من أمر الموت والأجل والرزق وغيره . و يسلمه إلى مدبِّرات الأمور ، وهم أربعة من الملائكة : إسرافيل ، وميكائيل ، وعزرائيل ، وجبريل ؛ عليهم السلام . وعن ابن عباس قال : يُكْتَب من أم الكتاب ما يكون في السـنة من رزق ومطر وحياة وموت ، حَتَّى الحاجّ . قال عكرمة : يُكتب حاجّ بيت الله تعالى في ليلة القدر بأسمائهم وأسماء آبائهم، ما يُغادَر منهم أحد، ولا يُزاد فيهم . وقاله سعيد بن جبير . وقد مضى في أوّل سورة «الدخان» (٥) هذا المعنى . وعن ابن عباس أيضا : أن الله تعالى يقضي الأقضية في ليـلة نصف شعبان ، ويُسْلِمها إلى أربابها في ليـلة القدر . وقيل : إنمـا سميت بذلك لِعظمِها وقَدْرها وشرفها ؛ من قولهم : لفلان قَدْر ؛ أي شرف ومنزلة . قاله الزُّهرِيّ وغيره . وقيل : سُمّيت بذلك لأن للطاعات فيها قَدْرا عظيما ، وثوابا جزيلا . وقال أبو بكر الوراق :

---

(١) السفرة : هم الملائكة ؛ جمع سافر . والسافر في الأصل : الكاتب ، سمى به لأنه يبين الشيء و يوضحه .

(٢) يعني جزءا جزءا ، الآية والآيتين . (٣) راجع جـ ٢ ص ٢٩٧ طبعة ثانية .

(٤) يريد أنه يظهر ما قضاه في الأزل من الأمور، لا أنه يقدر ابتداء . (٥) راجع جـ ١٦ ص ١٢٥

سميت بذلك لأن من لم يكن له قدر ولا خطر يصير فى هذه الليلة ذا قدر إذا أحياها. وقيل : سميت بذلك لأنه أُنزل فيها كتابا ذا قدر، على رسول ذى قدر، على أمة ذات قدر. وقيل : لأنه ينزل فيها ملائكة ذوو قدر وخَطَر. وقيل : لأن الله تعالى ينزل فيها الخير والبركة والمغفرة. وقال سهل : سميت بذلك لأن الله تعالى قدّر فيها الرحمة على المؤمنين. وقال الخليل : لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة ؛ كقوله تعالى : « ومَنْ قُدِر عليه رِزْقُه »[1] أى ضُيِّق.

قوله تعالى : وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣

قال الفراء : كل ما فى القرآن من قوله تعالى : « وما أَدْرَاكَ » فقد أدراه. وما كان من قوله : « وما يُدْرِيك » فلم يُدْرِه. وقاله سفيان، وقد تقدم[2]. ﴿ لَيْلَةَ القَدْرِ خيرٌ مِن أَلف شَهْرٍ ﴾ بيّن فضلها وعظمها. وفضيلة الزمان إنما تكون بكثرة ما يقع فيه من الفضائل. وفى تلك الليلة يقسم الخير الكثير الذى لا يوجد مثله فى ألف شهر. والله أعلم. وقال كثير من المفسرين : أى العمل فيها خير من العمل فى ألف شهر ليس فيها ليلة القدر. وقال أبو العالية : ليلة القدر خير من ألف شهر لا تكون فيه ليلة القدر. وقيل : عنَى بألف شهر جميع الدهر ؛ لأن العرب تذكر الألف فى غاية الأشياء؛ كما قال تعالى : « يَوَدّ أَحَدُهم لو يُعَمَّر أَلْفَ سَنَةٍ »[3] يعنى جميع الدهر. وقيل : إن العابد كان فيما مضى لا يسمى عابدا حتى يعبد الله ألف شهر، ثلاثا وثمانين سنة وأربعة أشهر ؛ فجعل الله تعالى لأمة محمد صلى الله عليه وسلم عبادة ليلة خيرا من ألف شهر كانوا يعبدونها. وقال أبو بكر الوراق : كان ملك سليمان خمسمائة شهر، وملك ذى القرنين خمسمائة شهر فصار ملكهما ألف شهر؛ فجعل الله تعالى العمل فى هذه الليلة لمن أدركها خيرا من ملكهما. وقال ابن مسعود : إن النبيّ صلى الله

(١) آية ٧ سورة الطلاق. (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٥٧ وجـ ١٩ ص ٢٤٧ وص ٣ من هذا الجزء.
(٣) آية ٩٦ سورة البقرة.

عليه وسلم ذكر رجلا من بنى إسرائيل لبس السلاح فى سبيل الله ألف شهر؛ فعجب المسلمون من ذلك؛ فنزلت «إنا أنزلناه» الآية. «خير من ألف شهر»، التى لبس فيها الرجل سلاحه فى سبيل الله. ونحوه عن ابن عباس. وهب بن منبه : إن ذلك الرجل كان مسلما، و إن أمه جعلته نذرا لله، وكان من قرية قوم يعبدون الأصنام، وكان سكن قريبا منها؛ فجعل يغزوهم وحده، ويقتل ويسبي ويجاهد، وكان لا يلقاهم إلا بلحيَي بعير، وكان إذا قاتلهم وقاتلوه وعطش، انفجر له من اللحيين(١) ماء عذب، فيشرب منه، وكان قد أعطى قوة فى البطش، لا يوجعه حديد ولا غيره: وكان اسمه شمسون. وقال كعب الأحبار: كان رجلا ملكا فى بنى إسرائيل، فعل خصلة واحدة، فأوحى الله إلى نبيّ زمانهم: قل لفلان يتمنى. فقال: يارب أتمنى أن أجاهد بمالى وولدى ونفسى؛ فرزقه الله ألف ولد، فكان يجهز الولد بماله فى عسكر، ويخرجه مجاهدا فى سبيل الله، فيقوم شهرا ويقتل ذلك الولد، ثم يجهز آخر فى عسكر، فكان كل ولد يقتل فى الشهر، والملك مع ذلك قائم الليل، صائم النهار؛ فقتل الألف ولد(٢) فى ألف شهر، ثم تقدم فقاتل فقتل. فقال الناس: لا أحد يدرك منزلة هذا الملك؛ فأنزل الله تعالى: «ليلة القدر خير من ألف شهر» من شهور ذلك الملك، فى القيام والصيام والجهاد بالمال والنفس والأولاد فى سبيل الله. وقال علىّ وعروة: ذكر النبى صلى الله عليه وسلم أربعة من بنى إسرائيل، فقال "عبدوا الله ثمانين سنة، لم يعصوه طرفة عين"؛ فذكر أيوب وزكريا، وحزقيل بن العجوز ويوشع بن نون؛ فعجب أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم من ذلك. فأتاه جبريل فقال: يا محمد عجبت أمتك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة لم يعصوا الله طرفة عين، فقد أنزل الله عليك خيرا من ذلك؛ ثم قرأ: «إنا أنزلناه فى ليلة القدر». فسرّ بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال مالك فى الموطأ من رواية ابن القاسم وغيره: سمعت

---

(١) اللحى (بفتح اللام وتشديدها وسكون الحاء): عظم الحنك، وهو الذى عليه الأسنان. وعبارة الطبرى فى تاريخه (طبع أوربا قسم أول ص ٧٩٤): «وكان إذا لقيهم لقيهم بلحى بعير، لا يلقاهم بغيره؛ فإذا قاتلوه وقاتلهم. وتعب وعطش انفجر له من الحجر الذى فى اللحى ماء عذب ... الخ». بإفراد «اللحى» فى الموضعين.

(٢) كذا فى الأصل، والمعروف فى العربية أن البصريين قالوا: ما كان من العدد مضافا أدخل الألف واللام فى آخره فقط، وأجاز الكوفيون إدخال الألف واللام على الأول والثانى، وعلى ذلك فيقال هنا: ألف الولد أو الألف الولد.

من أثق به يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُرِى أعمار الأمم قبله ، فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم فى طول العمر؛ فأعطاه الله تعالى ليلة القدر، وجعلها خيرا من ألف شهر . وفى الترمذى عن الحسن بن على رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُرِى بنى أمية على منبره ، فساءه ذلك؛ فنزلت « إنا أعطيناك الكوثر » ، يعنى نهرا فى الجنة . ونزلت «إِنَّا أَنْزَلْنَاه فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْر مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ » يملكها بعدك بنو أمية . قال القاسم بن الفضل الحُدَّانى : فعددْناها ، فإذا هى ألف شهر ، لا تزيد يوما ، ولا تنقص يوما . قال : حديث غريب .

قوله تعالى : تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ المَلائكةُ ﴾ أى تهبط من كل سماء، ومن سِدرة المنتهى ؛ ومسكن جبريل على وسطها . فينزلون إلى الأرض و يؤمّنون على دعاء الناس ، إلى وقت طلوع الفجر؛ فذلك قوله تعالى: «تَنَزَّلُ الملائكةُ» . ﴿ والرُّوحُ فيها بإذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أى جبريل عليه السلام. وحكى القُشَيرِى : أن الرُّوح صِنف من الملائكة ، جُعلوا حفَظَة على سائرهم ، وأن الملائكة لا يرونهم، كما لا نرى نحن الملائكة. وقال مقاتل: هم أشرف الملائكة وأقربهم من الله تعالى. وقيل : إنهم جند من جند الله عز وجل من غير الملائكة . رواه مجاهد عن ابن عباس مرفوعا ؛ ذكره الماوَرْدِى وحكى القشيرى : قيل هم صِنف مِن خلق الله يأكلون الطعام ، ولهم أيد وأرجل ، وليسوا ملائكة . وقيل : « الرُّوح » خلق عظيم يقوم صفا، والملائكة كلهم صفا . وقيل : « الرُّوح » الرحمة ينزل بها جبريل عليه السلام مع الملائكة فى هذه الليلة على أهلها؛ دليله : « يُنَزِّلُ المَلَائِكةَ بالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ على مَنْ يَشاء مِن عِبادِهِ »[1] ، أى بالرحمة . ﴿ فِيها ﴾ أى فى ليلة القدر . ﴿ بإذنِ رَبِّهِم ﴾ أى بأمره . ﴿ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ : أُمِرَ بكل أمرٍ قدّره الله وقضاه فى تلك السنة إلى قابل؛ قاله ابن عباس؛ كقوله تعالى : « يحفظُونه مِنْ أمرِ اللهِ »[2] أى بأمر الله . وقراءة العامة « تَنَزَّلُ » بفتح التاء؛ إلا أن البزى

---

(١) آية ٢ سورة النحل . (٢) آية ١١ سورة الرعد .

شدّد التاء . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف وابن السَّميقَع، بضم التاء على الفعل المجهول . وقرأ علىّ وابن عباس وعِكرمة والكلبي « مِنْ كُلِّ ٱمْرِئٍ » . وروى عن ابن عباس أن معناه : من كل مَلَك ،وتأوّلها الكلبيّ على أن جبريل ينزل فيها مع الملائكة،فيسلمون على كل امرئ مسلم . « فمِن » بمعنى على . وعن أنس قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إذا كانَ ليلةَ القَدرِ نزلَ جبريلُ فى كَبْكبة[1] من الملائكة، يُصَلُّون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى".

قوله تعالى : سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

قيل : إن تمام الكلام «مِنْ كُلِّ أمْرٍ» ثم قال «سلام» . روِى ذلك عن نافع وغيره ؛ أى ليلة القدر سلامة وخير كلها لا شر فيها . ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الفَجْرِ﴾ أى إلى طلوع الفجر . قال الضحاك : لا يقدّر الله فى تلك الليلة إلا السلامة ، وفى سائر الليالى يقضى بالبلايا والسلامة . وقيل : أى هى سلام ؛ أى ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان فى مؤمن ومؤمنة . وكذا قال مجاهد : هى ليلة سالمة ، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءا ولا أذى . وروى مرفوعا . وقال الشعبي : هو تسليم الملائكة على أهل المساجد ، من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر ؛ يمرون على كل مؤمن ، ويقولون : السلام عليك أيها المؤمن . وقيل : يعنى سلام الملائكة بعضهم على بعض فيها . وقال قتادة : « سَلَامٌ هى » : خير هى . « حَتَّى مَطْلَعِ الفَجْرِ » أى إلى مطلع الفجر . وقرأ الكسائى وابن مُحَيصن «مَطْلِع» بكسر اللام ، الباقونَ بالفتح . والفتح والكسر : لغتان فى المصدر . والفتح الأصل فى فَعَلَ يَفْعُل ؛ نحو المقتل والمخرج . والكسر على أنه مما شذ عن قياسه ؛ نحو المشرق والمغرب والمنبت والمسكن والمنسك والمحشر والمسقط والمجزِر . حكى فى ذلك كله الفتح والكسر ؛ على أن يُراد به المصدر لا الاسم .

وهنا ثلاث مسائل :

الأولى — فى تعيين ليلة القدر ؛ وقد اختلف العلماء فى ذلك . والذى عليه المُعْظَم أنها ليلة سبع وعشرين ؛ لحديث زِرّ بن حُبَيْش قال : قلت لأبىّ بن كعب : إن أخاك عبد الله

(١) الكبكبة (بالفتح) : الجماعة المتضامة من الناس وغيرهم .

آبن مسعود يقول : من يَقم الحَول يصب ليلة القدر . فقال : يغفر الله لأبى عبد الرحمن ! لقد عَلِم أنها فى العشر الأواخر من رمضان ، وأنها ليلة سبع وعشرين ؛ ولكنه أراد ألا يتكل النـاس ؛ ثم حلف لا يستثنى[1] : أنها ليلة سبع وعشرين . قال قلت : بأى شىء تقول ذلك يا أبا المنذر؟ قال : بالآية التى أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو بالعلامة أن الشمس تطلع يؤمئذ لا شعاع لها . قال الترمذى : حديث حسن صحيح . وخرجه مسلم . وقيل : هى فى شهر رمضان دون سائر العام ؛ قاله أبو هريرة وغيره . وقيل: هى فى ليالى السنة كلها . فمن علق طلاق آمرأته أو عِتق عبده بليلة القدر، لم يقع العِتق والطلاق إلا بعد مضى سنة من يوم حلف . لأنه لا يجوز إيقاع الطلاق بالشك، ولم يثبت اختصاصها بوقت ؛ فلا ينبغى وقوع الطلاق إلا بمضى حول، وكذلك العِتق؛ وما كان مِثله من يمين أو غيره . وقال آبن مسعود: من يَقُم الحول يصبها؛ فبلغ ذلك آبن عمر، فقال : يرحم الله أبا عبد الرحمن ! أما إنه عَلِم أنها فى العشر الأواخر من شهر رمضان، ولكنه أراد ألا يتكل الناس . وإلى هـذا القول ذهب أبو حنيفة أنهـا فى جميع السنة . وقيل عنه : إنها رُفِعت — يعنى ليلة القدر — وأنها إنمـا كانت مرة واحدة ؛ والصحيح أنها باقيــة . وروى عن آبن مسعود أيضا : أنها إذا كانت فى يوم من هذه السنة ، كانت فى العام المقبل فى يوم آخر . والجمهور على أنها فى كل عام من رمضان . ثم قيــل : إنها الليـلة الأولى من الشهر ؛ قاله أبو رَزِين العُقَيلى . وقال الحسن وآبن إسحاق وعبد الله بن الزُّبير : هى ليـلة سبع عشرة من رمضان ، وهى الليـلة التى كانت صبيحتها وقعة بدر . كأنهم نزعوا بقوله تعالى : « ومَا أَنْزَلْنا على عَبْدِنا يومَ الفُرْقانِ يوم الْتَقَى الجمعانِ»[2] ، وكان ذلك ليلة سبع عشرة ، وقيل هى ليلة التاسع عشر . والصحيح المشهور : أنها فى العشر الأواخر من رمضان؛ وهو قول مالك والشافعى والأوزاعى وأبى ثور وأحمد . ثم قال قوم : هى ليلة الحادى والعشرين . ومال إليه الشافعى رضى الله عنه ، لحديث المـاء والطين

---

(١) أى جزم فى حلفه بلا استثناء فيه ، بأن يقول عقب يمينه إن شاء الله .

(٢) آية ٤١ سورة الأنفال .

ورواه أبو سعيد الخُدْرِي[١]، خرجه مالك وغيره . وقيل ليلة الثالث والعشرين؛ لما رواه ابن عمر أن رجلا قال : يا رسول الله إنى رأيت ليلة القدر فى سابعة تبق . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "أرى رؤياكم قد تواطأت على ثلاث وعشرين، فمن أراد أن يقوم من الشهر شيئا فليقم ليلة ثلاث وعشرين" . قال معمر : فكان أيوب يغتسل ليلة ثلاث وعشرين ويمس طيبا. وفى صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنى رأيت أنى أسجد فى صبيحتها فى ماء وطين". قال عبد الله بن أنيس : فرأيته فى صبيحة ليلة ثلاث وعشرين فى الماء والطين ، كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : ليلة خمس وعشرين ؛ لحديث أبى سعيد الخدرى: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "التمسوها فى العشر الأواخر فى تاسعة تبق، فى سابعة تبق، فى خامسة تبق". رواه مسلم، قال مالك : يريد بالتاسعة ليلة إحدى وعشرين، والسابعة ليلة ثلاث وعشرين، والخامسة ليلة خمس وعشرين . وقيل : ليلة سبع وعشرين . وقد مضى دليله ، وهو قول على رضى الله عنه وعائشة ومعاوية وأبى بن كعب . و روى ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من كان متحريا ليلة القدر، فليتحرها ليلة سبع وعشرين " . وقال أبى بن كعب : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " ليلة القدر ليلة سبع وعشرين". وقال أبو بكر الوراق : إن الله تعالى قسم ليالى هذا الشهر — شهر رمضان — على كلمات هذه السورة، فلما بلغ السابعة والعشرين أشار إليها فقال : هى . وأيضا فإن ليلة القدر كُرر ذكرها ثلاث مرات، وهى تسعة أحرف، فتجىء سبعا وعشرين . وقيل: هى ليلة تسع وعشرين ؛ لما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ليلة القدر التاسعة

---

(١) لفظ الحديث كما رواه مالك فى الموطأ : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الوسط من رمضان، فاعتكف عاما، حتى إذا كان ليلة إحدى وعشرين وهى الليلة التى يخرج فيها من صبحها من اعتكافه ، قال " من كان اعتكف معى فليعتكف العشر الأواخر ، وقد رأيت هذه الليلة ثم أنسيتها : وقد رأيتنى أسجد من صبحها فى ماء وطين : فالتمسوها فى العشر الأواخر والتمسوها فى كل وتر" قال أبو سعيد : فأمطرت السماء تلك الليلة، وكان المسجد على عريش، فوكف المسجد (قطر) قال أبو سعيد : فأبصرت عيناى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف وعلى جبينه وأنفه أثر الماء والطين ، من صبح ليلة إحدى وعشرين » .

والعشرون — أو السابعة والعشرون — وأن الملائكة فى تلك الليلة بعدد الحصى". وقد قيل: إنها فى الأشفاع[1]. قال الحسن: ارتقبت الشمس ليلة أربع وعشرين عشرين سنة، فرأيتها تطلع بيضاء لا شعاع لها. يعنى من كثرة الأنوار فى تلك الليلة. وقيل إنها مستورة فى جميع السنة؛ ليجتهد المرء فى إحياء جميع الليالى. وقيل: أخفاها فى جميع شهر رمضان، ليجتهدوا فى العمل والعبادة ليالى شهر رمضان، طمعا فى إدراكها؛ كما أخفى الصلاة الوسطى فى الصلوات، وآسمه الأعظم فى أسمائه الحسنى، وساعة الإجابة فى ساعات الجمعة وساعات الليل، وغضبه فى المعاصى، ورضاه فى الطاعات، وقيام الساعة فى الأوقات، والعبد الصالح بين العباد؛ رحمة منه وحكمة.

الثانية — فى علاماتها: منها أن الشمس تطلع فى صبيحتها بيضاء لا شعاع لها. وقال الحسن قال النبيّ صلى الله عليه وسلم فى ليلة القدر: "إن من أماراتها: أنها ليلة سَمْحة بَلْجَة، لاحارّة ولا باردة، تطلع الشمس صبيحتها ليس لها شعاع". وقال عبيد بن عمير: كنت ليلة السابع والعشرين فى البحر، فأخذت من مائه، فوجدته عذبا سلسا.

الثالثة — فى فضائلها. وحسبك بقوله تعالى: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ». وقوله تعالى: «تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا». وفى الصحيحين: "مَنْ قام ليلةَ القَدْر إيمانا وآحتسابًا غَفر اللهُ له ما تَقَدَّم من ذَنْبه" رواه أبو هريرة. وقال آبن عباس: قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "إذا كان ليلةَ القدرِ، تَنَزَّلَ الملائكةُ الّذِينَ هم سُكانُ سِدرة المُنْتَهى، منهمْ جبريلُ، ومعهم أَلْوِيةٌ يُنْصَبُ منها لواءٌ على قبرى، ولواء على بيت المقدس، ولواء على المسجد الحرام، ولواء على طُور سَيْناء، ولا تَدَعُ فيها مؤمنا ولا مؤمنة إلّا تُسَلِّم عليه، إلا مُدْمِنَ الخمر، وآكِلَ الخنزير، والمتَضَمِّخ بالزعفران". وفى الحديث: "إن الشيطانَ لا يخرجُ فى هذه الليلة حتّى يُضيءَ فجرها، ولا يستطيعُ أن يصيب فيها أحدا بخَبْل ولا شيء من الفساد، ولا ينفذ فيها سحر ساحر". وقال الشعبيّ: وليلُها كيومها، ويومها كليلها. وقال الفرّاء: لا يقدّر اللهُ فى ليلة القَدْر إلا السعادة والنعم، ويقدّر فى غيرها البلايا والنقم؛ وقد تقدّم عن الضحاك. ومثله لا يقال

(١) جمع شفع، وهو العدد الذى يقبل القسمة على آثنين.

من جهة الرأى ، فهو مرفوع . والله أعلم . وقال سعيد بن المسيب فى الموطا : [مَنْ شهد العشاءَ من ليلة القدْر ، فقد أخذ بحظّه منها](١) ، ومثله لا يُدْرك بالرأى . وقد رَوَى عُبَيد الله ابن عامر بن ربيعة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من صلى صلاة المغرب والعشاء الآخرة من ليلة القدر فى جماعة(٢) فقد أخذ بحظه من ليلة القدر " ذكره الثعلبى فى تفسيره . وقالت عائشة رضى الله عنها : قلت : يارسولَ الله إن وافقتُ ليلةَ القدْرِ فما أقول ؟ قال : " قُولِى اللهم إنك عَفُوٌّ تُحِبّ العفوَ فاعفُ عنِّى " .

تفسير سورة « لم يكن »

وهى مكية فى قول يحيى بن سلّام . ومدنية ، فى قول ابن عباس والجمهور . وهى تسع آيات(٣) .

وقد جاء فى فضلها حديث لا يصحّ ، رويناه عن محمد بن عبد الله الحضرمىّ قال : قال لى أبو عبد الرحمن بن نُمَير : اذهب إلى أبى الهيثم الخشاب ، فاكتب عنه فإنه قد كتب ؛ فذهب إليه ، فقال : حدّثنا مالك بن أنس ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيّب ، عن أبى الدرداء ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو يعلم الناس ما فى [لَمْ يَكُنِ] الذين كفروا مِن أهل الكِتابِ ، لعطّلوا الأهل والمال ، فتعلموها " فقال رجل من خزاعة : وما فيها من الأجر يا رسول الله ؟ قال : " لا يقرؤها منافق أبدا ، ولا عبد فى قلبه شك فى الله . والله إن الملائكة المقربين يقرءونها مُنذُ(٤) خَلَقَ الله السموات والأرضَ ما يَفْتُرُون من قراءتها . وما من عبد يقرؤها إلا بعث الله إليه ملائكة يحفظونه فى دينه ودنياه ، ويدعون له بالمغفرة والرحمة " . قال الحَضرمىّ : فجئت إلى أبى عبد الرحمن بن نُمير ، فألقيت هذا الحديث عليه ، فقال : هذا

---

(١) ما بين المربعين زيادة من الموطأ . (٢) الذى فى نسخة تفسير الثعلبى التى بين أيدينا : " من صلى المغرب والعشاء الآخرة من ليلة القدر فقد أخذ ... " الحديث . ولم يذكر : « فى جماعة » . (٣) فى مصاحفنا : « ثمان آيات » . وفى تفسير الآلوسى : وآيها تسع فى البصرى ، وثمان فى غيره » . (٤) فى بعض نسخ الأصل : « قبل خلق السموات ... »

قد كفانا مئونته، فلا تعد إليه . قال ابن العربي : « روى إسحاق بن بشر الكاهلي عن مالك ابن أنس، عن يحيى بن سعيد، عن ابن المسيّب : عن أبي الدرداء، عن النبي صلى الله عليه وسلم : "لو يعلم الناس ما في [لم يكن] الذين كفروا، لعطلوا الأهل والمال ولتعلموها"(١) . حديث باطل؛ وإنما الحديث الصحيح ما روى عن أنس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبيّ بن كعب : " إن الله أمرني أن أقرأ عليك « لم يكن الذين كفروا » " قال : وسماني لك!؟ قال " نعم " فبكى .

قلت : خرّجه البخاري ومسلم . وفيه من الفقه قراءة العالِم على المتعلم . قال بعضهم : إنما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم على أُبيّ، ليعلم الناس التواضع؛ لئلا يأنف أحد من التعلم والقراءة على من دونه في المنزلة . وقيل : لأن أُبيا كان أسرع أخذاً لألفاظ رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فأراد بقراءته عليه، أن يأخذ ألفاظه ويقرأ كما سمع منه، ويعلم غيره . وفيه فضيلة عظيمة لأبيّ؛ إذ أمر الله رسوله أن يقرأ عليه . قال أبو بكر الأنباري : وحدّثنا أحمد بن الهيثم بن خالد، قال حدّثنا علي بن الجعد، قال حدثنا عكرمه عن عاصم عن زِرّ بن حبيش قال : في قراءة أبيّ بن كعب : ابن آدم لو أُعطِي واديا من مال لالتمس ثانيا ولو أعطى واديين من مال لالتمس ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب . قال عكرمة : قرأ عليّ عاصم « لم يَكُنْ » ثلاثين آية، هذا فيها . قال أبو بكر : هذا باطل عند أهل العلم؛ لأن قراءتي ابن كثير وأبي عمرو متصلتان بأبيّ بن كعب، لا يُقْرأ فيهما هذا المذكور في « لم يكن » مما هو معروف في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، على أنه من كلام الرسول عليه السلام، لا يحكيه عن رب العالمين في القرآن . وما رواه اثنان معهما الإجماع : أثبت مما يحكيه واحد مخالف مذهب الجماعة .

---

(١) في الرواية الأولى للحديث ص ١٣٨ : (فتعلموها) .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ كذا قراءة العامة، وخَطُّ المصحف . وقرأ ابن مسعود « لَمْ يَكُنِ الْمُشْرِكونَ وأهْلُ الكِتَابِ مُنْفَكِّينَ » وهذه قراءة على التفسير . قال ابن العربيّ : « وهي جائزة في مَعرِض البيان، لا في مَعْرِض التلاوة؛ فقد قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم في رواية الصحيح « فَطَلِّقُوهنّ لِقُبُل عِدّتِهِنّ » وهو تفسير؛ فإنّ التلاوة : هو ما كان في خطّ المصحف » .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَهلِ الكِتابِ ﴾ يعني اليهود والنصارى . ﴿ والمُشْرِكِينَ ﴾ في موضع جر عطفا على «أهل الكتاب» . قال ابن عباس : «أهلُ الكتاب» : اليهود الذين كانوا بيثرب، وهم قُرَيظة والنَّضِير وبنو قَيْنُقاع . والمشركون : الذين كانوا بمكة وحولها، والمدينة والذين حولها؛ وهم مشركو قريش . ﴿ مُنْفَكِّينَ ﴾ أي منتهين عن كفرهم، مائلين عنه . ﴿ حَتَّى تأْتِيَهم ﴾ أي أتتهم البينة؛ أي محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : الانتهاء بلوغ الغاية؛ أي لم يكونوا ليبلغوا نهاية أعمارهم فيموتوا، حتى تأتيهم البينة . فالانفكاك على هذا بمعنى الانتهاء . وقيل : « مُنْفَكِّينَ » زائلين؛ أي لم تكن مدتهم لتزول حتى يأتيهم رسول . والعرب تقول : ما انفككتُ أفعل كذا : أي ما زلت . وما انفك فلان قائما : أي ما زال قائما . وأصل الفَكّ : الفتح؛ ومنه فك الكتاب، وفَكُّ الخلخال، وفك السالم[1] . قال طَرَفة :

فآلَيتُ لا ينفَكُّ كَشْحِي بطانةً * لِعَضْبٍ رقيق الشَّفْرَتَيْنِ مُهَنَّدِ[2]

(١) كذا في بعض نسخ الأصل . وفي بعضها : « فك السالم وهي قال طرفة » . بياض بعد « وهي » . وفي تفسير الثعلبي : «وفك السالم وهي حروف القطن قال طرفة» . ولم نهتد لوجه الصواب فيه . (٢) الكشح : الجنب والعضب : السيف القاطع . ومهند : أي مشحذ؛ والتهنيد : التشحيذ . ويقال : سيف مهند : إذا عمل ببلاد الهند .

وقال ذو الرُّمّة :

حراجيج ما تنفكّ إلا مُناخةً * على الخَسْف أو نَرمِى به بلدًا قفرا[1]

يريد : ما تنفكُّ مُناخةً ، فزاد « إلا » . وقيل : « مُنْفَكِّين » بارحين ؛ أى لم يكونوا ليبرحوا ، ويفارقوا الدنيا حتى تأتيهم البيّنة . وقال ٱبن كَيْسان : أى لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد صلى الله عليه وسلم فى كتابهم حتى بُعِث ؛ فلما بعث حسدوه وجحدوه . وهو كقوله : « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ »[2] . ولهذا قال : « وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » الآية . وعلى هذا فقوله : «والمشركين» أى ما كانوا يسيئون القول فى محمد صلى الله عليه وسلم حتى بُعث ؛ فإنهم كانوا يسمونه الأمين ، حتى أتتهم البينة على لسانه وبُعث إليهم فحينئذ عادوه . وقال بعض اللغويين : « منفكين » هالكين ؛ من قولهم : انفك صَلاَ[3] المرأة عند الولادة ؛ وهو أن ينفصل فلا يلتئم فتهلك . المعنى : لم يكونوا معذبين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسل و إنزال الكتب . وقال قوم فى المشركين : إنهم من أهل الكتاب ؛ فمن اليهود من قال : عُزَيْر ابن الله . ومن النصارى من قال : عيسى هو الله . ومنهم من قال : هو ٱبنه . ومنهم من قال : ثالث ثلاثة . وقيل : أهل الكتاب كانوا مؤمنين ثم كفروا بعد أنبيائهم . والمشركون وُلِدُوا على الفِطْرة فكفروا حين بلَغُوا . فلهذا قال : «والمشركين» . وقيل : المشركون وصف أهل الكتاب أيضا ، لأنهم لم ينتفعوا بكتابهم وتركوا التوحيد . فالنصارى مُثَلِّثة ، وعامة اليهود مُشَبِّهة ؛ والكل شِرْك . وهو كقولك : جاءنى العقلاء والظرفاء ؛ وأنت تريد أقواما بأعيانهم تصفهم بالأمرين . فالمعنى : من أهل الكتاب المشركين . وقيل : إن الكفر هنا هو الكفر بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أى لم يكن الذين كفروا بمحمد من اليهود والنصارى الذين هم أهل الكتاب ، ولم يكن المشركون الذين هم عبدة

---

(١) الحراجيج (جمع حرجوج) : وهى الناقة الطويلة الضامرة . والخسف : أن تبيت على غير علف . يقول : ما تنفصل من بلد إلى بلد إلا مناخة على الخسف .

(٢) آية ٨٩ سورة البقرة .

(٣) الصلا : وسط الظهر من الإنسان ومن كل ذى أربع . وقيل : هو ما انحدر من الوركين . وقيل : هو ما عن يمين الذنب وشماله .

الأوثان من العرب وغيرهم — وهم الذين ليس لهم كتاب — مُنْفَكِّين . قال القشيرىّ : وفيه بعد ؛ لأن الظاهر من قوله : « حتّى تأتِيَهُمُ البينةُ . رسول مِن اللهِ » أن هذا الرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم . فيبعد أن يُقال : لم يكن الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم منفكين حتى يأتيهم محمد؛ إلا أن يقال : أراد: لم يكن الذين كفروا الآن بمحمد — وإن كانوا من قبل مُعَظِّمين له ، بمنتهين عن هذا الكفر، إلى أن يبعث الله محمدا إليهم، ويبيّن لهم الآيات؛ فحينئذ يؤمن قوم . وقرأ الأعمش وإبراهيم « والمشركُونَ » رفعا ، عطفا على « الذين » . والقراءة الأولى أبين ؛ لأن الرفع يصير فيه الصنفان كأنهم من غير أهل الكتاب . وفى حرف أبىّ : « فما كان الذين كفروا من أهـل الكتاب والمشركون منفكين » . وفى مصحف ابن مسعود : « لم يكنِ المشركون وأهلُ الكتابِ منفكّين » . وقد تقدم . ﴿ حتّى تأْتِيَهُمُ البينة ﴾ قيل حتى أتتهم . والبيِّنة : محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ رَسولٌ مِن اللهِ ﴾ أى بعيث من الله جل ثناؤه . قال الزَّجّاج : « رسول » رفع على البدل من « البينة » . وقال الفراء : أى هى رسـول من الله ، أو هو رسول من الله؛ لأن البينه قد تذكر فيقال : بينتى فلان . وفى حرف أُبىّ وابن مسعود « رَسُولًا » بالنصب على القطع . ﴿ يتـلو ﴾ أى يقرأ . يقال : تلا يتلو تِلاوة . ﴿ صُحُفًا ﴾ جمع صحيفة، وهى ظرف المكتوب . ﴿ مُطَهَّرَةً ﴾ قال ابن عباس : من الزور، والشك، والنفاق، والضلالة . وقال قتادة : من الباطل . وقيل : من الكذب، والشُّبُهات، والكفر؛ والمعنى واحد . أى يقرأ ما تتضمن الصحف من المكتوب؛ ويدل عليه أنه كان يتلو عن ظهر قلبه، لا عن كتاب؛ لأنه كان أمّيا ، لا يكتب ولا يقرأ . و« مُطَهَّرَةً »: من نعت الصحف ؛ وهو كقوله تعالى : « فِي صُحُفٍ مكرمةٍ . مرفوعةٍ مطهرةٍ » (١) ، فالمطهرة نعت للصحف فى الظاهر ، وهى نعت لما فى الصحف من القرآن . وقيل : « مطهرة » أى ينبغى ألا يَمَسَّها إلا المطهرون؛ كما قال فى سورة « الواقعة » (٢) حسب ما تقدّم بيانه . وقيل : الصحف المطهرة : هى التى عند الله فى أم الكتاب ، الذى منـه نُسِخ ما أنزل على الأنبياء

(١) آية ١٣ سورة عبس . (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٢٥ فما بعدها .

من الكتب ؛ كما قال تعالى : « بل هو قرآن مجيد . في لوح محفوظ[١] » . قال الحسن : يعني الصحف المطهرة في السماء . ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ أى مستقيمة مستوية محكمة ؛ من قول العرب : قام يقوم : إذا استوى وصح . وقال بعض أهل العلم : الصحف هي الكتب ؛ فكيف قال في صحف فيها كتب ؟ فالجواب : أن الكتب هنا : بمعنى الأحكام ؛ قال الله عز وجل : « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ[٢] » بمعنى حكم . وقال صلى الله عليه وسلم : " والله لأقضين بينكما بكتاب الله " ثم قضى بالرجم ، وليس ذِكر الرجم مسطورا في الكتاب ؛ فالمعنى لأقضين بينكما بحكم الله تعالى . وقال الشاعر :

وما الولاءُ بالبَلاءِ[٣] فِمِلْتُمُ * وما ذاكَ قال اللهُ إذ هو يَكْتُبُ

وقيل : الكتب القيمة : هي القرآن ؛ فجعله كتبا لأنه يشتمل على أنواع من البيان .

قوله تعالى : وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وما تَفَرَّق الذين أُوتُوا الكِتَابَ ﴾ أى من اليهود والنصارى . خصّ أهل الكتاب بالتفريق دون غيرهم ، وإن كانوا مجموعين مع الكافرين ؛ لأنهم مظنون بهم عِلم ؛ فإذا تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل في هذا الوصف . ﴿ إلا مِن بعدِ ما جاءتهم البينة ﴾ أى أتتهم البينة الواضحة . والمعنِيّ به محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أى القرآن موافقا لما في أيديهم من الكتاب بنعته وصفته . وذلك أنهم كانوا مجتمعين على نبوّته ؛ فلما بعث جحدوا نبوّته وتفرّقوا ، فمنهم من كفر : بغيا وحسدا ، ومنهم من آمن ؛ كقوله تعالى : «وما تفرقوا إلا مِن بعدِ ما جاءهم العِلم بغيا بينهم[٤]» . وقيل : « البينة » : البيان الذى في كتبهم أنه نبي مرسل . قال العلماء : مِن أول السورة إلى قوله « قَيِّمَةٌ » : حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين . وقوله : «وما تفرق» : حكمه فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيام الحُجَج .

---

(١) آخر سورة البروج . (٢) آية ٢١ سورة المجادلة . (٣) كذا في الأصل ، ولم نقف على هذا البيت فيما لدينا من المراجع . ولعل صوابه : * وما الولاة بالبلاء فلتم ... الخ *

(٤) آية ١٤ سورة الشورى .

قوله تعالى : وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وما أُمِرُوا ﴾ أى وما أمر هؤلاء الكفار فى التوراة والإنجيل ﴿ إلا لِيَعْبُدُوا اللهَ ﴾ أى ليوحدوه. واللام فى « ليعبدوا » بمعنى « أن » ؛ كقوله : « يُرِيد اللهُ لِيُبين لكُمْ » [1] أى أن يبين . و « يريدون لِيطفِئوا نور اللهِ » [2] . و « أُمِرْنا لِنُسْلِم لِرب العالمين » [3] . وفى حرف عبد الله : « وما أُمِروا إلّا أَنْ يَعبدوا الله » . ﴿ مُخْلِصين له الدين ﴾ أى العبادة ؛ ومنه قوله تعالى : « قُلْ إنّى أُمِرْتُ أنْ أعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا له الدِّينَ » [4] . وفى هــذا دليل على وُجوب النية فى العبادات ؛ فإن الإخلاص من عمل القلب، وهو الذى يراد به وجه الله تعالى لا غيره.

الثانيــــة — قوله تعــالى: ﴿ حُنَفَاءَ ﴾ أى مائلين عن الأديان كلها، إلى دين الإسلام، وكان ٱبن عباس يقول: حُنفاء : على دِين إبراهيم عليه السلام . وقيل : الحَنِيف : من ٱختتن وحج؛ قاله سعيد بن جبير . قال أهل اللغة : وأصله أنه تَحَنَّفَ إلى الإسلام؛ أى مال إليه .

الثالثــــة — قوله تعــالى : ﴿ ويُقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ أى بحدودها فى أوقاتها . ﴿ ويُؤْتُوا الزَّكاةَ ﴾ أى يُعطوها عند محلها . ﴿ وذلِك دِينُ القَيِّمةِ ﴾ أى ذلك الدين الذى أُمِروا به دِين القَيِّمة؛ أى الدين المستقيم . وقال الزجاج : أى ذلك دِين المِلَّة المستقيمة . و « القَيِّمة » : نعت لموصــوف محذوف . أو يقال : دِين الأمة القَيِّمة بالحق ؛ أى القائمــة بالحقّ . وفى حرف عبد الله « وذلك الدين القَيِّم » . قال الخليل : « القَيِّمة » جمع القيم ، والقيم والقائم : واحد . وقال الفراء : أضاف الدين إلى القيمة وهو نعته ، لٱختلاف اللفظين . وعنه أيضا : هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه ، ودخلت الهــاء للمدح والمبالغة . وقيــل : الهــاء راجعة إلى المــلة أو الشريعة . وقال محمد بن الأشعث الطالقانِى : « القَيِّمة » هاهنا : الكتب التى جرى ذكرها ، والدين مضاف إليها .

---

(١) آية ٢٦ سورة النساء. (٢) آية ٨ سورة الصف. (٣) آية ٧١ سورة الأنعام. (٤) آية ١١ سورة الزمر.

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُولَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُولَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ والْمُشْرِكِينَ ﴾ «المشركين» : معطوف على « الَّذين »، أو يكون مجرورا معطوفا على « أهل » . ﴿ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ قرأ نافع وآبن ذكوان بالهمز على الأصل فى الموضعين ؛ من قولهم : بَرَأَ الله الخلق ، وهو البارئ الخالق، وقال : « مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا »(١) . الباقون بغير همز، وشدّ الياء عِوضا منه. قال الفرّاء: إن أُخذت البريّة من البَرَى، وهو التراب، فأصله غير الهمز ؛ تقول منه : بَرَاه الله يبرُوه بَرْوًا ؛ أى خلقه . قال القُشَيْرِىّ : ومن قال البَرِية من البرَى ، وهو التراب، قال : لا تدخل الملائكة تحت هذه اللفظة. وقيل: البَرِيَّة: مِن بَرَيْت القلمَ، أى قدّرته ؛ فتدخل فيه الملائكة . ولكنه قول ضعيف ؛ لأنه يجب منه تخطئة من هَمَز . وقوله « شَرُّ البَرِيَّة » أى شر الخليقة . فقيل يحتمل أن يكون على التعميم . وقال قوم : أى هم شر البرية الذين كانوا فى عصر النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ كما قال تعالى : « وأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ على العالَمِين »(٢) أى على عالَمِى زمانكم . ولا يبعد أن يكون فى كفار الأمم قبل هذا من هُو شر منهم ؛ مثل فرعون وعاقر ناقة صالح . وكذا « خَيْرُ البَرِيَّة » : إمّا على التعميم، أو خير بَرِيَةِ عصرهم . وقد آستدل بقراءة الهمز من فضّل بنى آدم على الملائكة ، وقد مضى فى سورة « البقرة » القول فيه(٣) . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : المؤمنُ أكرم على الله عز وجل من بعض الملائكة الذين عنده .

---

(١) آية ٢٢ سورة الحديد .		(٢) آية ٤٧ سورة البقرة .

(٣) راجع جـ ١ ص ٢٨٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ جَزَاؤُهم ﴾ أى ثوابهم . ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أى خالقهم ومالكهم . ﴿ جَنَّاتُ ﴾ أى بساتين . ﴿ عَدْنٍ ﴾ أى إقامة . والمفسرون يقولون : « جَنَاتُ عَدْنٍ » بُطْنانُ الجنةِ، أى وَسَطُها ؛ تقول : عَدَن بالمكان يَعْدِن [عَدْنا وعُدُونا] : أقام . ومعدِن الشيء : مَرْكزه ومستقرّه . قال الأعشى :

وإنْ يُسْتضافوا إلى حُكْمِه * يُضَافُوا إلى رَاجِحٍ قَدْ عَدَنْ

﴿ تَجْرِى مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أبَدًا ﴾ لا يَظْعَنون ولا يموتون . ﴿ رَضِىَ اللهُ عنهمْ ﴾ أى رضِى أعمالهم ؛ كذا قال ابن عباس . ﴿ ورَضُوا عنه ﴾ أى رَضُوا هم بثواب الله عز وجل . ﴿ ذَلِكَ ﴾ أى الجنة . ﴿ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّه ﴾ أى خاف ربه ، فتناهى عن المعاصى .

سورة « الزَّلْزَلَة »

مدنية ، فى قول ابن عباس وقتادة . ومكية ؛ فى قول ابن مسعود وعطاء وجابر . وهى تسع آيات[1]

قال العلماء : وهذه السورة فضلها كثير ، وتحتوى على عظيم : رَوَى الترمذيّ عن أنس ابن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ « إذَا زُلْزِلَتْ » ، عدلت له بنصف القرآن . ومن قرأ « قل يَأَيُّها الكافِرونَ » عدلت له بربع القرآن ، ومن قرأ « قُلْ هو الله أحد » عدلت له بثُلُث القُرْآن " قال : حديث غريب ، وفى الباب عن ابن عباس . ورُوِى عن علىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ إذا زلزلت أربع مرات ، كان كمن قرأ القرآن كله " . وروى عبد الله بن عمرو بن العاص قال : لما نزلت « إذَا زُلْزِلَت » بكى أبو بكر ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ " لَوْلَا أَنَّكُمْ تُخطِئُون وتُذْنبون ويغفر اللهُ لكُمْ ، لخلَق أمة يُخطئون ويذنبون ويغفر لهم ، إنه هو الغفورُ الرَّحيم " .

---

(١) فى حاشية الشهاب : « آيها تسع أو ثمان » .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾

أى حرّكت من أصلها . كذا روى عكرمة عن ابن عباس ، وكان يقول : فى النفخة الأولى يزلزلها — وقاله مجاهد — ؛ لقوله تعالى : « يومَ ترجُف الراجفة . تتبعها الرادفة »(١) ثم تزلزل ثانية ، فتُخرج موتاها وهى الأثقال . وذُكر المصدر للتأكيد ، ثم أضيف إلى الأرض ؛ كقولك : لأُعطينّك عطيتك ؛ أى عطيتى لك . وحسن ذلك لموافقة رءوس الآى بعدها . وقراءة العامة بكسر الزاى من الزلزال . وقرأ الجحدرىّ وعيسى بن عمر بفتحها ، وهو مصدر أيضا ، كالوَسواس والقَلقال والجَرجار(٢) . وقيل : الكسر المصدر . والفتح الاسم .

قوله تعالى : وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾

قال أبو عبيدة والأخفش : إذا كان الميت فى بطن الأرض ، فهو ثِقل لها . وإذا كان فوقها ، فهو ثِقل عليها . وقال ابن عباس ومجاهد : « أثقالها » : موتاها ، تُخرجهم فى النفخة الثانية ، ومنه قيل للجن والإنس : الثَّقلان . وقالت الخنساء :

أبعدَ ابنِ عمرٍو مِنَ آل الشريد * حلّتْ به الأرضُ أثقالَها

تقول : لما دفن عمرو صار حِلية لأهل القبور ، من شرفه وسؤدده . وذكر بعض أهل العلم قال : كانت العرب تقول : إذا كان الرجل سفاكا للدماء : كان ثِقلا على ظهر الأرض ؛ فلما مات حطّت الأرض عن ظهرها ثِقْلها . وقيل : « أَثْقَالَهَا » كنوزها ؛ ومنه الحديث : " تقيء الأرض أفلاذَ كبِدها أمثال الأسطوان(٣) من الذهب والفضة ... " .

---

(١) آية ٦ سورة النازعات .

(٢) القلقال : من قلقل الشىء إذا حركه . والجرجار : من جرجر البعير إذا ردّد صوته فى حنجرته .

(٣) الأسطوان : جمع أسطوانة ، وهى السارية والعمود ؛ وشبهه بالأسطوان لعظمه وكثرته .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وقال الإنسانُ ﴾ أى ابن آدم الكافر . فروى الضحاك عن ابن عباس قال : هو الأسود بن عبد الأسد . وقيل : أراد كل إنسان يشاهد ذلك عند قيام الساعة فى النفخة الأولى : من مؤمن وكافر . وهذا قول من جعلها فى الدنيا من أشراط الساعة؛ لأنهم لا يعلمون جميعا مِن أشراط الساعة فى ابتداء أمرها، حتى يتحققوا عمومها ؛ فلذلك سأل بعضهم بعضا عنها . وعلى قول من قال : إن المراد بالإنسان الكفار خاصة، جعلها زلزلة القيامة؛ لأن المؤمن معترف بها، فهو لا يَسأل عنها، والكافر جاحد لها، فلذلك يَسأل عنها . ومعنى ﴿ مَا لَهَا ﴾ أى مالها زُلزلت . وقيل : مالها أَخرجَتْ أثقالها ، وهى كلمة تعجيب ؛ أى لأىّ شىء زلزلت . ويجوز أن يحيى الله الموتى بعد وقوع النفخة الأولى، ثم تتحرك الأرض فتخرج المَوْتَى وقد رأوا الزلزلة وانشقاق الأرض عن الموتى أحياء ، فيقولون من الهول : مالَهَا .

قوله تعالى : يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخبارَها﴾ «يومئذ» منصوب بقوله « إذا زلزلت» .وقيل : بقوله « تُحَدِّثُ أَخبارها »؛ أى تخبر الأرضُ بما عُمِل عليها من خير أو شر يومئذ . ثم قيل : هو من قول الله تعالى . وقيل : مِن قول الإنسان؛ أى يقول الإنسان مالها تحدث أخبارها؛ متعجبا . وفى الترمذى عن أبى هريرة قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية « يومئذ تُحَدِّثُ أَخبارها » قال : " أتدرُون ما أخبارُها — قالوا الله ورسوله أعلم، قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أَمَة بما عَمِل على ظهرها، تقول عمل يوم كذا، كذا وكذا . قال : فهذه أَخبارُها " . قال : هذا حديث حسن صحيح . قال الماوردىّ ، قوله « يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخبارَها » : فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها — «تُحَدِّثُ أَخبارَها» بأعمال العباد على ظهرها؛ قاله أبو هريرة، ورواه مرفوعا. وهو قول من زعم أنها زَلزلة القيامة .

الثاني — تُحَدِّث أخبارها بما أخرجت من أثقالها؛ قاله يحيى بن سلام. وهو قول من زعم أنها زَلزلة أشراط الساعة.

قلت: وفي هذا المعنى حديث رواه ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه قال: "إذا كان أجلُ العبد بأرض أَوثبَتْه الحاجة إليها، حتى إذا بلغ أقصى أثره قبضه الله، فتقول الأرض يوم القيامة: رَبِّ هذا ما استودعتني". أخرجه ابن ماجه في سُنَنه. وقد تقدم.(1)

الثالث — أنها تُحَدِّث بقيام الساعة إذا قال الإنسان ما لَها؟ قاله ابن مسعود. فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى، وأمر الآخرة قد أتى. فيكون ذلك منها جوابا لهم عند سؤالهم، ووعيدا للكافر، و إنذارا للمؤمن. وفي حديثها بأخبارها ثلاثة أقاويل:

أحدها — أن الله تعالى يَقْلِبها حيوانا ناطقا؛ فتتكلم بذلك.

الثاني — أن الله تعالى يُحْدِث فيها الكلام.

الثالث — أنه يكون منها بيان يقوم مقام الكلام. قال الطبري: تُبين أخبارها بالرَّجة والزلزلة و إخراج الموتى. ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ أي إنها تحدّث أخبارها بوحي الله «لها»، أي إليها. والعربُ تضع لام الصفة موضع «إلى». قال العجّاج يصف الأرض:

وَحَى لَها القَرَار فَاستَقرّتِ * وشَدَّها بالرّاسيات الثُّبّتِ

وهذا قول أبي عبيدة: «أَحَى لها» أي إليها. وقيل: «أَوْحَى لهَا» أي أمرها؛ قاله مجاهد. وقال السدّي: «أَوْحَى لها» أي قال لها. وقيل: سخرها. وقيل: المعنى يوم تكون الزلزلة، و إخراج الأرض أثقالها، تحدث الأرض أخبارها؛ ما كان عليها من الطاعات والمعاصي، وما عمل على ظهرها من خير وشر. ورُوي ذلك عن الثوري وغيره. ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ أي فِرقًا؛ جمع شَتّ. قيل: عن موقف الحساب؛ فريق يأخذ جهة اليمين إلى الجنة، وفريق آخر يأخذ جهة الشمال إلى النار؛ كما قال تعالى: «يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ»(2) «يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ»(3). وقيل: يرجعون عن الحساب بعد فراغهم من الحساب. ﴿ أشتاتا ﴾

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٨٣. (٢) آية ١٤ سورة الروم. (٣) آية ٤٣ سورة الروم.

يعنى فِرقا فِرقا . ﴿ لِيُرَوا أعمالهم ﴾ يعنى ثواب أعمالهم . وهذا كما رُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما من أحدٍ يوم القيامة إلّا وَيَلُومُ نفسه ، فإن كان محسِنا فيقول : لِمَ لا ٱزددت إحسانا ؟ وإن كان غير ذلك يقول : لِمَ لا نَزَعت عن المعاصى " ؟ وهذا عند معاينة الثواب والعقاب . وكان ٱبن عباس يقول : « أشتاتا » متفرقين على قدر أعمالهم أهل الإيمان على حِدة ، وأهل كل دين على حدة . وقيل : هذا الصدور، إنما هو عند النشور؛ يَصْدُرون أشتاتا من القبور ، فيصار بهم إلى موقف الحساب ، ليُرَوا أعمالَهم فى كتبهم ، أو لِيُرَوا جزاء أعمالهم ؛ فكأنهم وردوا القبور فدفِنوا فيها ، ثم صدروا عنها . والوارد : الجائى . والصادر : المنصرف . ﴿ أشتاتا ﴾ أى يبعثون من أقطار الأرض . وعلى القول الأول فيه تقديم وتأخير ؛ مجازه : تحدّث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها ، ليروا أعمالهم . واعترض قوله « يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا » متفرقين عن موقف الحساب . وقراءة العامة لِيُرَوا » بضم الياء؛ أى لِيريَهم الله أعمالهم . وقرأ الحسن والزهرىّ وقتادة والأعرج ونصر ابن عاصم وطلحة بفتحها ؛ وروى ذلك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثقالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ كان ٱبن عباس يقول : مَن يعمَل من الكفار مثقال ذرّة خيرا يَرَهُ فى الدنيا ، ولا يُثاب عليه فى الآخرة ، ومن يعمل مثقال ذرّة من شر عُوقب عليه فى الآخرة ، مع عقاب الشرك ، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من المؤمنين يَرَهُ فى الدنيا ، ولا يعاقَبْ عليه فى الآخرة إذا مات ، ويُتجاوز عنه ، وإن عمل مثقال ذرّة من خير يُقْبَلْ منه ، ويضاعف له فى الآخرة . وفى بعض الحديث : " الذرّة لا زِنة لها " وهذا مَثَلٌ ضَرَبه الله تعالى : أنه لا يُغْفِل من عمل ٱبن آدمَ صغيرةً ولا كبيرة . وهو مِثل قوله تعالى :

« إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ »[١] . وقد تقدم الكلام هناك فى الذرّ ، وأنه لا وزن له . وذكر بعض أهل اللغة أن الذرّ : أن يضرب الرجل بيده على الأرض ، فما علق بها من التراب فهو الذّرّ ، وكذا قال ابن عباس : إذا وضعت يدك على الأرض ورفعتها ، فكل واحد مما لزق به من التراب ذَرَّة . وقال محمد بن كعب القُرَظى : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّة مِنْ خَيْرٍ من كافر، يرى[٢] ثوابه فى الدنيا ، فى نفسه وماله وأهله وولده ، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير . ومن يعمل مثقال ذرّة من شرّ من مُؤْمن ، يرى[٢] عُقوبته فى الدنيا ، فى نفسه وماله وولده وأهله ، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شرّ . دليله ما رواه العلماء الأثبات من حديث أنس : أن هذه الآية نزلت على النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يأكل ، فأمسك وقال : يا رسول الله ، وإنا لنُرَى ما عَمِلْنا من خير وشرّ ؟ قال : " ما رأيت مما تكره فهو مثاقيل ذرّ الشرّ ، ويُدَّخر لكم مثاقيلُ ذَرّ الخير ، حتى تُعْطَوْه يومَ القِيامة " . قال أبو إدريس : إن مِصْداقه فى كتاب الله : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِن مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُم، وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ »[٣] . وقال مقاتل : نزلت فى رجلين ، وذلك أنه لما نزل « وَيُطْعِمُونَ الطعامَ على حُبِّهِ »[٤] كان أحدهم يأتيه السائل ، فيستقل أن يعطيه التمرة والكِسرة والجوزة[٥] . وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير ، كالكَذبة والغِيبة والنظْرة ، ويقول : إنما أوعد الله النار على الكبائر ؛ فنزلت ترغبهم فى القليل من الخير أن يُعْطُوه ؛ فإنه يوشك أن يكثُر ، ويُحذِّرهم اليسيرَ من الذنب ، فإنه يوشك أن يكثُر ؛ وقاله سعيد بن جبير . والإثم الصغير فى عين صاحبه يوم القيامة أعظم من الجبال ، وجميع محاسنه أقل فى عينه من كل شىء .

الثانيــة ـــ قراءة العامة « يَرَهْ » بفتح الياء فيهما . وقرأ الجَحْدَرىّ والسُّلَمِىّ وعيسى ابن عمر وأبان عن عاصم : « يُرَهْ » بضم الياء ؛ أى يُريه اللهُ إياه . والأَوْلَى الاختيار ؛ لقوله تعالى : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نفسٍ ما عمِلت مِن خيرٍ مُحْضَرًا »[٦] الآية . وسكن الهاء فى قوله « يَرَه »

---

(١) آية ٤٠ سورة النساء . راجع جـ ٥ ص ١٩٥ . (٢) كذا فى الأصل وبعض كتب التفسير بإثبات الياء . والراجح حذفها . (٣) آية ٣٠ سورة الشورى . (٤) آية ٨ سورة الإنسان . (٥) الجوزة : واحدة الجوز الذى يؤكل ؛ فارسى معرب . (٦) آية ٣٠ سورة آل عمران .

فى الموضعين هشام. وكذلك رواه الكسائى عن أبى بكر وأبى حَيْوة والمغيرة . واختلس يعقوب والزهرى والجحدرى وشيبة . وأشبع الباقون . وقيل « يَرَه » أى يرى جزاءه ؛ لأن ما عمله قد مضى وعُدم فلا يُرَى . وأنشدوا :

إنّ من يَعتدِى و يَكْسِبُ إثْما * وَزْنَ مِثْقالِ ذَرّة سَيَرَاهُ
ويُجَازَى بفعله الشرّ شرا * و بفعل الجميلِ أيضا جَزَاهُ
هكذا قوله تبارك ربّى * فى إذا زُلزلت وجَلّ ثَناه

الثالثة — قال ابن مسعود : هذه أحكم آية فى القرآن ؛ وصَدَق . وقد اتفق العلماء على عموم هذه الآية ؛ القائلون بالعموم ومن لم يقل به . وروى كعب الأحبار أنه قال: لقد أنزل الله على محمد آيتين أحْصَتَا ما فى التوراة والإنجيل والزّبور والصُّحُف : « فمن يعمل مِثقال ذرةٍ خيرا يره . ومن يعمل مِثقال ذرةٍ شرا يره » . قال الشيخ أبو مَدْين فى قوله تعالى : « فمن يعمل مِثقال ذرةٍ خيرا يره » قال: فى الحال قبل المآل. وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يسمى هذه الآية الآية الجامعة الفاذة؛ كما فى الصحيح لما سئل عن الحُمُر وسكت عن البغال، والجواب فيهما واحد؛ لأن البغل والحمار لا كَرّ فيهما ولافرّ؛ فلما ذكر النبيّ صلى الله عليه وسلم مافى الخيل من الأجر الدائم، والثواب المستمر، سأل السائل عن الحُمُر، لأنهم لم يكن عندهم يومئذ بَغْل، ولا دخل الحجاز منها إلا بغلة النبيّ صلى الله عليه وسلم « الدُّلْدُل »، التى أهداها له المقوقس، فأفتاه فى الحَمِير بعموم الآية، و إن فى الحمار مثاقيل ذرّ كثيرة؛ قاله ابن العربيّ . وفى الموطأ: أن مِسْكينا استطعم عائشة أم المؤمنين و بين يديها عِنَب؛ فقالت لإنسان: خذ حبة فأعطه إياها . فجعل ينظر إليها و يعجب؛ فقالت : أتعجب! كم ترى فى هذه الحَبة من مثقال ذرّة . وروى عن سعد بن أبى وَقّاص : أنه تصدق بتمرتين ، فقبض السائل يده ، فقال للسائل: و يقبل الله منا مثاقيل الذر، وفى التمرتين مثاقيل ذر كثيرة. وروى المُطّلب بن حَنْطَب: أن أعرابيا سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرؤها فقال : يا رسول الله ، أمثقالُ ذرّة ! قال "نعم" فقال الأعرابيّ : واسَوْأَتَاه ! مِرارا : ثم قام وهو يقولها ؛ فقال النبيّ صلى الله

عليه وسلم : "لقد دَخَل قلبَ الأعرابيّ الإيمانُ" . وقال الحسن : قَدِم صعصعة عمّ الفرزدق[1] على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلما سمع «فَمَنْ يعملْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ» الآيات ؛ قال : لا أبالي ألا أسمع من القرآن غيرها ، حَسْبي ، فقد انتهت الموعظة ؛ ذكره الثعلبي . ولفظ الماوَرْدِيّ : وروى أن صعصعة ابن ناجية جدّ الفرزدق أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم يستقرئه ، فقرأ عليه هذه الآية ؛ فقال صعصعة : حسبي حسبي ؛ إن عَمِلتُ مِثقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا رأيتُه . وروى مَعمر عن زيد ابن أسلم : أن رجلا جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : عَلِّمْني مما علمك الله . فدفعه إلى رجل يعلمه ؛ فعلمه « إذا زُلزلت — حتى إذا بلغ — فمن يعمل مِثقال ذرةٍ خيرا يره . ومن يعمل مِثقال ذرّةٍ شرا يره » قال : حسبي . فأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "دَعُوهُ فإنّه قد فَقُهَ" . ويحكى أن أعرابيا أخّر « خَيْرًا يَرَهُ » فقيل : قدمت وأخرت . فقال :

خذا بطنَ هَرْشَى أو قَفاها فإنهُ * كِلا جانِبَي هَرْشَى لهنّ طرِيق[2]

سورة « والعاديات »

وهى مكية ؛ فى قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء . ومدنية فى قول ابن عباس وأنس ومالك وقتادة . وهى إحدى عشرة اية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَالْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ والعادِيات ضَبحا ﴾ أى الأفراس تعدو . كذا قال عامة المفسرين وأهل اللغة ؛ أى تعدو فى سبيل الله فتضبح . قال قتادة : تضبح إذا عدت ؛ أى تحمحم . وقال

---

(١) قال أبو أحمد العسكرى : « وقد وهم بعضهم فى صعصعة بن معاوية عم الأحنف بن قيس ، فقال : صعصعة عم الفرزدق وهو غلط » . والمعروف أن صعصعة بن ناجية هو جد الفرزدق ، وليس له عم يسمى صعصعة . راجع كتاب الإصابة وأسد الغابة فى ترجمة صعصعة .

(٢) هرشى : ثنية فى طريق مكة قريبة من الجحفة ، يرى منها البحر ، ولها طريقان ، فكل من سلك واحدا منهما أفضى به إلى موضع واحد . فى معجم البلدان لياقوت : خذا أنف هرشى ... وفى اللسان : خذا جنب هرشى ...

الفراء : الضَّبْح : صوت أنفاس الخيل إذا عَدَوْن . ٱبن عباس : ليس شيء من الدواب يَضْبَح غير الفرس والكلب والثعلب . وقيل : كانت تُكَمَّم[1] لئلا تصهل ، فيعلم العدوّ بهم ؛ فكانت تتنفس في هذه الحال بقوّة . قال ٱبن العربي : أقسم الله بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال : « يٰسٓ . والقرآنِ الحكيم » ، وأقسم بحياته فقال : « لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ »[2] ، وأقسم بخيله وصهيلها وغُبارها ، وقدح حوافرها النار من الحجر ، فقال : « والعاديات ضَبْحا » ... الآيات الخمس . وقال أهل اللغة[3] :

وَطَعْنةٍ ذاتِ رَشاشٍ واهِيَهْ * طَعَنْتها عنـدَ صُدُورِ العَادِيَهْ

يعني الخيل . وقال آخر :

والعادياتُ أَسابِيُّ الدماءِ بها * كأنّ أعناقَها أنصاب تَرجِيب[4]

يعني الخيل . وقال عنترة :

والخيل تعلم حين تَضْـ * ـبَحُ فِي حِياضِ المَوْتِ ضَبْحَا

وقال آخر :

لَسْتُ بالتُّبَّعِ اليمانِيِّ إنْ لَمْ * تَضْبَحِ الخيلُ في سَوادِ العِرَاقِ

وقال أهل اللغة : وأصل الضَّبْح والضُّباح للثعالب ؛ فٱستعير للخيل . وهو من قول العرب : ضَبَحَتْه النار : إذا غيرت لونه ولم تبالغ فيه . وقال الشاعر :

فَلَمَّا أَنْ تَلَهْوَجْنَا شِواءً * به اللَّهَبانُ مَقهورًا ضَبِيحًا[5]

وٱنضبح لونه : إذا تغير إلى السواد قليلا . وقال :

* عَلِقْتُها قبلَ ٱنْضِباحِ لَوْنِي *

---

(١) الكمام : شيء يجعل على فم البعير . (٢) آية ٧٢ سورة الحجر . (٣) قوله : « قال أهل اللغة ... » إلى آخر البيت . هكذا ورد في جميع نسخ الأصل ، وظاهر أن فيه سقطا ؛ يوضحه أبو حيان في البحر بقوله : « قال أهل اللغة : أصله للثعلب ، فاستعير للخيل ... » الخ . على أن المؤلف أورده فيما يأتي .

(٤) البيت لسلامة بن جندل . والأسابي : الطرق من الدم . وأسابي الدماء : طرائقها . والترجيب : أن تدعم الشجرة إذا كثر حملها ، لئلا تتكسر أغصانها . قال ابن منظور : « فإنه شبه أعناق الخيل بالمرجب . وقيل : شبه أعناقها بالحجارة التي تذبح عليها النسائك » .

(٥) البيت لمضرس الأسدي . والملهوج من الشواء : الذي لم يتم نضجه . واللهبان : اتقاد النار واشتعالها .

وإنما تَضْبَح هذه الحيوانات إذا تغيرت حالها من فَزَع وتعب أو طمع . ونصب « ضَبْحا » على المصدر ؛ أى والعاديات تضبحُ ضَبْحًا . والضبح أيضا[1] الرماد . وقال البصريون : « ضَبْحًا » نصب على الحال . وقيل : مصدر فى موضع الحال . قال أبو عبيدة : ضَبَحَتِ الخيل ضَبْحًا مثل ضَبَعَتْ ؛ وهو السير . وقال أبو عبيدة : الضَّبْح والضَّبْع : بمعنى العدو والسير . وكذا قال المبرد : الضبح مدّ أضباعها فى السير . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سَرِيّة إلى أناس من بنى كِنانة ، فأبطأ عليه خبرها ، وكان آستعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصارى ، وكان أحد النقباء ؛ فقال المنافقون : إنهم قُتلوا ؛ فنزلت هذه السورة إخبارا للنبيّ صلى الله عليه وسلم بسلامتها ، وبشارة له بإغارتها على القوم الذين بعث إليهم . وممن قال: إن المراد بالعاديات الخيل ، آبنُ عباس وأنس والحسن ومجاهد . والمراد الخيل التى يغزو عليها المؤمنون . وفى الخبر : " من لم يعرف حُرْمة فرس الغازى ، ففيه شُعبة من النفاق " .

وقول ثان : أنها الإبل ؛ قال مسلم : نازعتُ فيها عكرمة فقال عكرمة : قال آبن عباس هى الخيل . وقلت : قال علىّ هى الإبل فى الحج ، ومولاى أعلم من مولاك . وقال الشعبىّ : تمارى[2] علىّ وآبن عباس فى « العاديات » ، فقال علىّ : هى الإبل تعدو فى الحج . وقال آبن عباس : هى الخيل ؛ ألا تراه يقول « فأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا » فهل تثير إلا بحوافرها ! وهل تَضْبَحُ الإبل ! فقال علىّ : ليس كما قلت ، لقد رأيتنا يوم بدر وما معنا إلا فرس أبلق للمقداد ، وفرس لمَرْثَد بن أبى مَرْثَد ؛ ثم قال له علىّ : أتفتى الناس بما لا تعلم ! والله إن كانت لأوّل غزوة فى الإسلام وما معنا إلا فرسان : فرس للمقداد ، وفرس للزُّبير ؛ فكيف تكون العادياتِ ضبحا ! إنما العادياتُ الإبل من عَرَفَة إلى المزدلِفة ، ومن المزدلِفة إلى عرفة . قال ابن عباس : فرجعت إلى قول علىّ ، وبه قال ابن مسعود وعبيد بن عمير ومحمد بن كعب والسدّى . ومنه قول صفية بنت عبد المطلب :

فلا والعادياتِ غَداة جَمْع * بأيديها إذا سَطَع الغُبار

---

(١) فى القاموس : « والضبح بالكسر الرماد » . (٢) التمارى والمماراة : المجادلة .

يعنى الإبل . وسميت العاديات لاشتقاقها من العدو، وهو تباعد الأرجل فى سرعة المشى . وقال آخر :

رأى صاحبى فى العادياتِ نَجيبةً * وأمثالَها فى الواضعاتِ القوامِسِ (١)

ومن قال هى الإبل فقوله «ضبحا» بمعنى ضبعا؛ فالحاء عنده مبدلة من العين؛ لأنه يقال : ضبعت الإبل وهو أن تمد أعناقها فى السير . وقال المبرد : الضبع مد أضباعها فى السير . والضبح أكثر ما يستعمل فى الخيل، والضبع فى الإبل. وقد تبدل الحاء من العين. أبو صالح: الضبح من الخيل: الحمحمة، ومن الإبل التنفس . وقال عطاء: ليس شىء من الدواب يَضْبَحُ إلا الفرس والثعلب والكلب؛ وروى عن ابن عباس . وقد تقدّم عن أهل اللغة أن العرب تقول : ضَبَح الثعلب ؛ وضبح فى غير ذلك أيضا . قال توْبة :

ولو أنّ ليلَى الأخيليةَ سَلّمَتْ * علىَّ ودونى تُربةٌ (٢) وصفائحُ

لَسَلّمْتُ تسليمَ البشاشةِ أو زَقَا * إليها صَدًى من جانب القبرِ ضابحُ (٣)

زقا الصدى يزقو زُقاء (٤) : أى صاح . وكل زاقٍ صائح . والزَّقْية: الصيحة . ﴿ فالمورِياتِ قَدْحا ﴾ قال عكرمة وعطاء والضحاك : هى الخيل حين تُورِى النار بحوافرها ، وهى سنابكها ؛ وروى عن ابن عباس . وعنه أيضا : أورت بحوافرها غُبارا . وهذا يخالف سائر ما روى عنه فى قدح النار ؛ وإنما هذا فى الإبل . وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد « والعادياتِ ضَبْحًا . فالمُورِياتِ قَدْحًا » قال قال ابن عباس : هو فى القتال وهو فى الحج. ابن مسعود: هى الإبل تطأ الحصى، فتخرج منها النار. وأصل القَدْح الاستخراج؛

---

(١) فى اللسان مادة (عدا) : «وحكى الأزهرى عن ابن السكيت (وإبل عادية : ترعى الخلة ولا ترعى الحمض...) وقال : وكذلك العاديات» وساق البيت . وفى اللسان أيضا مادة (رضع) : «وناقة واضع وواضعة ونوق واضعات : ترعى الحمض حول الماء . وأنشد ابن برى قول الشاعر . . . » الخ . ولفظ « القوامس » هكذا ورد فى اللسان وشرح القاموس. وبعض نسخ الأصل. وفى نسخة : «القرامس» بالراء. ولعل الصواب : «العرامس» جمع عرمس (بكسر العين) : وهى الناقة الصلبة الشديدة .

(٢) فى نسخة : « جندل » وهى رواية فى البيت . (٣) فى رواية صائح . ولا شاهد فيه .

(٤) فى اللسان : « زقا يزقو ويزقى زقوا وزقاء وزقوا وزقيا وزقيا وزقيا .

ومنه قَدَحْت العين : إذا أخرجت منها الماء الفاسد. واقتدحْت بالزند. واقْتدَحْتُ المرق : غَرفته . ورَكِيٌّ قَدُوح : تغترف باليد . والقَديح : ما يبقى في أسفل القِدر، فيغرف بجَهد . والمِقْدحة: ما تُقْدَح به النار . والقدّاحة والقدّاح: الحجر الذي يُورِي النار. يقال: وَرَى الزند (بالفتح) يرِي وَرْيًا : إذا خرجت ناره . وفيه لغة أخرى: وَرِي الزند (بالكسر) يَرِى فيهما . وقد مضى هذا في سورة « الواقعة »[1] . و « قَدْحًا » انتصب بما انتصب به « ضَبْحًا » .

وقيل : هذه الآيات في الخيل؛ ولكن إيراءها : أن تهيج الحرب بين أصحابها و بين عدوّهم . ومنه يقال للحرب إذا التحمت : حَمِيَ الوَطِيسُ . ومنه قوله تعالى : « كُلَّما أوقَدُوا نارا لِلحَرْبِ أطْفَأها اللهُ »[2] . و روى معناه عن ابن عباس أيضا ، وقاله قتادة . وعن ابن عباس أيضا ، وقاله قتادة . وعن ابن عباس أيضا : أن المراد بالمُورِيات قَدْحا : مَكْرُ الرجال في الحرب ؛ وقاله مجاهد و زيد بن أسلم . والعرب تقول إذا أراد الرجل أن يمكر بصاحبه : واللهِ لأمْكُرَنَّ بك ، ثم لأُورِيَنَّ لك . وعن ابن عباس أيضا : هم الذين يغزُون فيُورون نيرانهم بالليل ، لحاجتهم وطعامهم . وعنه أيضا : أنها نيران المجاهدين إذا كثرت نارها إرهابا . وكل من قرب من العدوّ يُوقد نيرانا كثيرة ليظنهم العدوّ كثيرا . فهذا إقسام بذلك . قال محمد بن كعب : هي النار تجمع . وقيل : هي أفكار الرجال تُورِي نار المكر والخديعة . وقال عكرمة : هي ألْسنة الرجال تُورِي النار من عظيم ما تتكلم به ، و يَظْهر بها ، من إقامة الحُجج، و إقامة الدلائل ، و إيضاح الحق، و إبطال الباطل . وروى ابن جُرَيج عن بعضهم قال : فالمُنجِحات أمْرا وعملا ، كنجاح الزند إذا أورى .

قلت : هذه الأقوال مجاز؛ ومنه قولهم : فلان يُورِي زِناد الضلالة. والأوّل :الحقيقة، وأن الخيل من شِدّة عدوِها تقدح النار بحوافرها . قال مقاتل : العرب تسمى تلك النار نار أبي حُباحِب، وكان أبو حُباحِب شيخا من مُضَر في الجاهلية، من أبخل الناس، وكان لا يُوقد نارا لخبز ولا غيره حتى تنام العيون، فيوقِد نُوَيرةً تقِد مرّة وتخمد أخرى؛ فإن استيقظ لها أحد

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٢١　　(٢) آية ٦٤ سورة المائدة .

أطفاها ، كراهية أن ينتفع بهـا أحد . فشبهت العرب هذه النار بناره؛ لأنه لا يُنتفع بها .
وكذلك إذا وقع السيف على البيضة فٱقتدحت نارا ، فكذلك يسمونها . قال النابغة :

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنّ سُيوفَهم * بهنّ فُلولٌ من قِراع الكتائبِ
تَقُدّ السَّلُوقيّ[1] المضاعَفَ نَسْجُه * وتُوقِد بالصُّفّاح نارَ الحُباحِبِ

قوله تعالى : فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾

الخيل تغير على العدو عند الصبح؛ عن ٱبن عباس وأكثر المفسرين . وكانوا إذا أرادوا الغارة سَرَوْا ليلا ، و يأتون العدوّ صبحا ؛ لأن ذلك وقت غفلة الناس . ومنه قوله تعالى : «فساء صَباحُ المُنْذَرِينَ[2]» . وقيل : لعزهم أغاروا نهارا ، و «صُبْحا» على هذا ، أى علانية ، تشبيها بظهور الصبح . وقال ٱبن مسعود وعلىّ رضى الله عنهما : هى الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من مِنى إلى جَمْع . والسنة ألا تَدْفع حتى تصبح ؛ وقاله القُرَظِىّ . والإغارة : سرعة السير ؛ ومنه قولهم : أشرِقْ ثَبِيرُ[3] ، كيما نُغِير .

قوله تعالى : فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾

أى غبارا ؛ يعنى الخيل تثير الغبار بشدّة العدو فى المكان الذى أغارت به . قال عبد الله ٱبن رواحة :

عدِمتُ بُنَيّتِى إن لم تَرَوْها * تُثِير النَّقْعَ من كَنَفَىْ كَداءِ[4]

والكناية فى «به» ترجع إلى المكان أو إلى الموضع الذى تقع فيه الإغارة . و إذا عُلِم المعنى جاز أن يكنى عما لم يجرله ذكر بالتصريح ؛ كما قال «حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ[5]» . وقيل : «فأثرن به» ،

---

(١) السلوق : الدرع المنسوبة إلى سلوق ، قرية باليمن . والصفاح : جمع صفاحة ، وهى الحجر العريض .

(٢) آية ١٧٧ سورة الصافات .

(٣) ثبير : جبل بقرب مكة ، وهو على يمين الذاهب إلى عرفة . أى ادخل فى الشروق ، وهو ضوء الشمس .

(٤) كداء (بفتح الكاف ومدّ الدال) : جبل بمكة . والهاء فى تروها : راجعة إلى الخيل المفهومة من السياق . ورواية صدر البيت فى الشوكانى ٥/٤٦٩ : (عدمنا خيلنا ...) .

(٥) آية ٣٢ سورة ص .

أى بالعَدْو «نَقْعًا» . وقد تقدّم ذكر العَدْو . وقيل : النقع : ما بين مزدلِفة إلى مِنى ؛ قاله محمد ابن كعب القُرَظِيّ . وقيل: إنه طريق الوادى؛ ولعله يرجع إلى الغبار المثار من هذا الموضع. وفى الصحاح : النقع : الغبار ، والجمع : نِقاع . والنقع : مَحْبِس الماء ، وكذلك ما اجتمع فى البئر منه . وفى الحديث : أنه نهى أن يمنع نقع البئر . والنقع الأرض الحرّة الطين يستنقع فيها الماء، والجمع : نِقاع وأنقع ؛ مثل بحر وبِحار وأبحر .

قلت : وقد يكون النقع رفع الصوت ، ومنه حديث عمر حين قيل له : إن النساء قد اجتمعن يبكين على خالد بن الوليد؛ فقال: وما على نساء بنى المغيرة أن يسفِكن من دموعهنّ وهنّ جلوس على أبى سليمان ، ما لَمْ يكن نَقْع ولا لَقْلَقَة . قال أبو عبيد : يعنى بالنقع رفع الصوت ؛ على هذ رأيت قول الأكثرين من أهل العلم ؛ ومنه قول لبيد :

فمتى ينقَعْ صُراخٌ صادِق * يُحْلِبوها ذاتَ جَرْس وزَجَل

ويروى «يَحْلِبوها» أيضا . يقول : متى سمعوا صراخا أحلبوا الحرب، أى جمعوا لها . وقوله « يَنْقَع صُراخ » : يعنى رفع الصوت . وقال الكسائى : قوله « نقع ولا لقلقة » النقع : صنعة الطعام؛ يعنى فى المأتم . يقال منه : نقعتُ أنقَع نَقْعا . قال أبو عبيد : ذهب بالنقع إلى النَّقيعة ؛ وإنما النقيعة عند غيره من العلماء : صنعة الطعام عند القدوم من سفر ، لا فى المأتم . وقال بعضهم: يريد عمر بالنقع : وضع التراب على الرأس ؛ يذهب إلى أن النقع هو الغبار . ولا أحسب عمر ذهب إلى هذا، ولا خافه منهنّ، وكيف يبلغ خوفه ذا وهو يكره لهنّ القيام . فقال : يَسْفِكْنَ من دموعهنّ وهُنّ جلوس. قال بعضهم : النقع : شق الجيوب؛ وهو الذى لا أدرى ما هو من الحديث ولا أعرفه ، وليس النقع عندى فى هذا الحديث إلا الصوت الشديد، وأمّا اللقلقة : فشِدّة الصوت ، ولم أسمع فيه اختلافا . وقرأ أبو حَيْوة « فأَثَّرْنَ » بالتشديد ؛ أى أرت آثار ذلك . ومن خفف فهو من أثار : إذا حرّك ؛ ومنه « وأَثارُوا الأَرْضَ »[1] .

---

(١) آية ٩ سورة الروم .

قوله تعالى : فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾

«جَمْعًا» مفعول بـ«وَسَطْن»؛ أى فوسطْن بركابهن العدوّ؛ أى الجمع الذى أغاروا عليهم. وقال ٱبن مسعود : « فوَسَطْن بِهِ جمعا » : يعنى مُزْدلِفة ؛ وسميت جمعا لاجتماع الناس . ويقال : وَسَطْتُ القوم أَسِطُهم وَسْطًا وسِطَةً ؛ أى صِرت وَسْطَهم . وقرأ على رضى الله عنه « فَوَسَّطْن » بالتشديد، وهى قراءة قتادة وٱبنِ مسعود وأبى رجاء؛ لغتان بمعنى، يقال : وسَّطْتُ القومَ (بالتشديد والتخفيف) وتوَسَّطْتُهم : بمعنى واحد . وقيل : معنى التشديد : جعلها الجمع قسمين . والتخفيف : صِرْن فى وسط الجمع ؛ وهما يرجعان إلى معنى الجمع .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾

هذا جواب القسم؛ أى طبع الإنسان على كفران النعمة . قال ٱبن عباس : « لَكَنُودٌ » لكفور جَحُود لنعم الله . وكذلك قال الحسن . وقال : يذكر المصائب وينسى النعم . أخذه الشاعر فنظمه :

يأيها الظالمُ فى فعلِهِ * والظُّلم مردود على مَنْ ظَلَمْ
إلى متى أنْتَ وحَتَّى متى * تشكو المُصيباتِ وتنسى النعم!

وروى أبو أُمامة الباهلىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الكَنُود ، هو الذى يأكل وَحْدَه، ويمنع رِفْده[1]، ويضرب عَبْدَه". وروى ٱبن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألَا أُنَبِّئُكُمْ بشرارِكُمْ " ؟ قالوا بلى يارسول الله . قال : " من نَزَل وحدَه ، ومنع رِفْدَه ، وجَلَد عبدَه ". خرجهما الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول . وقد روى عن ٱبن عباس أيضا أنه قال : الكَنود بلسان كِندة وحضرموت : العاصى ، وبلسان ربيعة ومضر : الكفور . وبلسان كِنانة : البخيل السَّىّء المَلَكة ؛ وقاله مقاتل . وقال الشاعر :

كَنود لِنَعماء الرجالِ ومَنْ يكن * كَنودًا لنعماء الرجال يُبَعَّدِ

---

(١) الرفد (بكسر الراء) : العطاء والصلة .

أى كفور . ثم قيل : هو الذى يكفر اليسير، ولا يشكر الكثير . وقيل : الجاحد للحق .
وقيل : إنما سميت كِندَة كِندة، لأنها جحدتْ أباها . وقال إبراهيم بن هَرْمَةَ الشاعر :

دعِ البخلاءَ إن شمخُوا وصَدُّوا * وذِكْرَى بُخْـلِ غانيـةٍ كَنودِ

وقيل : الكَنود : من كَند إذا قطع ؛ كأنه يقطع ما ينبغى أنّ يواصله من الشكر . ويقال :
كَنَد الحبلَ : إذا قطعه . قال الأعشى :

أمِيطِى تُمِيطِى[1] بصُلْبِ الفـؤادِ * وَصُـولِ حِبالٍ وكَنّادِها

فهذا يدل على القطع . ويقال : كَنَدَ يكْنِد كُنودا : أى كفر النعمة وجحدها، فهو كنود .
وآمرأة كنود أيضا ، وكُنُدٌ مثله . قال الأعشى :

أحِدث لها تحدِث لوصلك إنها * كُنُد لوصـلِ الزائر المعتـادِ[2]

أى كفور للواصلة . وقال آبن عباس : الإنسان هنا الكافر ؛ يقول إنه لكفور ؛ ومنه
الأرض الكنود التى لا تنبت شيئا . وقال الضحاك : نزلت فى الوليد بن المغيرة . قال المبرد :
الكنود : المانع لما عليه . وأنشد لكثير[3] :

أحِدث لها تُحدِث لوصلك إنها * كُنُدٌ لِوَصل الزائر المعتاد

وقال أبو بكر الواسطى : الكنود: الذى ينفق نِعم الله فى معاصى الله . وقال أبو بكر الوراق :
الكنود : الذى يرى النعمة من نفسه وأعوانه . وقال الترمذى : الذى يرى النعمة
ولا يرى المنعم . وقال ذو النون المصرى : الهلوع والكنود : هو الذى إذا مسه الشر
جزوع ، وإذا مسه الخير منوع . وقيل : هو الحقود الحسود . وقيل : هو الجهول
لقدره . وفى الحكمة : من جهِل قدره : هتك سِتره .

---

(١) ماط الأذى ميطا وأماطه : نحاه ودفعه . يقول إن تنحيت عنى ، بانى صلب الفؤاد ، وصول لمن وصل ، كفور لمن كفر . ورواية صدر البيت فى اللسان . فبطى أى تنحى وأذهبى . (٢) المعتاد : الذى يعود مرة بعد أخرى .

(٣) تقدّم أن هذا البيت للأعشى ، وهو فى ديوانه ، ولم نجده فى ديوان كثير الذى بين أيدينا .

قلت : هذه الأقوال كلها ترجع إلى معنى الكفران والجحود . وقد فسر النبيّ صلى الله عليه وسلم معنى الكنود بخصال مذمومة ، وأحوال غير محمودة ؛ فإن صح فهو أعلى ما يقال ، ولا يبق لأحد معه مقال .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ ﴾

أى وإن الله عز وجل ثناؤه على ذلك من ابن آدم لشهيد . كذا روى منصور عن مجاهد ؛ وهو قول أكثر المفسرين ، وهو قول ابن عباس . وقال الحسن وقتادة ومحمد ابن كعب: «وإنه» أى وإن الإنسان لشاهد على نفسه بما يصنع ؛ ورُوِى عن مجاهد أيضا .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّه ﴾ أى الإنسان من غير خلاف . ﴿ لِحُبِّ الخَيرِ ﴾ أى المال ؛ ومنه قوله تعالى : « إن ترك خيرا »[1] . وقال عدىّ :

ما ذا تُرَجِّى النفوسُ من طلبِ الـ * خيرِ وحُبُّ الحياةِ كارِبُها[2]

﴿ لَشَدِيدٌ ﴾ أى لقوىّ فى حبه للمال . وقيل : « لشديد » لبخيل . ويقال للبخيل : شديد ومتشدّد . قال طَرَفة :

أرَى الموتَ يعتامُ الكِرامَ ويَصْطَفِى * عَقِيلَةَ مالِ الفاحِشِ المُتَشَدِّدِ

يقال : اعتامه واعتاه ؛ أى اختاره . والفاحِشُ : البخيل أيضا . ومنه قوله تعالى : « ويأمُرُكُمْ بِالفَحشاءِ »[3] أى البخل . قال ابن زيد : سمى الله المال خيرا ؛ وعسى أن يكون شرا وحراما[4] ؛ ولكن الناس يَعُدّونه خيرا ، فسمّاه الله خيرا لذلك . وسمى الجهاد سُوءا ، فقال : « فانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ »[5] على ما يسميه الناس . قال الفرّاء : نظم الآية أن يقال : وإنه لَشديد الحبّ للخير ؛ فلما تقدّم الحب قال : شديد ، وحذف من آخره

(١) آية ١٨٠ سورة البقرة .
(٢) كاربها : غامها ؛ من كربه الأمر : اشتدّ عليه .
(٣) آية ٢٦٨ سورة البقرة .
(٤) فى بعض نسخ الأصل : « شرا وخيرا » .
(٥) آية ١٧٤ سورة آل عمران .

ذكر الحب ؛ لأنه قد جرى ذكره ، ولرءوس الآى ؛ كقوله تعالى : « فِي يومٍ عاصِفٍ »[1] ، والعُصُوف : للريح لا الأيام ، فلما جرى ذكر الريح قبل اليوم ، طرح من آخره ذكر الريح ؛ كأنه قال : فى يوم عاصف الريح .

قوله تعالى : أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ أفلا يَعْلَمُ ﴾ أى ابن آدم ﴿ إذا بُعْثِرَ ﴾ أى أثير وقُلِب وبُحِث ، فأُخرج ما فيها . قال أبو عبيدة : بَعْثَرْتُ المتاع : جعلت أسفلهُ أعلاه . وعن محمد بن كعب قال : ذلك حين يُبْعَثون . الفراء : سمعت بعض أعراب بنى أسد يقرأ : « بُحْثِر » بالحاء مكان العين ؛ وحكاه الماوردى عن ابن مسعود ، وهما بمعنى . ﴿ وحُصِّل ما فِي الصدورِ ﴾ أى مُيز ما فيها من خير وشر ؛ كذا قال المفسرون . وقال ابن عباس : أُبرِز . وقرأ عبيد بن عمير وسعيد بن جُبير ويحيى بن يعمُر ونصر بن عاصم « وحَصَل » بفتح الحاء وتخفيف الصاد وفتحها ؛ أى ظهر . ﴿ إِنَّ ربَّهم بِهِم يومَئِذٍ لَخَبِيرٌ ﴾ أى عالم لا يخفى عليه منهم خافية . وهو عالم بهم فى ذلك اليوم وفى غيره ، ولكن المعنى أنه يجازيهم فى ذلك اليوم . وقوله : « إذا بُعثِر » العامل فى « إذا » : « بُعْثِر » ، ولا يعمل فيه « يَعْلَمُ » ؛ إذ لا يراد به العلم من الإنسان ذلك الوقت ، إنما يراد فى الدنيا . ولا يعمل فيه « خَبِيرٌ » ؛ لأن ما بعد « إنّ » لا يعمل فيما قبلها . والعامل فى « يومَئِذٍ » : « خَبِيرٌ » ، وإن فصلت اللام بينهما ؛ لأن موضع اللام الابتداء . وإنما دخلت فى الخبر لدخول « إنّ » على المبتدأ . ويروى أن الحجاج قرأ هذه السورة على المنبر يحضهم على الغزو ، فجرى على لسانه : « أَنَّ ربهم » بفتح الألف ، ثم استدركها فقال : « خَبِير » بغير لام . ولولا اللام لكانت مفتوحة ، لوقوع العلم عليها . وقرأ أبو السَّمَّال « أَنَّ رَبَّهم بِهِمْ يومَئِذٍ خَبِيرٌ » . والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

(١) آية ١٨ سورة إبراهيم .

تفسير سورة « القارعة »

وهى مكية بإجماع . وهى عشر آيات[(١)]

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ أى القيامة والساعة ؛ كذا قال عامة المفسرين . وذلك أنها تقرع الخلائق بأهوالها وأفزاعها . وأهل اللغة يقولون : تقول العرب قَرَعَتْهُم القارعة ، وفَقَرَتْهُم الفاقرة ؛ إذا وقع بهم أمر فظيع . قال ٱبن أحمر :

وقارعةٍ مِنَ الأيام لَـوْلَا * سبيلهم لزاحت[(٢)] عَنك حِينا

وقال آخر :

مَتَى تَقْـرَعْ بَمَرْوتِكُم[(٣)] نَسُؤْكُمْ * ولم تُوقَـدْ لَنَـا فى القِـدْرِ نَارُ

وقال تعالى : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَـا صنعوا قارِعة[(٤)] » وهى الشديدة من شدائد الدهر .

قوله تعالى : ﴿ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ استفهام؛ أى أىّ شىء هى القارعة ؟ وكذا ﴿ وما أدراك ما القارِعة ﴾ كلمة آستفهام على جهة التعظيم والتفخيم لشأنها؛ كما قال : « الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة » على ما تقدّم[(٥)] .

---

(١) فى كتاب روح المعانى : وآيها إحدى عشرة آية فى الكوفى ، وعشر فى الحجازى ، وثمان فى البصرى والشامى .

(٢) فى بعض النسخ : « لراحت » بالراء .

(٣) المروة : حجر يقدح منه النار .

(٤) آية ٣١ سورة الرعد .

(٥) راجع جـ ١٨ ص ٢٥٧ .

قوله تعالى : يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾

« يوم » منصوب على الظرف ، تقديره : تكون القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث . قال قتادة : الفراش الطير الذى يتساقط فى النار والسراج . الواحدة فراشه، وقاله أبو عبيدة . وقال الفراء : إنه الهَمَج الطائر، من بَعوض وغيره ؛ ومنه الجراد . و يقال : هو أطيش من فراشة . وقال :

طُوَيِّشٌ من نفرٍ أطْياشِ * أطيشُ من طائرة الفَراشِ

وقال آخر :

وقـد كانَ أقوامٌ رددتَ قُلُوبَهُـمْ * إليهم[1] وكانوا كالفَراشِ من الجَهْلِ

وفى صحيح مسلم عن جابر، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مثلى ومَثَلُكُمْ كمثل رجل أوقد نارا ، فجعل الجنادبُ والفَرَاشُ يَقَعْن فيها ، وهو يذُبُّهنّ عنها ، وأنا آخُذُ بحُجَزِكُمْ عن النار، وأنتمْ تَفْلِتونَ مِنْ يَدِي " . وفى الباب عن أبى هريرة . والمبثوث المتفرق . وقال فى موضع آخر : « كأنَّهمْ جراد منتشر »[2] . فأول حالهم كالفَراش لا وجه له ، يَتَحيَّرُ فى كل وجه، ثم يكونون كالجراد، لأن لها وجها تقصده . والمبثوث : المتفرق المنتشر . وإنما ذكر على اللفظ : كقوله تعالى : « أعجازُ نخلٍ مُنْقَعِرٍ »[3] ولو قال المبثوثة [فهو][4] كقوله تعالى : « أعجاز نخلٍ خاوِيةٍ »[5] . وقال ابن عباس والفراء : « كالفراشِ المبثوثِ » كغوغاء الجراد، يركب بعضها بعضا . كذلك الناس ، يجول بعضهم فى بعض إذا بعثوا .

قوله تعالى : وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾

أى الصوف الذى يُنْفش باليد، أى تصير هباء وتزول ؛ كما قال جل ثناؤه فى موضع آخر : « هَبَاءً مُنْبثا »[6] . وأهل اللغة يقولون : العِهن الصوف المصبوغ . وقد مضى فى سورة « سألَ سائلٌ »[7] .

(١) فى بعض النسخ : « عليهم » . (٢) آية ٧ سورة القمر . (٣) آية ٢٠ سورة القمر .
(٤) الزيادة من تفسير ابن عادل يقتضيها السياق . (٥) آية ٧ سورة الحاقة .
(٦) آية ٦ سورة الواقعة . (٧) راجع جـ ١٨ ص ٢٨٤

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١ ﴾

قد تقدم القول فى الميزان فى « الأعراف والكهف[١] والأنبياء » . وأن له كِفّة ولسانا توزن فيه الصحف المكتوب فيها الحسانات والسيئات . ثم قيل : إنه ميزان واحد بيد جبريل يزن أعمال بنى آدم ، فعبّر عنه بلفظ الجمع . وقيل : موازين ، كما قال :

* فلكلِّ حادثةٍ لهَا ميزانُ[٢] *

وقد ذكرناه فيما تقدم . وذكرناه أيضا فى كتاب « التذكرة[٣] » وقيل : إن الموازين الحُجَج والدلائل ، قاله عبد العزيز بن يحيى ، واستشهد بقول الشاعر :

قَد كُنتُ قبلَ لقائكم ذا مِرَّةٍ * عِنـدِى لكُلِّ مخاصِمٍ مِيزانُهُ

ومعنى « عِيشةٍ راضِيةٍ » أى عيش مَرْضىّ ، يرضاه صاحبه . وقيل : « عيشةٍ راضِيةٍ » أى فاعلة للرضا ، وهو اللين والانقياد لأهلها . فالفعل للعيشة لأنها أعطت الرضا من نفسها ، وهو اللين والانقياد . فالعيشة كلمة تجمع النِّعَم التى فى الجنة ، فهى فاعلة للرضا ، كالفُرُش المرفوعة ، وٱرتفاعها مقدار مائة عام ، فإذا دنا منها ولِىّ الله ٱتضعت حتى يستوى عليها ، ثم ترتفع كهيئتها ، ومثل الشجرة فرعها ، كذلك أيضا من الارتفاع ، فإذا ٱشتهى ولِىُّ الله ثمرتها تدلت إليـه ، حتى يتناولها ولِىُّ الله قاعدا وقائما ، وذلك قوله تعالى : « قُطُوفُها دَانِيَـةٌ[٤] » . وحيثما مشى أو ينتقل من مكان إلى مكان ، جرى معه نهر حيث شاء ، عُلُوًّا وسُفْلا ، وذلك قوله تعالى : « يُفَجِّرونها تَفْجِيرًا[٥] » . فيروى فى الخبر " إنه يشير بقضيبه فيجرى من غير أخدود حيث شاء من قصوره وفى مجالسه " . فهذه الأشياء كلها عيشة قد أعطت الرضا من نفسها ، فهى

(١) راجع جـ ٧ ص ١٦٥ وما بعدها . و جـ ١١ ص ٦٦ و ص ٢٩٣

(٢) صدر البيت : * ملك تقوم الحادثات لعدله *

(٣) راجع جـ ١١ ص ٢٩٣ (٤) آية ٢٣ سورة الحاقة . (٥) آية ٦ سورة الإنسان .

فاعلة للرضا، وهى آنذلت وآنقادت بذلا وسماحة . ومعنى ﴿ فأمه هاوية ﴾ يعنى جهنم. وسماها أُمًّا، لأنه يأوى إليها كما يأوى إلى أمه، قاله آبن زيد . ومنه قول أمية بن أبى الصَّلْت :

فالأرضُ مَعْقِلنا وكانتْ أُمَّنا * فيها مَقابِرُنا وفيها نُولَدُ

وسميت النار هاوية ، لأنه يهوى فيها مع بعد قعرها . ويروى أن الهاوية آسم الباب الأسفل من النار . وقال قتادة : معنى « فأمه هاوية » فمصيره إلى النار . عكرمة : لأنه يهوى فيها على أم رأسه . الأخفش : « أمه » : مستقره، والمعنى متقارب . وقال الشاعر :

ياعمرُو لو نالتك أرماحُنا * كنتَ كمن تهوى به الهاويَهْ

والهاوية : المَهْوَاة . وتقول : هَوَتْ أمّه ، فهى هاوية، أى ثاكلة، قال كعب بن سعد الغَنَوِىّ :

هَوَتْ أُمُّه[1] مايبعثُ الصبحُ غاديا * وماذا يؤدِّى الليلُ حين يَثُوبُ

والمَهْوَى والمَهْوَاة : مابين الجبلين، ونحو ذلك . وتهاوَى القوم فى المَهْوَاة : إذا سقط بعضهم فى إثر بعض . ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ ﴾ الأصل « ماهى » فدخلت الهاء للسكت . وقرأ حمزة والكسائى ويعقوب وآبن مُحَيصن « مَاهِىَ نارٌ » بغير هاء فى الوصل، ووقفوا بها . وقد مضى فى سورة الحاقة »[2] بيانه . ﴿ نار حامية ﴾ أى شديدة الحرارة . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " نارُكم هذه التى يُوقِد آبنُ آدم جزء من سبعين جزءا من حرّ جهنم " قالوا : والله إن كانت لكافية يا رسول الله . قال ، " فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا، كلها مثل حرّها " . وروى عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال : إنما ثقل ميزان من ثقل ميزانه ، لأنه وضع فيه الحق ، وحُقّ لميزان يكون فيه الحق أن يكون ثقيلا . وإنما خف ميزان من خف ميزانه ، لأنّه وضع فيه الباطل، وحق لميزان يكون فيه الباطل أن يكون خفيفا . وفى الخبر عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : " أن الموتى يَسألون الرجل يأتيهم عن رجل مات قبله ، فيقول ذلك مات قبلى ، أما مرّ بكم ؟ فيقولون لا والله، فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون! ذُهِب به إلى أمه الهاوية، فبئست الأمّ، وبئست المُرَبية " . وقد ذكرناه بكماله فى كتاب « التذكرة » ، والحمد لله .

(١) البيت فى اللسان : (أمم) . (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٩

تفسير سورة « التكاثر »

وهى مكية ، فى قول جميع المفسرين . وروى البخارى أنها مدنية . وهى ثمانى آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ « ألهاكم » شغلكم . قال :

* فألهيتها عن ذى تمائم مُغْيَلِ (١) *

أى شغلكم المباهاة بكثرة المال والعدد عن طاعة الله ، حتى مِتم ودفنتم فى المقابر . وقيل « أَلْهَاكُمْ » : أنساكم . « التكاثُرُ » أى من الأموال والأولاد ، قاله ابن عباس والحسن . وقال قتادة : أى التفاخر بالقبائل والعشائر . وقال الضحاك : أى ألهاكم التشاغل بالمعاش والتجارة . يقال : لَهِيت عن كذا (بالكسر) أَلْهَى لَهِيًّا ولِهْيَانًا : إذا سلوت عنه ، وتركت ذكره ، وأضربت عنه . وألهاه : أى شغله . ولهّاه به تلهية أى عَلَّله . والتكاثر: المكاثرة. قال مقاتل وقتادة وغيرهما : نزلت فى اليهود حين قالوا : نحن أكثر من بنى فلان ، وبنو فلان أكثر من بنى فلان ، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضُلّالا . وقال ابن زيد : نزلت فى فَخِذ من الأنصار . وقال ابن عباس ومقاتل والكلبى : نزلت فى حَيَّيْن من قريش : بنى عبد مَناف ، وبنى سَهْم ، تعادُّوا وتكاثروا بالسادة والأشراف فى الإسلام ، فقال كل حى منهم نحن أكثر سيدا ، وأعز عزيزا ، وأعظم نفرا ، وأكثر عائذا ، فكَثَر بنو عبد مناف سهما. ثم تكاثروا بالأموات ، فَكَثَرتْهُمْ سَهْم ، فنزلت « أَلْهَاكُمُ التكاثُرُ » بأحيائكم فلم ترضوا

(١) هذا عجز بيت من معلقة امرىء القيس ، وصدره :

* فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع *

ويروى : « تمائم محول » ، أى قد أتى عليه الحول . و « المغيل » : الذى تؤتى أمه وهى ترضعه .

﴿حتى زرتم المقابر﴾ مفتخرين بالأموات . وروى سعيد عن قتادة قال : كانوا يقولون نحن أكثر من بنى فلان ، ونحن أعدّ من بنى فلان ؛ وهم كلّ يوم يتساقطون إلى آخرهم ، والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كُلُّهم . وعن عمرو بن دينار : حلف أن هذه السورة نزلت فى التجار . وعن شيبان عن قتادة قال : نزلتْ فى أهل الكتاب .

قلت : الآية تَعُمّ بجميع ما ذكر وغيره . وفى صحيح مسلم عن مُطَرِّف عن أبيه قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ «أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ» قال : " يقولُ ابنُ آدم : مالى مالى ! وهل لك يابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليتَ ، أو تصدّقتَ فأمضيت [وماسوى ذلك فذاهبٌ وتاركُه للناس[1]] . وروى البخاريّ عن ابن شهاب : أخبرنى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن لابن آدم واديا من ذهب ، لأحب أن يكون له واديان ، ولَنْ يَمْلَأَ فاه إلا الترابُ ، ويتوبُ اللهُ على من تابَ " . قال ثابت عن أنس عن أُبَيّ : كنا نرى هذا من القرآن ، حتى نزلت «أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ» . قال ابن العربيّ : وهذا نصّ صحيح مليح ، غاب عن أهل التفسير فجَهِلوا وجَهَّلوا ، والحمد لله على المعرفة . وقال ابن عباس : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم «أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ» قال : " تكاثُرُ الأموال : جمعها من غير حقها ، ومنعها من حقها ، وشدّها فى الأوعية " .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿حَتَّى زُرْتُمُ المَقَابِرَ﴾ أى حتى أتاكم الموت ، فصرتم فى المقابر زوّارا ، ترجعون منها كرجوع الزائر إلى منزله من جنة أو نار . يقال لمن مات : قد زار قبره . وقيل : أى ألهاكم التكاثر حتى عددتم الأموات ؛ على ما تقدّم . وقيل : هذا وعيد . أى اشتغلتم بمفاخرة الدنيا ، حتى تزوروا القبور ، فتَرَوْا ما ينزل بكم من عذاب الله عز وجل .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿المَقَابِرَ﴾ جمع مَقْبَرَة ومَقْبُرَة (بفتح الباء وضمها) . والقبور : جمع القبر ؛ قال :

---

(١) ما بين المربعين من رواية أبى هريرة فى سند آخر ، لا من رواية مطرف (راجع صحيح مسلم) .

أرى أهلَ القُصور إذا أُمِيتُوا * بَنَوْا فوق المقابر بالصُّخورِ

أَبَوْا إلا مُباهاةً وفَخْرًا * على الفقراءِ حتّى فى القُبورِ

وقد جاء فى الشعر (المَقْبَر)؛ قال:

لكل أناسٍ مَقْبَرٌ بفِنائهم * فهُمْ يَنْقُصُون والقُبورُ تَزِيدُ[1]

وهو المَقْبُرِىّ والمَقْبَرِىّ: لأبى سعيد المقبرىّ[2]؛ وكان يسكن المقابر. وقَبَرتُ الميتَ أَقْبِرُه وأقبُرُه قبرا؛ أى دفنته. وأقبرته أى أمرت بأن يقبر. وقد مضى فى سورة «عَبَس» القول فيه[3]. والحمد لله.

الرابعة — لم يأت فى التنزيل ذكر المقابر إلا فى هذه السورة. وزيارتها من أعظم الدواء للقلب القاسى؛ لأنها تذكر الموت والآخرة. وذلك يحمل على قصر الأمل، والزهد فى الدنيا، وترك الرغبة فيها. قال النبىّ صلى الله عليه وسلم: "كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروا القبور، فإنها تزهد فى الدنيا، وتذكّر الآخرة" رواه ابن مسعود؛ أخرجه ابن ماجه. وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة: "فإنها تذكر الموت". وفى الترمذىّ عن بُرَيْدة: "فإنها تذكّر الآخرة". قال: هذا حديث حسن صحيح. وفيه عن أبى هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن زوّارات القبور. قال: وفى الباب عن ابن عباس وحسان بن ثابت. قال أبو عيسى: وهذا حديث حسن صحيح. وقد رأى بعض أهل العلم أن هذا كان قبل أن يرخص النبىّ صلى الله عليه وسلم فى زيارة القبور؛ فلما رَخَّص دخل فى رخصته الرجال والنساء. وقال بعضهم: إنما كره زيارة القبور للنساء لقلة صبرهن، وكثرة جَزَعِهن.

قلت: زيارة القبور للرجال متفق عليه عند العلماء، مختلف فيه للنساء. أما الشوابّ فحرام عليهن الخروج، وأما القواعد فمباح لهنّ ذلك. وجائز لجميعهن ذلك إذا انفردن بالخروج عن الرجال؛ ولا يختلف فى هذا إن شاء الله. وعلى هذا المعنى يكون قوله: "زوروا القبور" عاما. وأمّا مَوْضِعٌ أو وقتٌ يُخشى فيه الفتنة من اجتماع الرجال والنساء، فلا يحل ولا يجوز.

---

(١) ذكر البيت صاحب تاج العروس مع بيت بعده، (قبر) ونسبهما إلى عبد الله بن ثعلبة الحنفى.

(٢) قال ابن قتيبة فى المعارف: أبو سعيد المقبرى: اسمه كيسان روى عن عمر. وتوفى سنة مئة.

(٣) راجع جـ ١٩ ص ٢١٧

فبينا الرجل يخرج ليعتبر، فيقع بصره على آمرأة فيفتتن، وبالعكس، فيرجع كل واحد من الرجال والنساء مأزورا غير مأجور. والله أعلم.

الخامسة — قال العلماء: ينبغي لمن أراد علاج قلبه وانقياده بسلاسل القهر إلى طاعة ربه، أن يكثر من ذكر هاذم(1) اللذات، ومفرق الجماعات، ومُوتم البنين والبنات، ويواظب على مشاهدة المحتضَرين، وزيارة قبور أموات المسلمين. فهذه ثلاثة أمور، ينبغي لمن قسا قلبه، ولزمه ذنبه، أن يستعين بها على دواء دائه، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وأعوانه؛ فإن آنتفع بالإكثار من ذكر الموت، وآنجلت به قساوة قلبه فذاك، وإن عظم عليه ران قلبه، واستحكمت فيه دواعي الذنب؛ فإن مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين، تبلغ في دفع ذلك مالا يبلغه الأول؛ لأن ذكر الموت إخبار للقلب بما إليه المصير، وقائم له مقام التخويف والتحذير. وفي مشاهدة من آحتُضر، وزيارة قبر من مات من المسلمين مُعايَنَةٌ ومشاهدة؛ فلذلك كان أبلغ من الأول؛ قال صلى الله عليه وسلم: "ليس الخبر كالمعاينة". رواه آبن عباس. فأما الآعتبار بحال المحتَضَرين، فغير ممكن في كل الأوقات، وقد لا يتفق لمن أراد علاج قلبه في ساعة من الساعات. وأما زيارة القبور فوجودها أسرع، والانتفاع بها أليق وأجدر. فينبغي لمن عزم على الزيارة، أن يتأدب بآدابها، ويحضر قلبه في إتيانها، ولا يكون حظه منها التطواف على الأجداث فقط؛ فإن هذه حالة تشاركه فيها بهيمة. ونعوذ بالله من ذلك. بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى، وإصلاح فساد قلبه، أو نفع الميت بما يتلو عنده من القرآن والدعاء، ويتجنب المشي على المقابر، والجلوس عليها ويُسلم إذا دخل المقابر، وإذا وصل إلى قبر ميته الذي يعرفه سلم عليه أيضا، وأتاه من تلقاء وجهه؛ لأنه في زيارته كمخاطبته حيا، ولو خاطبه حيا لكان الأدب استقباله بوجهه؛ فكذلك ها هنا. ثم يعتبر بمن صار تحت التراب، وآنقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب والعشائر، وجمع الأموال والذخائر؛ فجاءه الموت في وقت لم يحتسبه، وهول لم يرتقبه. فليتأمل الزائر حال من مضى من إخوانه، ودَرَج من

(1) هاذم (بالذال المعجمة) بمعنى قاطع؛ والمراد الموت؛ إما لأن ذكره يزهد فيها، وإما لأنه إذا جاء لا يبقى من لذائذ الدنيا شيئا.

أقرانه الذين بلغوا الآمال، و جمعوا الأموال؛ كيف ٱنقطعت آمالهم ، ولم تغن عنهم أموالهم، ومحا التراب محاسن وجوههم، وٱفترقت فى القبور أجزاؤهم، وترمّل من بعدهم نساؤهم ، وشمِل ذل اليتم أولادهم ، وٱقتسم غيرهم طريفهم وتِلادهم . وليتذكر تردّدهم(١) فى المآرب ، وحرصهم على نيل المطالب ، وٱنخداعهم لمواتاة الأسباب ، وركونهم إلى الصحة والشباب . وليعلم أن ميله إلى اللهو واللعب كميلهم ، وغفلته عما بين يديه من الموت الفظيع، والهلاك السريع ، كغفلتهم ، وأنه لا بدّ صائر إلى مصيرهم ، وليُحضر بقلبه ذِكر من كان متردّدا فى أغراضه ، وكيف تهدّمت رجلاه ، وكان يتلذذ بالنظر إلى ما خُوِّلَه وقد سالت عيناه ، ويصول ببلاغة نطقه وقد أكل الدود لسانه ، ويضحك لمواتاة دهره وقد أبلى التراب أسنانه ، وليتحقق أن حاله كحاله ، ومآله كمآله . وعند هذا التذكُّر والاعتبار تزول عنه جميع الأغيار الدنيوية ، ويقبل على الأعمال الأخروية، فيزهد فى دنياه، ويقبل على طاعة مولاه ، ويلين قلبه ، وتخشع جوارحه .

قوله تعالى : كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ قال الفرّاء : أى ليس الأمر على ما أنتم عليه من التفاخر والتكاثر والتمام على هذا ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ أى سوف تعلمون عاقبة هذا . ﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾ : وعيد بعد وعيد؛ قاله مجاهد . ويحتمل أن يكون تكراره على وجه التأكيد والتغليظ ؛ وهو قول الفرّاء . وقال ٱبن عباس : « كلا سوف تعلمون » ما ينزل بكم من العذاب فى القبر . « ثم كلا سوف تعلمون » فى الآخرة إذا حل بكم العذاب . فالأول فى القبر، والثانى فى الآخرة ؛ فالتكرار للحالتين . وقيل : « كلا سوف تعلمون » عند المعاينة، أن ما دعوتكم إليه حق . « ثم كلا سوف تعلمون » : عند البعث، أن ما وعدتكم به صدق . وروى زِرُّ بنُ حُبَيْش عن علىّ رضى الله عنه، قاله : كنا نشك فى عذاب القبر، حتى نزلت هذه السورة، فأشار إلى أن قوله : « كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ » يعنى فى القبور . وقيل : « كَلَّا سَوْفَ

(١) فى نسخة : « تردّدهم المآب » .

تعلمون» : إذا نزل بكم الموت، وجاءتكم رُسُلٌ لتنزِع أرواحكم . ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: إذا دخلتم قبوركم ، وجاءكم مُنْكَر ونَكِير ، وحاط بكم هول السؤال ، وانقطع منكم الجواب .

قلت : فتضمنت السورة القول فى عذاب القبر . وقد ذكرنا فى كتاب « التذكرة » أن الإيمان به واجب ، والتصديق به لازم ؛ حَسْبما أخبر به الصادق ، وأن الله تعالى يحيي العبد المكلّف فى قبره، بردّ الحياة إليه، ويجعل له من العقل فى مثل الوصف الذى عاش عليه؛ ليعقل ما يُسأل عنه، وما يجيب به، ويفهم ما أتاه من ربه، وما أُعدّ له فى قبره، من كرامة وهوانٍ . وهذا هو مذهب أهل السنة، والذى عليه الجماعة من أهل الملة . وقد ذكرناه هناك مستوفى، والحمد لله . وقيل: « كَلَّا سوف تعلمون » عند النشور أنكم مبعوثون « ثمّ كلا سوف تعلمون » فى القيامة أنكم معذبون . وعلى هذا تضمنت أحوال القيامة من بعث وحَشْر، وسؤال وعَرْض، إلى غير ذلك من أهوالها وأفزاعها ؛ حسب ما ذكرناه فى كتاب « التذكرة ، بأحوال الموتى وأمور الآخرة » . وقال الضحاك : « كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ » يعنى الكفار ، ثم كَلَّا سَوْفَ تعلمون » : قال المؤمنون . وكذلك كان يقرؤها ، الأولى بالتاء والثانية بالياء .

قوله تعالى : كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أعاد « كَلَّا » وهو زجر وتنبيه ، لأنه عَقَّب كل واحد بشىء آخر؛ كأنه قال: لا تفعلوا، فإنكم تندمون، لا تفعلوا، فإنكم تستوجبون العقاب . وإضافة العلم إلى اليقين ، كقوله تعالى : « إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ »[1] . وقيل : اليقين هاهنا: الموت؛ قاله قتادة . وعنه أيضا : البعث؛ لأنه إذا جاء زال الشك، أى لو تعلمون علم البعث . وجواب « لو » محذوف ؛ أى لو تعلمون اليوم من البعث ما تعلمونه إذا جاءتكم نفخة الصور ، وانشقت اللحود عن جُثثكم ، كيف يكون حَشْركم ؟ لشغلَكُم ذلك عن التكاثر بالدنيا . وقيل : « كَلَّا لَوْ تَعْلَمُون عِلْمَ الْيَقِينِ »[2] أى لو قد تطايرتِ الصحف، فشقِيٌّ وسعيدٌ .

(١) آية ٩٥ سورة الواقعة . (٢) كذا فى نسخ الأصل .

وقيل : إن « كَلَّا » فى هذه المواضع الثلاثة بمعنى « أَلَا » قاله ٱبن أبى حاتم ، وقال الفرّاء : هى بمعنى « حَقًّا » وقد تقدّم الكلام فيها مستوفى .[1]

قوله تعالى : لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ هذا وعيد آخر . وهو على إضمار القسم ؛ أى لترون الجحيم فى الآخرة . والخطاب للكفار الذين وجبت لهم النار . وقيل : هو عام ؛ كما قال : « وإنْ مِنكُمْ إلّا وارِدُها »[2] ، فَهِيَ للكفار دار ، وللمؤمنين ممر . وفى الصحيح[3] : " فيمرّ أوّلهم كالبرق ، ثم كالريح ، ثم كالطير ... " الحديث . وقد مضى فى سورة « مريم » . وقرأ الكسائى وابن عامر « لَتُرَوُنَّ » بضم التاء ، من أريته الشىء ؛ أى تحشرون إليها فترونها . وعلى فتح التاء ، هى قراءة الجماعة ؛ أى لتَرون الجحيم بأبصاركم على البعد . ﴿ ثم لَتَرونها عين اليقِينِ ﴾ أى مشاهدة . وقيل : هو إخبار عن دوام مُقامهم فى النار ؛ أى هى رؤية دائمة متصلة . والخطاب على هذا للكفار . وقيل : معنى « لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقينِ » أى لو تعلمون اليوم فى الدنيا ، علم اليقين فيما أمامكم ، مما وصفت : « لَتَرَوُنَّ الجحيمَ » بعيون قلوبكم ؛ فإن علم اليقين يريك الجحيم بعين فؤادك ؛ وهو أن تَتَصوّر لك تارات القيامة ، وقطع مسافاتها . « ثم لَترونها عينَ اليقِينِ » : أى عند المعاينة بعين الرأس ، فتراها يقينا ، لا تغيب عن عينك . « ثم لَتُسأَلُنّ يومَئِذٍ عن النَّعِيم » : فى موقف السؤال والعرض .

قوله تعالى : ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسأَلُنَّ يوْمَئِذٍ عنِ النعيم ﴾ روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة ، قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم أو ليلة ، فإذا هو بأبى بكر وعمر ؛ فقال : " ما أخرجكما من بيوتِكما هذه الساعةَ " ؟ قالا : الجوع يا رسول الله . قال : " وأنا

(١) راجع جـ ١١ ص ١٤٧ فما بعدها . (٢) آية ٧١ سورة مريم .
(٣) راجع جـ ١١ ص ١٣٧ .

والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما، قُوما" فقاما معه ؛ فأتى رجلا من الأنصار ، فإذا هو ليس فى بيته ، فلما رأته المرأة قالت : مَرْحَبًا وأَهْلًا . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أين فلان " ؟ قالت : يستعذب لنا من الماء ؛ إذ جاء الأنصارىّ ، فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، ثم قال : الحمد لله ! ما أحدٌ اليومَ أكرم أضيافا منى . قال : فانطلق ، فجاءهم بِعِذْق فيه بُسْر وتمر ورُطَب ، فقال : كلوا من هذه . وأخذ المدية ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إياكَ والحَلُوبَ " فذبح لهم ؛ فأكلُوا من الشّاة ، ومن ذلك العِذق ، وشربوا ؛ فلما أن شبِعوا ورَوُوا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر: " والذى نفسى بيده لَتُسْأَلُنّ عن نعيم هذا اليوم، يومَ القيامة ، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم " . خرجه الترمذىّ ، وقال [فيه] : "هذا والذى نفسى بيده من النعيم الذى تُسألون عنه يوم القيامة : ظِلٌّ بارد، ورُطَب طَيِّب، وماء بارد" وكَنَّى الرجل الذى من الأنصار ، فقال : أبو الهيثم بن التَّيهان . وذكر قصته .

قلت : اسم هذا الرجل الأنصارىّ مالك بن التيهان ، ويكنى أبا الهيثم . وفى هذه القصة يقول عبد الله بن رواحة ، يمدح بها أبا الهيثم بن التَّيهان :

فَلَمْ أَرَ كالإسلامِ عِزا لِأُمّةٍ * ولا مِثلَ أضيافِ الإراشىّ مَعْشَرا (١)

نبىّ وصِدِّيقٌ وفاروق أمّةٍ * وخير بنى حوّاء فرعا وعُنْصُرا (٢)

فوافَوْا لميقاتٍ وقَدْرٍ قَضيةٍ * وكان قضاء الله قَدْرا (٣) مُقَدَّرا

إلى رجلٍ نَجْدٍ يُبارى بجودِهِ * شُموسَ الضُّحى جودا ومجدا ومَفخَرا

وفارِسِ خلقِ الله فى كل غارةٍ * إذا لبِس القومُ الحديدَ المُسَمَّرا

فَفَدّى وحَيّا ثم أَدْنَى قِراهُمُ * فلَمْ يَقْرِهِمْ إلّا سَمِينا مُتَمَّرا (٤)

(١) كذا فى جميع نسخ الأصل .

(٢) فى نسخة من الأصل : « وخير نبى جاء » .

(٣) فى نسخة من الأصل : « أمرا » .

(٤) المقطع .

وقد ذكر أبو نَعيم الحافظ ، عن أبي عِسيب مولى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلا ، فخرجت إليه ، ثم مر بأبي بكر فدعاه ، فخرج إليه ، ثم مر بعمر فدعاه ، فخرج إليــه ، فآنطلق حتى دخل حائطًا لبعض الأنصار ، فقال لصاحب الحائط : " أطعمنا بُسْرا " فجاء بعِذْق ، فوضعه فأكلوا ، ثم دعا بمـاء فشرب ، فقال : "لَتُسْأَلُنَّ عن هذا يومَ القيامة" قال : وأخذ عمر العِذْق ، فضرب به الأرض حتى تناثر البسر نحو وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : يا رسول الله ، إنا لمسئولون عن هذا يوم القيامة؟ قال : " نعم إلا من ثلاث : كِسرة يَسُدّ بها جَوْعَته ، أو ثوب يستر به عَوْرته ، أو جُحْرٍ يأوى فيه من الحرّ والقُرّ " .

وآختلف أهل التأويل في النعيم المسئول عنه على عشرة أقوال :

أحدها : الأمن والصحة ، قاله آبن مسعود . الثاني — الصحة والفراغ ، قاله سعيد بن جبير . وفي البخاريّ عنه عليه السلام : "نعمتان مغبونٌ[1] فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ" . الثالث — الإدراك بحواس السمع والبصر ، قاله آبن عباس . وفي التنزيل : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا »[2] . وفي الصحيح عن أبي هريرة وأبي سعيد قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يؤتى بالعبد يوم القيامة ، فيقول له : ألم أجعل لك سمعا و بصرا ، ومالا وولدا ..." ، الحديث . خرجه الترمذيّ وقال فيه : حديث حسن صحيح . الرابع — ملاذ المأكول والمشروب ، قاله جابر بن عبدالله الأنصاري . وحديث أبي هريرة يدل عليه . الخامس — أنه الغداء والعشاء ، قاله الحسن . السادس — قول مكحول الشامي — : أنه شِبَع البطون ، و بارد الشراب ، وظلال المساكن ، وآعتدال الخُلق ، ولذة النوم . ورواه زيد بن أسلم عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " « لَتُسْأَلُنَّ يومَئِذٍ عَنِ النعيم » : يعني عن شبع البطون ... " . فذكره . ذكره المـاوردي ، وقال : وهذا السؤال يعم الكافر والمؤمن ، إلا أن سؤال المؤمن

(١) أي ذو خسران فيهما . والنعمة : ما يتنعم به الإنسان و يستلذه . والغبن : أن يشـتري بأضعاف الثمن . أو يبيع بدون ثمن المثل . فمن صح بدنه ؛ وتفرغ من الأشغال العائقة ، ولم يسع لصلاح آخرته ، فهو كالمغبون في البيع . والمقصود : بيان أن غالب الناس لا ينتفعون بالصحة والفراغ ، بل يصرفونهما في غير محالهما . (عن شرح سنن ابن ماجه) .

(٢) آية ٣٦ سورة الإسراء .

تبشير بأن يجمع له بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة . وسؤال الكافر تقريع أن قابل نعيم الدنيا بالكفر والمعصية . وقال قوم : هذا السؤال عن كل نعمة ، إنما يكون فى حق الكفار ، فقد رُوى أن أبا بكر لما نزلت هذه الآية قال : يا رسول الله ، أرأيتَ أكلةً أكلتُها معك فى بيت أبى الهيثم بن التَّيْهان ، من خبز شعير ولحم وبُسْر قد ذَنَّب[1] ، وماء عذب ، أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذى نُسأل عنه ؟ فقال عليه السلام : "ذلك للكُفار ، ثم قرأ : «وهل يُجازَى إلا الكفور»[2] " . ذكره القشيرىّ أبو نصر . وقال الحسن : لا يُسأل عن النعيم إلا أهل النار . وقال القشيرى : والجمع بين الأخبار : أن الكل يُسألون ، ولكن سؤال الكفار توبيخ ، لأنه قد ترك الشكر . وسؤال المؤمن سؤال تَشْريف ، لأنه شكَر . وهذا النعيم فى كل نعمة .

قلت : هذا القول حسن ، لأن اللفظ يعم . وقد ذكر الفِرْيابى قال : حدّثنا ورقاء عن ابن أبى نَجيح عن مجاهد ، فى قوله تعالى : «ثم لَتُسأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عنِ النَّعِيم» قال : كل شىء من لذة الدنيا . وروى أبو الأحوص عن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن الله تعالى لَيُعَدِّد نِعمه على العبد يوم القيامة ، حتى يَعُدَّ عليه : سألتنى فلانة أن أزوّجكها ، فيسميها باسمها ، فزوجتكها " . وفى الترمذى عن أبى هريرة قال : لما نزلت هذه الآية : «ثم لَتُسْأَلُنّ يومئذٍ عنِ النعيم» قال الناس : يارسول الله ، عن أى النعيم نُسْأَل ؟ فإنما هما الأسودان[3] والعدوّ حاضر ، وسيوفنا على عواتقنا . قال : " إن ذلك سيكون " . وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أوّل مايسأل عنه يوم القيامة — يعنى العبد — أن يقال له : ألم نُصِحَّ لك جسمك ، ونُرْوِيَك من الماء البارد " قال : حديث ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا كان يوم القيامة دعا الله بعبد من عباده ، فيوقفه بين يديه ، فيسأله عن جاهه كما يسأله عن ماله " . والجاه من نعيم الدنيا لامحالة . وقال مالك رحمه الله : إنه صحة البدن ، وطيب النفس . وهو القول السابع . وقيل : النوم مع الأمن والعافية . وقال سفيان بن عيينة : إن ماسَدَّ الجوع وستر العورة من خشن الطعام واللباس ، لا يُسأل عنه المرء يوم القيامة ، وإنما يُسأل عن النَّعيم . قال : والدليل عليه أن الله تعالى أسكن آدم الجنة . فقال له : إنّ لك ألَّا تجوع فيها ولا تَعْرَى .

(١) أى بدأ فيه الإرطاب . (٢) آية ١٧ سورة سبأ ، وهذه قراءة نافع . (٣) الأسودان : التمر والماء .

وأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى »(١) . فكانت هذه الأشياء الأربعة ــ ما يُسدّ به الجوع ، وما يُدفع به العطش ، وما يُسْتَكَنُّ فيه من الحر ، ويُسْتَر به عَورته ــ لآدم عليه السلام بالإطلاق، لا حساب عليه فيها ، لأنه لا بدّ له منها .

قلت : ونحو هذا ذكره القشيرى أبو نصر، قال : إن مما لا يسأل عنه العبد لباسا يوارى سوأته ، وطعاما يقيم صُلْبه ، ومكانا يُكنه من الحرّ والبرد .

قلت : وهذا منتزع من قوله عليه السلام: "ليس لابن آدم حَقٌّ فى سوى هذه الخصال: بيت يسكنه ، وثوب يوارى عورته ، وجِلْف الخبز والماء" خرجه الترمذي . وقال النضر بن شُميل: جِلف الخبز : ليس معه إدام. وقال محمد بن كعب: النعيم : هو ما أنعم الله علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم . وفى التنزيل : « لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رسولا مِن أَنفسِهِم »(٢) . وقال الحسن أيضا والمفضّل: هو تخفيف الشرائع، وتيسير القرآن، قال الله تعالى : « ومَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ »(٣)، وقال تعالى : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ »(٤) .

قلت : وكل هذه نِعم ، فيسأل العبد عنها : هل شكر ذلك أم كفر. والأقوال المتقدمة أظهر . والله أعلم .

تفسير ســورة « والعصر »

وهى مكية . وقال قتادة مدنية، وروى عن ابن عباس . وهى ثلاث آيات .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : وَالْعَصْرِ ﴿١﴾

فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ والعصر ﴾ أى الدهر ؛ قاله ابن عباس وغيره . فالعصر مثل الدهر ؛ ومنه قول الشاعر :

سَبِيلُ الهَوَى وَعْرٌ وبحرُ الهوَى غَمْرُ * ويومُ الهوَى شَهْر وشَهْرُ الهوى دَهْرُ

---

(١) آية ١١٨ ، ١١٩ سورة طه . (٢) آية ١٦٤ سورة آل عمران .
(٣) آية ٧٨ سورة الحج . (٤) آية ١٧ سورة القمر .

أى عصر أقسم الله به عز وجل؛ لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدلها، وما فيها من الدلالة على الصانع. وقيل: العصر: الليل والنهار. قال حُميد بن ثور:

وَلَنْ يَلْبَثَ العَصْرانِ: يومٌ وليلةٌ * إذا طَلَبا أَنْ يُدرِكا ما تَيَمَّمَا

والعصران أيضا: الغداة والعشى. قال:

وأَمْطُــلُه العَصْرين حتى يَمَــلَّنى * ويرضى بِنِصْفِ الدَّينِ والأنفُ راغِمُ

يقول: إذا جاءنى أول النهار وعدته آخره. وقيل: إنه العشى، وهو ما بين زوال الشمس وغروبها؛ قاله الحسن وقتادة. ومنه قول الشاعر:

تَرَوَّحْ بِنا ياعمرُو قَـدْ قَصُرَ العَصْرُ * وفى الرَّوْحَةِ الأُولَى الغنيمة والأَجْرُ

وعن قتادة أيضا: هو آخر ساعة من ساعات النهار. وقيل: هو قَسَم بصلاة العصر، وهى الوسطى؛ لأنها أفضل الصلوات؛ قاله مقاتل. يقال: أُذِّن للعصر؛ أى لصلاة العصر. وصُلِّيت العصر؛ أى صلاة العصر. وفى الخبر الصحيح "الصلاةُ الوسْطَى: صلاة العصر". وقد مضى فى سورة «البقرة»[(1)] بيانه. وقيل: هو قسم بعصر النبى صلى الله عليه وسلم، لفضله بتجديد النبوة فيه. وقيل: معناه ورب العصر.

الثانية ـــ قال مالك: من حلف ألّا يكلم رجلا عَصْرا: لم يكلمه سنة. قال ابن العربى: «إنما حمل مالك يمينَ الحالف ألا يكلم امرأ عصرا على السنة؛ لأنه أكثر ما قيل فيه، وذلك على أصله فى تغليظ المعنى فى الأيمان. وقال الشافعى: يَبَرُّ بساعة، إلا أن تكون له نية، وبه أقول؛ إلا أن يكون الحالف عربيا، فيقال له: ما أردت؟ فإذا فسره بما يحتمله قُبِل منه، إلا أن يكون الأقل، ويجىء على مذهب مالك أن يحمل على ما يفسر. والله أعلم».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾

هـذا جواب القسم. والمراد به الكافر؛ قاله ابن عباس فى رواية أبى صالح. وروى الضحاك عنه قال: يريد جماعة من المشركين: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٢١٠

ابن عبد المطلب بن أسد بن عبد العُزّى ، والأسود بن عبد يغوث . وقيل : يعنى بالإنسان جنس الناس . ﴿ لَفِى خُسْرٍ ﴾ : لفى غَبْن . وقال الأخفش : هَلَكَة . الفرّاء : عقوبة ؛ ومنه قوله تعالى : « وكانَ عاقِبةُ أَمْرِها خُسْرًا »[(١)] . ابن زيد : لفى شر . وقيل : لفى نقص ؛ المعنى متقارب . وروى عن سلام « والعصِر » بكسر الصاد . وقرأ الأعرج وطلحة وعيسى الثقفيّ « خُسُرٍ » بضم السين . وروى ذلك هارون عن أبى بكر عن عاصم . والوجه فيهما الإتباع . ويقال : خُسْر وخُسُر ؛ مثل عُسْر وعُسُر . وكان علىّ يقرؤها « والعَصْرِ ونَوائِبِ الدَّهْرِ ، إنّ الإنسان لفى خُسْر . وإنه فيه إلى آخر الدهر » . وقال إبراهيم : إن الإنسان إذا عُمِّرَ فى الدنيا وهَرِم ، لفى نقص وضعف وتراجع ؛ إلا المؤمنين ، فإنهم تكتب لهم أجورهم التى كانوا يعملونها فى حال شبابهم ؛ نظيره قوله تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ فِى أَحْسَنِ تقوِيم . ثمّ رَدَدْناه أَسْفَلَ سافِلِين » . قال : وقراءتنا « والعصْرِ إنّ الإنسانَ لَفِى خُسْرٍ ، وإنّه فى آخر الدهر » . والصحيح ما عليه الأمة والمصاحف . وقد مضى الردّ فى مقدّمة الكتاب على من خالف مصحف عثمان ، وأن ذلك ليس بقرآن يتلى ؛ فتأمله هناك[(٢)] .

قوله تعالى : إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلّا الّذِينَ آمَنُوا ﴾ استثناء من الإنسان ؛ إذ هو بمعنى الناس على الصحيح .

قوله تعالى : ﴿ وعَمِلوا الصالِحاتِ ﴾ أى أدّوا الفرائض المفترضة عليهم ؛ وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال أبىّ بن كعب : قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم « والعصر » ثم قلت : ما تفسيرها يا نبى الله ؟ قال : ” « والعَصْر » قَسَم من الله ، أقسم ربكم بآخر النهار : « إنّ الإنسانَ لَفِى خُسْرٍ » : أبو جهل « إلا الذِين آمنوا » : أبو بكر ، « وعمِلو الصّالِحاتِ » عمر « وتواصَوْا بِالحَقّ » عثمان « وتواصَوْا بِالصَّبْرِ » علىّ “ ، رضى الله عنهم أجمعين . وهكذا خطب

---

(١) آية ٩ سورة الطلاق . (٢) راجع جـ ١ ص ٨٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

ابن عباس على المنبر موقوفا عليه . ومعنى ﴿ وَتَوَاصَوْا ﴾ أى تحابُّوا ؛ أوصى بعضهم بعضا ، وحث بعضهم بعضا . ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالتوحيد ؛ كذا روى الضحاك عن ابن عباس . قال قتادة : « بالحقّ » أى القرآن . وقال السدّى : الحق هنا هو الله عز وجل . ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ على طاعة الله عز وجل، والصبر عن معاصيه . وقد تقدم[1] . والله أعلم .

تفسير سورة « الهمزة »

مكية بإجماع . وهى تسع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾

قد تقدّم القول فى « الويل » فى غير موضع[2]، ومعناه الخزى والعذاب والهلكة . وقيل : وادٍ فى جهنم . ﴿ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ قال ابن عباس : هم المشّاءون بالنميمة، المفسدون[3] بين الأحبة ، الباغون للبرآء العيب ؛ فعلى هذا هما بمعنى . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " شرار عبادِ الله تعالى المشّاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العيب " .
وعن ابن عباس أن الهُمَزَة : القتّات، واللُّمزة : العياب . وقال أبو العالية والحسن ومجاهد وعطاء بن أبى رَباح : الهمزة : الذى يغتاب ويَطْعُن فى وجه الرجل، واللمزة : الذى يغتابه من خلفه إذا غاب ؛ ومنه قول حسان :

هَمَزْتُكَ فاختَضَعْتَ بذُل نفسٍ * بقافيــة تأجَّجُ كالشُّـواظِ[4]

---

(١) راجع ص ٧١ من هذا الجزء .
(٢) راجع جـ ٢ ص ٧ طبعة ثانية .
(٣) فى بعض نسخ الأصل « المفرقون » .
(٤) رواية البيت كما فى ديوانه :

مجـللة تعممه شـنارا * مضرمة تأجج كالشـواظ
كهمزة ضيغم يحمى عرينا * شديد مغارز الأضلاع خاظى

وآختار هذا القول النحاس، قال : ومنه قوله تعالى «وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدقاتِ»[1] . وقال مُقاتل ضدّ هذا الكلام : إن الهُمَزَة : الذى يغتابُ بالغَيْبة، واللُّمزة : الذى يغتاب فى الوجه . وقال قتادة ومجاهد : الهُـمزة : الطَّعَّان فى الناس، واللُّمزة: الطعَّان فى أنسابهم. وقال آبن زيد : الهامز : الذى يهمز الناس بيده ويضربهم ، واللُّمزة : الذى يَلْمِزهم بلسانه ويعيبهم . وقال سفيان الثورِىّ : يهمِـز بلسانه، ويلمِز بعينيه . وقال آبن كيسان : الهُمَزَة الذى يؤذى جلساءه بسوء اللفظ، واللمزة : الذى يكسر عينه على جليسه، ويشير بعينه ورأسه وبحاجبيه . وقال مرة : هما سواء؛ وهو القَتَّات الطَّعَّان للرء إذا غاب . وقال زياد الأعجم:

تُدْلِي بِوُدّى إذا لاقيتَـنِي كَذِباً * وإنْ أُغَيَّبْ فأنتَ الهامزُ اللُّمزهْ

وقال آخر :

إذا لَقِيتكَ عن سُخْطٍ تُكاشِرُنى * وإن تَغَيَّبْتُ كنتَ الهامزَ اللُّمَزَهْ

الشحط : البعد . والهُمَزة : آسم وضِع للبالغة فى هـذا المعنى ؛ كما يقال : سُخَرَةٌ وضُحَكَة: للذى يَسخَر ويَضحك بالناس . وقرأ أبو جعفر محمد بن علىّ والأعرج «هُمْزَة لُمْزَة» بسكون الميم فيهما . فإن صح ذلك عنهما، فهى فى معنى المفعول، وهو الذى يتعرّض للناس حتى يَهْمِزوه ويضحكوا منه ، ويحملهـم على الأغتياب . وقرأ عبـد الله بن مسعود وأبو وائل والنخَعىّ والأعمش : « ويلٌ لِلهُمَزَةِ اللُّمَزَةِ » . وأصل الهمز : الكسر، والعَضّ على الشىء بعنف ؛ ومنه همز الحرف . ويقال: همزت رأسه . وهمزت الجوز بكفى كسرته . وقيل لأعرابىّ : أتهمزون (الفارة) ؟ فقال : إنما تهمزها الهِرّة . الذى فى الصحاح : وقيل لأعرابى أتهمز الفارة؟ فقال السنور يهمزها . والأول قاله الثعلبى، وهو يدل على أن الهِرّ يسمى الهمزة . قال العجاج :

* ومَنْ هَمَزْنا رأسَهُ تَهَشَّما *

وقيـل : أصل الهمز واللز : الدفع والضرب . لَمَزَهُ يَلْمِزه لَمْـزًا : إذا ضر به ودفعه . وكذلك هَمَزَهُ : أى دفعه وضر به . قال الراجز :

ومَنْ هَمَزْنا عِزَّهُ تَبَرْكَعا * على آستِه زَوْبَعَةً أو زَوْبَعَا

(١) آية ٥٨ سورة التوبة .

البركعة : القيام على أربع . و بركعهُ فتبركع ؛ أى صرعه فوقع على آسته ؛ قاله فى الصحاح .
والآية نزلت فى الأخنس بن شَرِيق ، فيما رَوَى الضحاك عن ابن عباس . وكان يَلْمِز الناس ويعيبهم : مقبلين ومدبرين . وقال ابن جُرَيج : فى الوليد بن المغيرة ، وكان يغتاب النبي صلى الله عليه وسلم من ورائه ، و يقدح فيه فى وجهه . وقيل : نزلت فى أُبَىّ بن خَلَف . وقيل : فى جميل ابن عامر الثقفىّ[1] . وقيل : إنها مرسلة على العموم من غير تخصيص ؛ وهو قول الأكثرين . قال مجاهد : ليست بخاصة لأحد ، بل لكل من كانت هذه صفته . وقال الفرّاء : يجوز أن يذكر الشيء العام و يقصد به الخاصّ ، قصدَ الواحد إذا قال : لا أزورك أبدا . فتقول : من لم يزرنى فلست بزائره ؛ يعنى ذلك القائل .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴾ (٢)

أى أعدّه ـ زعم ـ لنوائب الدهر ؛ مثل كَرُمَ وأكرم . وقيل : أحصى عدده ؛ قاله السدىّ .
وقال الضحاك : أى أعدّ ماله لمن يرثه من أولاده . وقيل : أى فاخر بعدده وكثرته . والمقصود الذم على إمساك المال عن سبيل الطاعة . كما قال : «مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ»[2] ، وقال : «وَجَمَعَ فَأَوْعَى»[3] .
وقراءة الجماعة « جَمَع » مخفف الميم . وشدّدها ابن عامر وحمزة والكسائىّ على التكثير .
واختاره أبو عُبيد ؛ لقوله : « وَعَدَّدَه » . وقرأ الحسن ونصر بن عاصم وأبو العالية « جَمَع » مخففا ، « وعَدَدَه » مخففا أيضا ؛ فأظهروا التضعيف ، لأن أصله عَدَّه وهو بعيد ؛ لأنه وقع فى المصحف بدالين . وقد جاء مثله فى الشعر ؛ لما أبرزوا التضعيف خففوه . قال :

مَهْلًا أُمامةُ[4] قد جَرَّبتِ من خُلُقِى　＊　إنّى أَجُودُ لِأقوامٍ وإنْ ضَنِنُوا

---

(١) كذا فى نسخ الأصل . والذى فى الطبرى : « جميل بن عامر الجمحى » . وفى سيرة ابن هشام (ص ٢٢٩ طبع أوربا) وتاريخ الكامل لابن الأثير (ج٢ ص ٦٦ طبع أوربا) و بعض كتب التفسير : «جميل بن معمر الجمحى» .

(٢) آية ٢٥ سورة ق ، وآية ١٢ سورة ن .

(٣) آية ١٨ سورة المعارج .

(٤) فى اللسان وكتاب سيبويه : « مهلا أعاذل » . وقد نسباه لقعنب بن أم صاحب .

أراد : ضَنُّوا وبخِلوا ، فأظهر التضعيف ؛ لكن الشعر موضع ضرورة . قال المهدوى : من خفف « وعدّده » فهو معطوف على المال ؛ أى وجمع عدده فلا يكون فعلا على إظهار التضعيف ؛ لأن ذلك لا يستعمل إلا فى الشعر .

قوله تعالى : يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ يَحْسَبُ ﴾ أى يظنّ ﴿ أَنَّ مالَه أَخْلَدَه ﴾ أى يبقيه حيا لا يموت ؛ قاله السُّدّى . وقال عكرمة : أى يزيد فى عمره . وقيل : أحياه فيما مضى ، وهو ماض بمعنى المستقبل. يقال : هلك والله فلان ودخل النار ؛ أى يدخل . ﴿ كَلَّا ﴾ ردّ لما توهمه الكافر ؛ أى لا يَخْلُد ولا يَبقَ له مال . وقد مضى القول فى « كَلّا » مستوفى[1] . وقال عمر بن عبد الله مولى غُفْرة : إذا سمعت الله عز وجل يقول « كَلَّا » فإنه يقول كذبت . ﴿ لَيُنْبَذَنَّ ﴾ أى ليطرحنّ وليلقين . وقرأ الحسن ومحمد بن كعب ونصر بن عاصم ومجاهد وحُمَيد وابن محيصن : لَيَنْبَذَانِّ بالتثنية، أى هو وماله . وعن الحسن أيضا « لَيُنْبَذَنَّهُ » على معنى لَيُنْبَذَنَّ مالُه . وعنه أيضا بالنون « لَنَنْبِذَنَّهُ » على إخبار الله تعالى عن نفسه، وأنه يَنْبِذ صاحب المال . وعنه أيضا « لَيُنْبَذُنَّ » بضم الذال؛ على أن المراد الهمزة واللزة والمال وجامعه . ﴿ فِى الْحُطَمَةِ ﴾ وهى نار الله ؛ سُمّيت بذلك لأنها تكسر كل ما يُلْقى فيها وتحطمه وتَهْشِمُه . قال الراجز :

إنا حَطَمْنا بالقَضيبِ مُصْعَبَا * يومَ كَسَرْنا أَنْفَـه لِيغضَـبَا

وهى الطبقة السادسة من طبقات جهنم . حكاه الماوردى عن الكلبي . وحَكى القشيرى عنه : « الحُطَمة » الدَّركة الثانية من درك النار. وقال الضحاك : وهى الدرك الرابع . ابن زيد : اسم من أسماء جهنم . ﴿ وما أَدْراكَ ما الحُطَمَة ﴾ على التعظيم لشأنها ، والتفخيم لأمرها .

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٤٧ .

ثم فسرها ماهى فقال : ﴿ نارُ اللهِ المُوقَدَةُ ﴾ أى التى أُوقد عليها ألف عام، وألف عام، وألف عام؛ فهى غير خامدة، أعدّها الله للعصاة . ﴿ الَّتِي تَطَّلِعُ على الْأَفْئِدةِ ﴾ قال محمد بن كعب : تأكل النار جميع ما فى أجسادهم، حتى إذا بلغت إلى الفؤاد، خُلِقوا خلقا جديدا، فرجعت تأكلهم . وكذا روى خالد بن أبى عمران عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أن النار تأكل أهلها، حتى إذا اطلعت على أفئدتهم انتهت، ثم إذا صَدَروا تعود، فذلك قوله تعالى : « نارُ اللهِ المُوقَدَةُ . الَّتِي تَطَّلِعُ على الْأَفْئِدَةِ » " . وخص الأفئدة لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه . أى إنه فى حال من يموت وهم لا يموتون ؛ كما قال الله تعالى : « لا يَمُوتُ فِيها ولا يَحْيا »[(1)] فهم إذًا أحياء فى معنى الأموات . وقيل : معنى « تَطَّلِعُ على الْأَفْئِدةِ » أى تعلم مقدار ما يستحقه كل واحد منهم من العذاب؛ وذلك بما استبقاه الله تعالى من الأمارة الدالة عليه . ويقال : اطّلع فلان على كذا : أى علمه . وقد قال الله تعالى : « تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وتولَّى »[(2)] . وقال تعالى : « إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وزَفِيرًا »[(3)] . فوصفها بهذا، فلا يبعد أن توصف بالعلم .

قوله تعالى : إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾

أى مُطْبَقة؛ قاله الحسن والضحاك . وقد تقدّم فى سورة « البَلَد » القول فيه[(4)] . وقيل : مُغلقة؛ بلغة قريش . يقولون : آصَدْتُ الباب : إذا أغلقته؛ قاله مجاهد . ومنه قول عُبيد الله ابن قيس الرقيات :

إنَّ فى القَصْرِ لَوْ دَخَلْنَا غَزالًا * مُصْفَقًا مُوصَدًا[(5)] عليه الحِجابُ

﴿ فِى عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ الفاء بمعنى الباء؛ أى موصدة بعمد ممدّدة؛ قاله ابن مسعود؛ وهى فى قراءته « بِعَمَدٍ مُمَدَّدةٍ » وفى حديث أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم " ثُمّ إنّ اللهَ يَبْعَثُ إليهم

---

(1) آية ٧٤ سورة طه . (2) آية ١٧ سورة المعارج . (3) آية ١٢ سورة الفرقان .
(4) راجع ص ٧٢ من هذا الجزء . (5) صفق الباب وأصفقه : أغلقه .

ملائكة بأطباق من نار، ومسامير من نار وعَمَد من نار، فتطبق عليهم بتلك الأطباق، وتشدّ عليهم بتلك المسامير، وتمدّ بتلك العَمَد، فلا يبقى فيها خَلَل يدخل فيه رَوْح، ولا يخرج منه غم، و ينساهم الرحمن على عرشه، و يتشاغل أهل الجنة بنعيمهم، ولا يستغيثون بعدها أبدا، و ينقطع الكلام، فيكون كلامهم زَفِيرا وشهيقا؛ فذلك قوله تعالى « إنها عليهم مُؤْصَدة . فِي عَمَدٍ ممددة » ".

وقال قتادة : « عَمَد » يعذبون بها . واختاره الطبري . وقال ابن عباس : إن العَمَد الممدّدة أغلال في أعناقهم . وقيل : قيود في أرجلهم ؛ قاله أبو صالح . وقال القشيري : والمعظم على أن العمد أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار . وتشدّ تلك الأطباق بالأوتاد، حتى يرجع عليهم غمها وحرها، فلا يدخل عليهم رَوْح . وقيل : أبواب النار مطبقة عليهم وهم في عَمَد؛ أي في سلاسل وأغلال مطوّلة، وهي أحكم وأرسخ من القصيرة. وقيل : هم في عمد ممدّدة ؛ أي في عذابها وآلامها يُضْربون بها . وقيل : المعنى في دهر ممدود ؛ أي لا انقطاع له . وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم « فِي عُمُدٍ » بضم العين والميم : جمع عمود. وكذلك « عَمَد » أيضا . قال الفرّاء : والعَمَد والعُمُد : جمعان صحيحان لعمود؛ مثل أدِيم وأَدَم وأُدُم، وأَفِيق وأَفَق وأُفُق[1] . أبو عُبيدة : عَمَد : جمع عِماد؛ مثل إهاب . واختار أبو عُبيد « عَمَد » بفتحتين. وكذلك أبو حاتم؛ اعتبارا بقوله تعالى: « رفع السموات بِغير عَمَدٍ تَرَوْنها»[2] وأجمعوا على فتحها. قال الجوهري: العمود: عمود البيت، و جمع القلة : أعمدة، و جمع الكثرة عُمُد، وعَمَد؛ وقرئ بهما قوله تعالى : « فِي عَمَدٍ مُمَدَّدةٍ » . وقال أبو عبيدة : العمود، كل مستطيل من خشب أو حديد ، وهو أصل للبناء مثل العماد . عَمَدْت الشيء فانعمد؛ أي أقمته بعماد يعتمد عليه . وأعمدته جعلت تحته عَمَدًا . والله أعلم .

---

(١) الأديم : الجلد المدبوغ . والأفيق : الجلد الذي لم يدبغ . وقيل : هو الذي لم تتم دباغته .

(٢) آية ٢ سورة الرعد .

تفسير ســـورة « الفيل »

وهى مكية بإجمـاع . وهى خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعـالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١)

فيه خمس مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أى ألم تُخبَر . وقيل : أَلَمْ تعلَم . وقال ابن عباس : أَلَمْ تسمع ؟ واللفظ استفهام، والمعنى تقرير. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، ولكنه عام؛ أى ألم تَرَوْا ما فعلتُ بأصحابِ الفيل ؛ أى قد رأيتم ذلك ، وعرفتم موضع مِنَّتِى عليكم ، فما لكم لا تؤمنون ؟ و﴿ كَيْفَ ﴾ فى موضع نصب بـ « فَعَلَ رَبُّك » لا بـ « ألم تر كيف » من معنى الاستفهام .

الثانيـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ بِأَصْحَابِ الفِيلِ ﴾ الفيل معروف، والجمع أفيال: وفُيول، وفِيَلَة . قال ابن السكيت : ولا تقل أفيلة . [والأنثى فِيلة](١) وصاحبه فَيَّال(٢) . قال سيبويه : يجوز أن يكون أصل فِيل فُعْلا، فكُسِر من أجل اليـاء ؛ كما قالوا : أبيض وبِيض . وقال الأخفش : هذا لا يكون فى الواحد، إنما يكون فى الجمع . ورجل فِيل الرأى ، أى ضعيف الرأى . والجمع أفيال. ورجل فال؛ أى ضعيف الرأى، مخطئ الفِراسة . وقد فال الرأى يَفِيل فُيولة ، وفَيَّل رأيه تفييلا : أى ضعفه، فهو فَيِّل الرأى .

الثالثـــة ــ فى قصة أصحاب الفيل ؛ وذلك أن (أَبرهة) بنى القُلَّيس بصنعاء، وهى كنيسة لم يُرَ مِثلها فى زمانها بشىء من الأرض، وكان نصرانيا، ثم كتب إلى النجاشىّ : إنى قد بنيت لك أيها الملِك كنيسة لم يُبن مثلها لملِك كان قبلك، ولست بمنتهٍ حتى أصرِف إليها حج العرب

(١) من تتمة قول ابن السكيت .	(٢) فى اللسان : « وصاحبها » .

فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشىّ، غضب رجل من النَّسأة[١]، فخرج حتى أتى الكنيسة، فقعد فيها — أى أحدث — ثم خرج فلحق بأرضه؛ فأُخْبِر بذلك أبرهة، فقال: من صنع هذا؟ فقيل: صنعه رجل من أهل هذا البيت، الذى تحج إليه العرب بمكة، لما سمع قولك: «أصرِف إليها حَجّ العرب» غضب، فجاء فقعد فيها. أى أنها ليست لذلك بأهل. فغضب عند ذلك أبرهة، وحلف ليسيرَنّ إلى البيت حتى يهدمه، و بعث رجلا كان عنده إلى بنى كِنانة[٢] يدعوهم إلى حج تلك الكنيسة، فقتلت بنو كنانة ذلك الرجل، فزاد أبرهةَ ذلك غضبا وحَنَقا، ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت، ثم سار وخرج معه بالفيل؛ وسمعت بذلك العرب، فأعظموه وفَظِعوا به، ورأوا جهاده حقا عليهم، حين سمعوا أنه يريد هدم الكعبة بيتِ الله الحرام. فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم، يقال له ذو نفر، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة، وجهاده عن بيت الله الحرام، وما يريد من هدمه وإخرابه؛ فأجابه من أجابه إلى ذلك، ثم عرض له فقاتله، فهزِم ذو نفر وأصحابه، وأخِذ له ذو نفر فأُتِى به أسيرا؛ فلما أراد قتله قال له ذو نَفْر: أيها الملك لا تقتلنى، فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيرا لك من قتلى؛ فتركه من القتل، وحبسه عنده فى وَثاق، وكان أبرهة رجلا حليما. ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك، يريد ما خرج له، حتى إذا كان بأرض خَثْعَمَ عرض له نُفَيل ابن حبيب الخَثْعَمِىّ فى قبيلَى خثعم: شَهران وناهِس، ومن تبعه من قبائل العرب، فقاتله فهزمه أبرهة، وأُخِذ له نُفيل أسيرا؛ فأُتِى به، فلما هم بقتله قال له نُفَيل: أيها الملك لا تقتلنى، فإنى دليلك بأرض العرب، وهاتان يداى لك على قبيلَى خثعم: شهران وناهِس، بالسمع والطاعة؛ فخلى سبيله، وخرج به معه يدله، حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن مُعَتِّب فى رجال من ثقيف، فقالوا له: أيها الملك، إنما نحن عبيدك، سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذى تريد — يعنون اللاتَ[٣] — إنما تريد البيت الذى بمكة،

(١) فى سيرة ابن هشام: «من النسأة أحد بنى فقيم بن عدىّ ... ... والنسأة: الذين كانوا ينسئون الشهور على العرب فى الجاهلية، فيحلون الشهر من أشهر الحرم ويحرمون مكانه الشهر من أشهر الحل، و يؤخرون ذلك الشهر؛ ففيه أنزل الله تبارك وتعالى: «إنما النسىء زيادة فى الكفر». (راجع سيرة ابن هشام طبع أوربا ص ٢٩).

(٢) بنو كنانة: قبيلة ذلك الرجل الذى أحدث فى الكنيسة.

(٣) فى سيرة ابن هشام: «واللات: بيت لهم بالطائف، كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة».

نحن نبعث معك من يَدُلُّك عليه ؛ فتجاوز عنهم . وبعثوا معه أبا رِغال ، حتى أنزله المغمس[1] فلما أنزله به مات أبو رِغال هناك ، فرَجَمت قبره العرب ؛ فهو القبر الذى يرجُم الناسُ بالمغمس ، وفيه يقول الشاعر :

وأرجُـمُ قـبـرَه فى كل عـامٍ ＊ كرجْم النـاس قبر أبى رِغالِ

فلما نزل أبرهة بالمغمس ، بعث رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود[2] على خيل له ، حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم ، وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ؛ فهمّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ؛ ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به ، فتركوا ذلك . وبعث أبرهة حُناطة الحِميرِىّ إلى مكة ، وقال له : سل عن سيد هـذا البلد[3] وشريفهم ، ثم قل له : إن الملك يقول : إنى لم آت لحربكم ، إنمـا جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تَعْرضوا لى بحرب ، فلا حاجة لى بدمائكم ؛ فإن هو لم يُرِد حربى فأتنى به . فلما دخل حُناطة مكة ، سأل عن سيد قريش وشريفها ؛ فقيل له : عبـد المطلب بن هاشم ؛ فجاءه فقال له ما أمره به أبرهـة ؛ فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، وما لنا بذلك منه طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ، أو كما قال ، فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته ، وإن يخل بينه وبينه ، فوالله ما عندنا دفع عنه . فقال له حُناطة : فانطلِق إليه ، فإنه قد أمرنى أن آتيه بك ؛ فانطلق معه عبد المطلب ، ومعه بعض بنيه ، حتى أتى العسكر ؛ فسأل عن ذى نَفْر ، وكان صديقا له ، حتى دخل عليه وهو فى مَحْبِسه ، فقال له : ياذا نفْر ، هل عندك من غَناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نفْر ؛ وما غَناء رجل أسـير بيدى ملِك ، ينتظر أن يقتله غُدُوًّا وعَشِيا ! ما عندى غَناء فى شىء مما نزل بك ، إلا أن أُنيْسا سائس الفيل صديق لى ، فسأرسل إليه ، وأوصِيه بك ، وأُعْظِم عليـه حقك ، وأسأله أن يسـتأذن لك على الملك ، فتكلّمه بمـا بدا لك ، ويشـفع لك عنده بخير إن قَدَر على ذلك ؛ فقال حسبِى . فبعث ذو نفْر إلى أنيس ، فقال له :

---

(١) المغمس : موضع قرب مكة فى طريق الطائف .　(٢) كذا فى بعض نسخ الأصل وتفسير الثعلبى وتاريخ الطبرى (قسم أول ص ٩٣٧ طبع أوربا) وتاريخ ابن الأثير (جـ ١ ص ٣٢١ طبع أوربا) . وفى بعض الأصول : تفسير الطبرى وسيرة ابن هشام (ص ٣٣ طبع أوربا) : « مفصود » بالفاء ، بدل القاف .
(٣) فى هامش نسخة : « عن سيد هذا البيت » .

إن عبد المطلب سيد قريش ، وصاحب عَيْن مكة ، ويطعم النـاس بالسهل ، والوحوش في رءوس الجبال ، وقـد أصاب له الملك مائتى بعير ، فاسْتأْذِنْ له عليـه ، وآنفعه عنـده بما آستطعت ؛ فقال : أَفْعَلُ . فكلم أُنيس أبرهة ، فقال له : أيها الملك ، هذا سيد قريش ببابك ، يستأذن عليك ، وهو صاحب عَيْن مكة ، يطعم الناس بالسهل ، والوحوش في رءوس الجبال ؛ فأْذَنْ له عليك ، فيكلمَك في حاجته . قال : فأذن له أبرهة .

وكان عبد المطلب أوسم الناس ، وأعظمهم وأجملهم ، فلما رآه أبرهة أَجَلَّه ، وأعظمه عن أن يجلسه تحته ، فنزل أبرهة عن سريره ، فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه . ثم قال لترجمانه : قل له : حاجَتك؟ فقال له ذلك الترجمان ، فقال : حاجتى أن يردّ علىّ الملك مائتى بعير أصابها لى . فلما قال له ذلك ، قال أبرهة لترجمانه : قل له لقد كنتَ أعجبتَنى حين رأيتك ، ثم قد زهِدْتُ فيك حين كلمتنى ، أتكلمنى في مائتى بعير أصبتُها لك ، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك ، قد جئتُ لهدمه؟ لا تكلمنى فيه ! . قال له عبد المطلب : إنى أنا رب الإبل ، وإن للبيت ربا سيمنعه . قال : ما كان ليمتنع منى ! قال أنت وذاك . فردّ عليـه إبله . وآنصرف عبد المطلب إلى قريش ، فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شَعَف[1] الجبال والشِّعاب ، تخوفا عليهم مَعَرَّة[2] الجيش . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلْقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش ، يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لا هُمَّ إنَّ العَبْـدَ يَمْـ * ـنَعُ رَحْلَه فامنعْ حِلالَكْ[3]

لا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُـمْ * ومِحالُهُم عَدْوًا[4] مِحالَكْ

إنْ يَدْخلوا البلد الحرا * مَ فأمْرٌ ما بَـدَا لَكْ

(١) شعف الجبال : رءوسها . (٢) المعرة الأذى . ومعرّة الجيش : أن ينزلوا بقوم فيأكلوا من زروعهم بغير علم . وقيل : وطأتهم من مروابه من مسلم أو معاهد ، وإصابتهم إياهم في حريمهم وأموالهم وزروعهم بما لم يؤذن لهم فيه . (٣) الحلال (بالكسر) : القوم المقيمون المتجاورون . يريد بهم سكان الحرم .

(٤) « عدوا » بالعين المهملة ؛ ومعناه الاعتداء . وفي اللسان مادة « غدا » : « غدوا » بالغين المعجمة . قال : « الغدو أصـل الغد ، وهو اليوم الذى يأتى بعـد يومك ، فحذفت لامه ولم يستعمل تاما إلا في الشعر . ولم يرد عبد المطلب الغد بعينه ؛ وإنما أراد القريب من الزمان » .

يقول : أى : شىء ما بدالك ، لم تكن تفعله بنا . والحِلال : جمع حِلّ . والمِحال : القوة . وقيل : إن عبد المطلب لمـا أخذ بحلقة باب الكعبة قال :

يا رَبِّ لا أرجُو لَهُمْ سِواكا * يا ربِّ فامنعْ منهمُ حِماكا

إنّ عدوَّ البيت مَنْ عاداكا * إنهمُ لن يقهروا قُواكا

وقال عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى :

لا هُمَّ أخزِ الأسودَ بن مقصود * الآخِذَ الهَجْمَةَ فيها التّقليدْ [1]

بين حِراءٍ وثَبِيرٍ فالبِيدْ * يحبسها وهى أولات التطريدْ [2]

فضمها إلى طَمَاطِمٍ سُودْ * [قَدْ أَجْمَعُوا ألَّا يكون معبودْ [3]

ويهدموا البيتَ الحرامَ المَعْمُودْ * والمَرْوَتَينِ والمَشَاعِرَ السُّودْ] [4]

* أخفِرْهُ [5] يارب وأنت محمود *

قال ابن إسحاق : ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، ثم انطلق هو ومن معه من قريش إلى شَعَف الجبال ، فتحرّزوا فيها ، ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها . فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة ، وهيأ فيله ، وعبأ جيشه ، وكان اسم الفيل محمودا ، وأبرهة مجمع لهدم البيت ، ثم الانصراف إلى اليمن . فلما وجهوا الفيل إلى مكة ، أقبل نُفَيْل بن حبيب ، حتى قام إلى جنب الفيل ، ثم أخذ بأُذنه فقال له : ابرُكْ محمود ، وارجع راشدا من حيث جئت ، فإنك فى بلد الله الحرام . ثم أرسل أذنه ، فبرك الفيل . وخرج نُفيل بن حبيب يشتدّ ، حتى أصعد فى الجبل . وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوا فى رأسه بالطبرزين [6] ليقوم فأبى ؛ فأدخلوا

---

(١) الهجمة : القطعة الضخمة من الإبل . قيل هى ما بين الثلاثين والمائة . وقيل أولها الأربعون . وقيل ما بين السبعين إلى المائة . (انظر كتب اللغة) . وتقليدها أنه يجعل فى عنقها شعارا ليعلم أنه هدى . (٢) حراء وثبير : جبلان بمكة . والبيد : جمع البيداء ، وهى الفلاة . وتطريد الإبل : تتابعها . (٣) السهيلى : «طماطم سود» يعنى العلوج . (٤) ما بين المربعين لم يذكره ابن إسحاق فى روايته . (٥) أخفره : أى انقض عهده وعزمه فلا تؤمنه . (٦) الطبر (محركة) : الفأس من السلاح (معربة) . والطبرزين آلة من السلاح تشبه الطبر . وقيل هو الطبر بعينه .

محاجن[1] لهم فى مراقه، فبزغوه[2] بها ليقوم، فأبى، فوجهوه راجعا إلى اليمن، فقام يُهَروِل، ووجهوه إلى الشام، ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق، ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك.
وأرسل الله عليهم طيرا من البحر، أمثال الخطاطيف والبَلَسان[3]، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار: حجر فى منقاره، وحجران فى رجليه، أمثال الحِمّص والعَدَس، لا تصيب منهم أحدا إلا هلك؛ وليس كلّهم أصابت. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التى جاءوا منها، ويسألون عن نفيل ابن حبيب، ليدلهم على الطريق إلى اليمن. فقال نفيل بن حبيب حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته:

أَيْنَ المَفَــرُّ والإلَهُ الطَّالِبْ * والأَشْرَمُ[4] المغلوبُ ليسَ الغالبْ

وقال أيضا:

حمِــدتُ الله إذ أبصرتُ طَيْرا * وخفت حِجارَةً تُلْقَى علينـا
فكلُّ القومِ يسأل عن نُفَيْــلٍ * كأنَّ علَىَّ للحُبْشان دَيْنـا

فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلِكون [بكل مَهْلِك][5] على كل مَنْهل[6]، وأصيب أبرهة فى جسده، وخرجوا به معهم يسقط أَنْمُلَةً أنملة[7]، كلما سقطت منه أنملة أتبعتها منه مِدّةٌ تمث[8] قيحا ودما؛ حتى قدِموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صــدره عن قلبه؛ فيما يزعمون.

وقال الكلبي ومقاتل بن سليمان — يزيد أحدهما وينقص —: سبب الفيــل ما رُوى أن فِتْية من قريش خرجوا تجارا إلى أرض النجاشىّ، فنزلوا على ساحل البحر إلى بيعــة للنصارى، تسميها النصارى الهَيْكل، فأوقدوا نارا لطعامهم وتركوها وارتحلوا؛ فهبت ريح عاصف على النــار فأضرمت البِيعــة نارا، فاحترقت؛ فأتى الصريخ إلى النجاشى فأخبره،

---

(١) المحجن: العصا المنعطفة الرأس كالصولجان. (٢) بزغوه: شرطوه. (٣) فى اللسان والنهاية مادة (بلس): «وقال عباد بن موسى أظنها الزرازير». (٤) الأشرم: أبرهة؛ سمى بذلك لأنه جاءه حجر فشرم أنفه فسمى الأشرم. (٥) زيادة عن سيرة ابن هشام. (٦) فى سيرة ابن هشام: «منهل» (٧) أى يتثر جسمه، والأنملة طرف الأصبع، ويعبر بها عن الصغير من الأشياء. (٨) مث السقاء: رشح.

فاستشاط غضبا. فأتاه أبرهة بن الصَّبَّاح وحُجْر بن شُرَحْبيلَ وأبو يَكْسومَ الكِنْديون، وضمنوا له إحراق الكعبة وسَبْي مكة. وكان النجاشيّ هو الملك، وأبرهةُ صاحب الجيش، وأبو يكسوم نديم الملك، وقيل وزير، وحُجْر بن شُرَحبيل من قوّاده. وقال مجاهد: أبو يكسوم هو أبرهة ابن الصباح. فساروا ومعهم الفيل. قال الأكثرون: هو فيل واحد. وقال الضحاك: هي ثمانية فِيَلَة. ونزلوا بذى المَجاز، وآستاقوا سَرْح مكة، وفيها إبل عبد المطلب. وأتى الراعى نذيرا، فصعد الصفا، فصاح: واصباحاه! ثم أخبر الناس بمجىء الجيش والفيل. فخرج عبد المطلب، وتوجه إلى أبرهة، وسأله فى إبله. وآختُلِف فى النجاشيّ، هل كان معهم؛ فقال قوم كان معهم. وقال الأكثرون: لم يكن معهم. ونظر أهل مكة بالطير قد أقبلت من ناحية البحر؛ فقال عبد المطلب: إن هذه الطير غريبة بأرضنا، وما هى بنَجْدية ولا تِهامية ولا حجازية » وإنها أشباه اليعاسيب[(١)]. وكان فى مناقيرها وأرجلها حجارة؛ فلما أطَلَّت[(٢)] على القوم ألقتها عليهم، حتى هلكوا. قال عطاء بن أبى رباح: جاءت الطير عشية، فباتت، ثم صبحتهم بالغداة فرمتهم. وقال الكلبيّ: فى مناقيرها حصىً كحصى الخَذْف[(٣)]، أمام كل فرقة طائر يقودها، أحمر المِنقار، أسود الرأس، طويل العنق. فلما جاءت عسكر القوم وتوافت، أهالت ما فى مناقيرها على من تحتها، مكتوب على كل حجر آسم صاحبه المقتول به. وقيل: كان على كل حجر مكتوب: من أطاع الله نجا، ومن عصاه غَوَى. ثم انصاعت[(٤)] راجعة من حيث جاءت. وقال العَوفِيّ: سألت عنها أبا سعيد الخدرِى، فقال: حمام مكة منها. وقيل: كان يقع الحجر على بيضة[(٥)] أحدهم فيخرقها، ويقع فى دِماغه، ويخرق الفيلَ والدابة. ويغيب الحجر فى الأرض من شدّة وقعه. وكان أصحاب الفيل ستين ألفا، لم يرجع منهم أحد إلا أميرهم، رجع ومعه شِرذمة لطيفة. فلما أخبروا بما رأوا هلكوا. وقال الواقدىّ: أبرهة جد النجاشى الذى كان فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبرهة هو الأشرم، سمى بذلك لأنه تفاتَن[(٦)] مع أرياط، حتى تزاحفا،

(١) اليعسوب: أمير النحل. (٢) فى نسخة: « أقبلت ». (٣) الخذف: الرمى بالحصى الصغار بأطراف الأصابع. (٤) انصاع الرجل: انفتل راجعا ومر مسرعا. (٥) هى بيضة الحديد.

(٦) المفاتنة: اختلاف الناس فى الآراء، وما يقع بينهم من القتال.

ثم آتفقا على أن يلتقيا بشخصيهما، فمن غَلَب فله الأمر. فتبارزا — وكان أَرْياطُ جسيما عظيما، فى يده حربة، وأبرهة قصيرا حادِرا[1]، حليما ذا دين فى النصرانية، ومع أبرهة وزيرله يقال له عِتْوَدَة — فلما دنوا ضرب أرياط بحربته رأس أبرهة، فوقعت على جبينه، فشرمت عينه وأنفه وجبينه وشفته؛ فلذلك سُمّى الأشرم. وحمل عِتْودة على أرياط فقتله. فاجتمعت الحبشة لأبرهة؛ فغضب النجاشىّ، وحلف ليَجُزَّنَّ ناصية أبرهة، و يطأن بلاده. فجز أبرهة ناصيته» وملأ مِزودا من تراب أرضه، وبعث بهما إلى النجاشىّ، وقال: إنما كان عبدَك، وأنا عبدُك، وأنا أقَوِّمُ بأمر الحبشة، وقد جززت ناصيتى، وبعثت إليك بتراب أرضى، لتطأه وتبرّ فى يمينك؛ فرضى عنه النجاشىّ. ثم بنى أبرهة كنيسة بصنعاء، ليصرف إليها حج العرب؛ على ما تقدّم.

الرابعــة — قال مقاتل: كان عام الفيل قبل مولد النبىّ صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة. وقال الكلبي وعُبيد بن عمير: كان قبل مولد النبىّ صلى الله عليه وسلم بثلاث وعشرين سنة. والصحيح ما روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ولدت عام الفيل". وروى عنه أنه قال: "يومَ الفيــل". حكاه المـاوردىّ فى التفسـير له. وقال فى كتاب أعلام النبوّة: ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الآثنين الثانى عشر من ربيع الأوّل، وكان بعد الفيل بخمسين يوما. ووافق من شهور الروم العشرين من أسباط[2]، فى السنة الثانية عشرة من ملك هُرْمُز بن أنوشِروان. قال: وحكى أبو جعفر الطبرىّ أن مولد النبىّ صلى الله عليه وسلم كان لآثنتين وأربعين سنة من ملك أنوشروان. وقد قيل: إنه عليه السلام حملت به أمه آمنة فى يوم عاشوراء من المحرّم، وولد يوم الاثنين لآثنتى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان؛ فكانت مدّة حمله ثمـانية أشهر كَمَلًا ويومين من التاسع. وقيل: إنه ولد يوم عاشوراء من شهر المحرم؛ حكاه ابن شاهين[3] أبو حفص، فى فضائل يوم عاشوراء له. ابن العربىّ: «قال ابن وهب عن مالك: ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل، وقال قيس بن مَخْرَمة: ولدت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل. وقد روى الناس عن مالك أنه قال:

(١) الحادر: المجتمع الخلق. (٢) فى نسخة: «شباط» (بالشين المعجمة كغراب)، وورد بالسين المهملة.
(٣) فى بعض نسخ الأصل: «أبو شاهين حفص».

من مروءة الرجل ألّا يُخبِر بسنه ؛ لأنه إن كان صغيرا آستحقروه وإن كان كبيرا آستهرموه . وهذا قول ضعيف؛ لأن مالكا لا يخبر بسنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكتم سِنه؛ وهو من أعظم العلماء قدوةً به. فلا بأس بأن يخبر الرجل بسنه كان كبيرا أو صغيرا » . وقال عبد الملك ابن مروان لعتاب بن أَسيد : أنت أكبر أم النبيّ صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : النبيّ صلى الله عليه وسلم أكبر مني ، وأنا أسنّ منه ؛ ولد النبيّ صلى الله عليه وسلم عام الفيل ، وأنا أدركت سائسه وقائده أعميين مُقْعدين يستطعمان الناس ، وقيـل لبعض القضاة : كم سنك ؟ قال : سنّ عَتَّاب آبن أَسِيد حين ولاه النبيّ صلى الله عليه وسلم مكة؛ وكان سنه يومئذ دون العشرين .

الخامســـة — قال علماؤنا: كانت قصة الفِيل فيما بعدُ من معجزات النبيّ صلى الله عليه وسلم، وإن كانت قبله وقبل التحدّى؛ لأنها كانت توكيدا لأمره، وتمهيدا لشأنه . ولما تلا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه السورة، كان بمكة عدد كثير ممن شهد تلك الوقعة ؛ ولهذا قال: « ألم تر ». ولم يكن بمكة أحد إلا وقد رأى قائد الفيل وسائقه أعميين يتكففان الناس . وقالت عائشة رضى الله عنها مع حداثة سنها : لقد رأيت قائد الفيل وسائقه أعميين يستطعمان الناس . وقال أبو صالح : رأيت فى بيت أم هانئ بنت أبى طالب نحوا من قفيزين من تلك الحجارة، سودا مخططة بحمرة .

قوله تعـالى : أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيـلٍ ﴿٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴾ أى فى إبطال وتضييع ؛ لأنهم أرادوا أن يكيدوا قُريشا بالقتل والسبى، والبيت بالتخريب والهدم . فحُكِى عن عبد المطلب أنه بعث آبنه عبد الله على فرس له ، ينظر ما لَقُوا من تلك الطير ، فإذا القوم مُشَدَّخين جميعا، فرجع يركض فرسه ، كاشفا عن فخذه ، فلما رأى ذلك أبوه قال : إن آبنى هذا أفرس العرب . وما كشف عن فخذه إلا بشيرا أو نذيرا . فلما دنا من ناديهم بحيث يُسْمِعهم الصوت، قالوا: ما وراءك ؟ قال : هلكوا جميعا . فخرج عبـد المطلب وأصحابه ، فأخذوا أموالهم . وكانت

أموال بنى عبد المطلب منها ، وبها تكاملت رياسة عبد المطلب ؛ لأنه احتمل ما شاء من صفراء وبيضاء ، ثم خرج أهل مكة بعده ونهبوا . وقيل : إن عبد المطلب حفر حفرتين فملأهما من الذهب والجوهر ، ثم قال لأبى مسعود الثقفى — وكان خليلا لعبد المطلب — : اختر أيهما شئت . ثم أصابه الناس من أموالهم حتى ضاقوا ذرعا ، فقال عبد المطلب عند ذلك :

أنتَ مَنَعتَ الحُبْشَ(1) والأفيالا * وقد رَعَوْا بمكة الأجبالا(2)

وقد خشينا منهمُ(3) القتالا * وكلّ أمر لهم مِعضالا

* شكرا وحمدا لك ذا الجلالا(4) *

قال ابن إسحاق : ولما ردّ الله الحَبَشة عن مكة عَظَّمت العرب قريشا ، وقالوا : [هم](5) أهل الله ، قاتل الله عنهم ، وكفاهم مئونة عدوهم . وقال عبدالله بن عمرو بن مخزوم ، فى قصة أصحاب الفيل :

أنت الجليلُ ربَّنا لم تدنس * أنت حبستَ الفيل بالمُغَمَّس

من بعد ما هَمَّ بشرٍّ مُبْلِس * حبسته فى هيئة المُكَرْكَس

* وما لهم من فرج ومنفِس *

والمكركس : المنكوس المطروح .

قوله تعالى : وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾

قال سعيد بن جبير : كانت طيرا من السماء لم يُرَ قبلها ولا بعدها مثلها . وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنها طير بين السماء والأرض تُعَشِّش وتُفَرِّخ " . وعن ابن عباس : كانت لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب . وقال عِكرمة : كانت طيرا خُضْرًا ، خرجت من البحر ، لها رءوس كرءوس السباع . ولم تُرَ قبل ذلك ولا بعده . وقالت عائشة رضى الله عنها : هى أشبه شىء بالخطاطيف . وقيل : بل كانت أشباه الوطاويط ، حمراء وسوداء . وعن

(١) الظاهر أنه جمع (أحبش) بوزن أحمر ، وإن لم ينطقوا به . قال فى تاج العروس : كأنه جمع أحبش (بوزن أحمر) . (٢) فى روح المعانى ، «الأحبالا» بالحاء . (٣) فى روح المعانى «منهم» بدل «لهم» .
(٤) كذا فى نسخ الأصل وغيرها من المصادر . (٥) زيادة عن سيرة ابن هشام .

سعيد بن جبير أيضا : هي طير خُضْر لها مناقير صُفْر . وقيــل : كانت بِيضًا . وقال محمد آبن كعب : هي طير سود بحرية ، في مناقيرها وأظفارها الحجارة . وقيل : إنها العنقاء المُغْرِب[(١)] التي تضرب بها الأمثال ؛ قال عِكرمة : « أبابيــل » أي مجتمعة . وقيــل : متتابعة ، بعضها في إثر بعض ؛ قاله آبن عباس ومجاهد . وقيــل مختلفة متفرّقة ، تجيء من كل ناحية ، من ها هنا وها هنا ؛ قاله آبن مســعود وآبن زيد والأخفش . قال النحاس : وهــذه الأقوال متفقة ، وحقيقة المعنى : أنها جماعات عظام . يقال : فلان يؤبِّل على فلان ؛ أي يعظم عليه ويكثر ؛ وهو مشتق من الإبل . وآختلف في واحد (أبابيل) ؛ فقال الجوهري : قال الأخفش يقال : جاءت إبلك أبابيل ؛ أي فِرقا ، وطير أبابيل . قال : وهذا يجيء في معنى التكثير ، وهو من الجمع الذي لا واحد له . وقال بعضهم : واحده إبّوْل ، مثل عِجّوْل . وقال بعضهم — وهو المبرّد — : إبِّيل مثــل سِكِّين . قال : ولم أجد العرب تعرِف له واحدا في غير الصحاح . وقيل في واحده إبَّال . وقال رؤبة بن العجاج في الجمع :—

ولعبتْ طــيرٌ بِهِــمْ أبابيــلْ * فصيِّرُوا مِثْــلَ كَعَصْفٍ مأْكُولْ

وقال الأعشى :

طَـرِيقٌ وجَبّـارٌ[(٢)] رِواءٌ أُصــولُهُ * علَيـهِ أبابيــلٌ مِن الطَّـيْرِ تَنْعَبُ

وقال آخــر :

كادت تُهَدُّ من الأصواتِ راحلَتِي * إذْ سالتِ الأرْضُ بالجُرْدِ[(٣)] الأبابيلِ

وقال آخــر :

تَراهُمْ إلى الداعي سِـراعا كأنّهُـمْ * أبابيــلُ طَـيْرٍ تحتَ دَجْنٍ مُسَخَّنِ[(٤)]

---

(١) هي التي أغربت في البلاد ، فنأت ولم تحس ولم تر . (٢) الجبار من النخل : ما طال وفات اليد .

(٣) الجـرد (بالضم كالجريدة) : خيل لا رجالة فيها . والجرد — أيضا — : قصر شعر الجلد في الفرس ، وهو من الأوصاف المحمودة في الخيل . (٤) كذا في نسخ الأصل ، (بالخاء المعجمة والنون) . وفي تفسير الثعلبي : ... تحت دجن مسحر . (بالحاء المهملة والراء) . وقد نسبه إلى آمرئ القيس ؛ ولم نجده في ديوانه . ولعل صوابه : ... تحت دجن مسخر . (بالخاء المعجمة والراء) .

قال الفرّاء : لا واحد له من لفظه . وزعم الرؤاسيّ — وكان ثقة — أنه سمع فى واحدها « إبّالة » مشدّدة . وحكى الفرّاء « إبالة » مخففا . قال : سمعت بعض العرب يقول : ضِغْثٌ علَى إبّالَة[1] . يريد : خِصبا على خِصب . قال : ولو قال قائل إيبال كان صوابا ؛ مثل دينار ودنانير . وقال إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نوفل : الأبابيل : مأخوذ من الإبل المؤبلة ؛ وهى الأقاطيع .

قوله تعالى : تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾

فى الصحاح : « حِجارة مِن سِجِّيلٍ » قالوا : حجارة من طين ، طبخت بنار جهنم ، مكتوب فيها أسماء القوم ؛ لقوله تعالى : « لِنرسِلَ عَلَيهِم حِجارةً مِن طِينٍ . مُسوَّمة[2] » . وقال عبد الرحمن آبن أبزى : « مِن سِجيلٍ » : من السماء ، وهى الحجارة التى نزلت على قوم لوط . وقيل من الجحيم . وهى « سِجِّين » ثم أبدلت اللام نونا ؛ كما قالوا فى أُصَيْلان أُصيلال . قال آبن مقبِل :

* ضَرْبًا تَواصَتْ به الأبطالُ سِجِّينا[3] *

وإنما هو : سِجيلا . وقال الزجاج : « مِن سِجِّيلٍ » أى مما كُتب عليهم أن يُعَذَّبوا به ؛ مشتق من السجل . وقد مضى القول فى سِجّيل فى « هود[4] » مستوفى . قال عِكرمة : كانت ترميهم بحجارة معها ، فإذا أصاب أحدَهم حجر منها خرج به الجُدَرِيّ لم يُرَ قبلَ ذلك اليوم . وكان الحجر كالحِمِّصة وفوق العدسة . وقال آبن عباس : كان الحجر إذا وقع على أحدهم نَفِط جلده ، فكان ذلك أوّل الجُدرِيّ . وقراءة العامة « تَرْمِيهِمْ » بالتاء ، لتأنيث جماعة الطير . وقرأ الأعرج وطلحة « يَرْمِيهم » بالياء ؛ أى يرميهم الله ؛ دليله قوله تعالى : « ولكنَّ اللهَ رَمَى[5] » ويجوز أن يكون راجعا إلى الطير ، لخلوها من علامات التأنيث ، ولأن تأنيثها غير حقيقيّ .

---

(١) الضغث : قبضة من حشيش مختلطة الرطب باليابس . والإبالة : الحزمة من الحطب . فى فرائد اللآل : يضرب لمن حملك مكروها ثم زادك عليه .

(٢) آية ٣٣ سورة الذاريات .

(٣) صدر البيت كما فى اللسان : * ورجلة يضربون البيض عن عرض *

(٤) راجع جـ ٩ ص ٨١ .

(٥) آية ١٧ سورة الأنفال .

قوله تعالى : فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴿٥﴾

أى جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته الدواب، فرمت به من أسـفل . شـبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزائه . رُوى معنـاه عن ابن زيد وغيره . وقـد مضى القول فى العَصْف فى سورة « الرحمن »[1] . وممـا يدل على أنه ورق الزرع قول علقمة :

تَسْـقِى مَذَانِبَ قَدْ مَالَتْ عَصِيفَتُهَا * حَدُورُهَا من أَتِىِّ المـاءِ مَطْمُـوم[2]

وقال رؤبة بن العجاج :

وَمَسَّهُمْ ما مَسَّ أَصْحَابَ الفِيـلْ * تَرْمِيهِـمُ حِجَارَةٌ مِنْ سِجِّيـلْ

وَلَعِبَتْ طَـيْرٌ بهِـمْ أَبَابِيـلْ * فَصُـيِّرُوا مِثْـلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولْ

العَصْف : جمع، واحدته عَصْفة، وعُصافة، وعَصِيفة . وأدخل الكاف فى « كَعَصْف » للتشبيه مع مثل، نحو قوله تعالى : « ليس كَمِثْلِه شىء »[3] . ومعنى «مأكولٍ» مأكول حبه . كما يقال : فلان حسن؛ أى حسن وجهه . وقال ابن عباس : « فجعلهم كعصف مأكولٍ » أن المـراد به قشر البر؛ يعنى الغِلاف الذى تكون فيه حبة القمح . ويروى أن الحجـر كان يقع على أحدهم فيخرج كل ما فى جوفه، فيبقى كقشر الحنطة إذا خرجت منه الحبة . وقال ابن مسعود : لمـا رمت الطير بالحجارة، بعث الله ريحا فضربت الحجارة فزادتها شدّة، فكانت لا تقع على أحد إلا هلك، ولم يسلم منهم إلا رجلٌ من كِندة[4] ؛ فقال :

فإنَّـكِ لَـوْ رأيتِ ولم تَرِيهِ[5] * لدى جنب المُغَمَّس ما لَقِينا

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٥٦ . (٢) المذانب : مسايل الماء . والعصيفة : الورق المجتمع الذى يكون فيه السنبل . وحدورها : ما انحدر منها واطمأن . والأتى (كغنى) : الجدول . والمطموم : المملوء بالماء .

(٣) آية ١١ سورة الشورى . (٤) هو نفيل بن حبيب؛ كما فى تاريخ الطبرى، وابن الأثير .

(٥) فى نسخ الأصـل : « ولو ترانا » وهو تحريف؛ لأنه يخاطب امرأة . والأبيات كما أوردها الطبرى (ص ٩٤٢ قسم أول طبع أوربا) وابن الأثير (جـ ١ ص ٣٢٢ طبع أوربا) :

ألا حييت عنـا يا ردينـا * نعمنا كم مع الإصباح عينـا

أتانا قابس منـكم عشـاء * فلم يقـدر لقابسكم لدينـا

ردينـة لو رأيت ولم تريه * لدى جنب المحصب مارأينـا

إذن لعذرتنى وحمدت رأيى * ولم تأسى على مافات بينـا

حمدت الله إذ عاينت طيرا * وخفت حجارة تلـقى علينـا

لكل القوم يسأل عن نفيل * كأن علىّ للحبشان دينـا

خَشِيتُ الله إذْ قد بَثَّ طَيْرا * وظِلُّ سحابةٍ مَرت علينَا

وباتَتْ كلُّها تدعو بِحَقٍّ * كأن لها على الحُبْشان دَيْنَا

ويروى أنها لم تصبهم كلهم، لكنها أصابت من شاء الله منهم . وقد تقدّم أن أميرهم رجع وشِرْذمة لطيفة معه، فلما أخبروا بما رأوا هلكوا . فالله أعلم . وقال ابن إسحاق : لما ردّ الله الحبشة عن مكة، عَظَّمت العرب قريشا وقالوا : أَهلُ اللهِ، قاتل عنهم، وكفاهم مئونة عدوّهم ؛ فكان ذلك نعمة من الله عليهم .

تفسير سورة « قريش »

مكية ؛ فى قول الجمهور . ومدنية ؛ فى قول الضحاك والكلبى

وهى أربع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾

قيل : إن هذه السورة متصلة بالتى قبلها فى المعنى . يقول : أهلكت أصحاب الفيل لإيلاف قريش؛ أى لتأتلف، أو لتتفق قريش، أو لكى تأمن قريش فتؤلف رحلتيها . وممن عدّ السورتين واحدة أُبىّ بن كعب، ولا فصل بينهما فى مصحفه . وقال سفيان بن عيينة : كان لنا إمام لا يفصل بينهما، ويقرؤهما معا . وقال عمرو بن ميمون الأَوْدِىّ : صلينا المغرب خلف عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقرأ فى الأولى : « والتينِ والزَّيتُونِ » وفى الثانية « أَلَمْ تَرَ كيف » و « لِإِيلافِ قُرَيْش »[1] . وقال الفراء : هذه السورة متصلة بالسورة الأولى؛ لأنه ذكّر أهل مكة عظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة، ثم قال : « لإيلاف قُرَيش » أى فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نِعْمَةً منا على قريش . وذلك أن قريشا كانت تخرج فى تجارتها، فلا يُغار عليها ولا تُقْرب فى الجاهلية . يقولون : هم أهل بيت الله جلّ وعزّ؛ حتى جاء صاحب الفيل

(١) الذى فى كتاب الفراء : « قال بعضهم كانت موصولة بـ « ألم تر كيف فعل ربك » الخ .

ليهدم الكعبة، ويأخذ حجارتها، فيبني بها بيتا في اليمن يَحُج الناس إليه؛ فأهلكهم الله عز وجل، فذكّرهم نِعْمته . أي فجعل الله ذلك لإيلاف قريش؛ أي ليألفوا الخروج ولا يُجْتَرَأ عليهم؛ وهو معنى قول مجاهد وابن عباس في رواية سعيد بن جبير عنه . ذكره النحاس: حدّثنا أحمد ابن شُعيب قال أخبرني عمرو بن عليّ قال : حدّثني عامر بن إبراهيم — وكان ثقة من خيار الناس — قال حدّثني خطاب بن جعفر بن أبي المغيرة، قال : حدّثني أبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، في قوله تعالى : «لإيلافِ قريش» قال : نعمتي على قريش إيلافُهُمْ رحلة الشتاء والصيف . قال : كانوا يَشْتون بمكة ، ويَصِيفون بالطائف . وعلى هذا القول يجوز الوقف على رءوس الآي وإن لم يكن الكلام تاما؛ على ما نبينه أثناء السورة. وقيل : ليست بمتصلة؛ لأن بين السورتين « بسم الله الرحمن الرحيم » وذلك دليل على انقضاء السورة وافتتاح الأخرى ، وأن اللام متعلقة بقوله تعالى : « فلْيعبدوا » أي فليعبدوا هؤلاء ربَّ هذا البيت ، لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف للامتيار[1] . وكذا قال الخليل : ليست متصلة ؛ كأنه قال : ألَّف الله قريشا إيلافا فليعبدوا ربَّ هذا البيت . وعمِل ما بعد الفاء فيما قبلها لأنها زائدة غير عاطفة ؛ كقولك : زيدا فاضرب . وقيل : اللام في قوله تعالى: « لإيلافِ قريش » لام التعجب ؛ أي اعجبوا لإيلاف قريش ؛ قاله الكسائيّ والأخفش . وقيل : بمعنى إلى . وقرأ ابن عامر : « لإئلافِ قريش » مهموزا مختلسا بلا ياء . وقرأ أبو جعفر والأعرج « لِيلَاف » بلا همز طلبا للخفة . الباقون « لإيلاف » بالياء مهموزا مشبعا ؛ من آلَفْتُ أُولِفُ إيلافا . قال الشاعر :

المُنْعِمين إذا النجوم تغيرتْ　*　والظاعنينَ لرحلةِ الإيلافِ

ويقال : أَلِفْتُه إلْفا وإلافا. وقرأ أبو جعفر أيضا: « لإلْفِ قُرَيش » وقد جمعهما من قال:

زَعَمْتُمْ أنّ إخوتَكُمْ قُرَيْشٌ[2]　*　لهم إلف وليس لكم إلاف

قال الجوهريّ : وفلان قد ألِف هذا الموضعَ (بالكسر) يألَفُه إلْفًا ، وآلفه إياه غيره . ويقال أيضا : آلَفت الموضع أُولِفه إيلافًا . وكذلك : آلفت الموضع أُولِفُه مُؤالفة وإلافا ؛

(١) أي لجلب الطعام .
(٢) كذا في نسخ الأصل بالرفع على الخبر . وفي اللسان وشرح القاموس : « قريشا » بالنصب على البدل .

فصار صورة أفعل وفاعل فى الماضى واحدة . وقرأ عِكرمة « لِيَأْلَفْ » بفتح اللام على الأمر . وكذلك هو فى مصحف آبن مسعود . وفتح لام الأمر لغة حكاها آبن مجاهد وغيره . وكان عكرمة يعيب على من يقرأ « لإيلاف » . وقرأ بعض أهل مكة « إلاف قريش » وآستشهد بقول أبى طالب يوصى أخاه أبا لهب برسول الله صلى الله عليه وسلم :

فَلَا تُتْرَكَنْه ما حييتَ لِمُعْظَمٍ * وكُنْ رجلا ذا نَجْدةٍ وعَفافِ

تذود العِدا عن عُصْبة هاشمية * إلافُهم فى الناس خيرُ إلافِ

وأما قريش فهم بنو النضر بن كِنانة بن خزيمة بن مدرِكة بن إلياس بن مضر . فكل من كان من ولد النضر فهو قرشيّ دون بنى كِنانة ومن فوقه . وربما قالوا : قُرَيْشِيّ ، وهو القياس ؛ قال الشاعر :

* بكل قُرَيْشِيّ عليه مهابة (١) *

فإن أردت بقريش الحىّ صرفته ، وإن أردت به القبيلة لم تصرفه ؛ قال الشاعر :

* وكَفَى قُرَيْشَ المُعْضِلاتِ وسادَها (٢) *

والتقريش : الاكتساب ، وتقرّشوا أى تجمعوا . وقد كانوا متفرقين فى غير الحرم ، فجمعهم قُصَيّ بن كلاب فى الحرم ، حتى اتخذوه مَسْكَنا . قال الشاعر :

أبونا قُصَيّ كان يُدْعَى مُجَمِّعًا * به جمع الله القبائلَ من فِهرِ

وقد قيل : إن قريشا بنو فِهر بن مالك بن النضر . فكل من لم يلده فِهر فليس بقرشيّ . والأول أصح وأثبت . وقد روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنا ولد النضر آبن كنانة لا نقفو أُمنا (٣) ، ولا ننتفى من أبينا " . وقال واثلة بن الأسقع : قال النبيّ صلى الله

---

(١) تمامه : * سريع إلى داعى الندى والتكرم *

(٢) هذا عجز بيت لعدى بن الرقاع يمدح الوليد بن عبد الملك . وصدره كما فى اللسان :

* غلب المساميح الوليد سماحة *

(٣) قفا فلان فلانا : إذا قذفه بما ليس فيه ، أى لا نتهمها ولا نقذفها ، وقيل : معناه لا نترك النسب إلى الآباء، وننتسب إلى الأمهات .

عليه وسلم : " إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى من بني كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم " . صحيح ثابت، خرّجه البخاريّ ومسلم وغيرهما . واختلف في تسميتهم قريشا على أقوال : أحدها — لتجمّعهم بعد التفرق، والتقرش : التجمع والالتئام . قال أبو جِلْدة اليَشْكُرى (١) :

إخوة قَرَّشُوا الذنوبَ علينا * في حديثٍ من دهرِهِمْ وقديم

الثاني — لأنهم كانوا تجارا يأكلون من مكاسبهم . والتَّقَرُّش : التكسُّب . وقد قَرَش يَقْرُشُ قَرْشا : إذا كسب وجمع . قال الفرّاء : وبه سميت قُرَيش . الثالث — لأنهم كانوا يفتشون الحاجّ (٢) من ذي الخَلّة، فيسدّون خَلّته . والقَرْش : التفتيش . قال الشاعر (٣) :

أيُّها الشامتُ المقرش عنا * عند عمرو فهلْ له إبقاء

الرابع — ما روى أن معاوية سأل ابن عباس لم سميت قريش قريشا ؟ فقال : لدابة في البحر من أقوى دوابه يقال لها القِرش ؛ تأكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تُعْلَى . وأنشد قول تُبَّع :

وقريش هي التي تسكن البحـ * ـر بها سميت قريش قريشا
تأكل الرث والسمين ولا تتـ * ـرك فيها لذى جناحين رِيشا
هكذا في البلاد حيّ قُرَيش * يأكلون البلاد أكلا كَمِيشا (٤)
ولهم آخرَ الزمانِ نبيٌّ * يكثر القتل فيهم والخُموشا (٥)

قوله تعالى : ﴿ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴾ (٢)

قرأ مجاهد وحميد « إلفهم » ساكنة اللام بغير ياء . وروى نحوه عن ابن كثير . وكذلك روت أسماء أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ « إلفهم » . وروى عن ابن عباس

---

(١) ضبطه في التاج بكسر الجيم .	(٢) الحاج : جماعة الحجاج . والخلة (بالفتح) : الحاجة والفقر .

(٣) البيت للحارث بن حلزة اليشكرى في معلقته . وروايته كما في شرح المعلقات :

أيها الناطق المرقش عنا * عند عمرو وهل لذاك بقاء

قال التبريزى : « المرقش : المزين القول بالباطل ، ليقبل منه الملك باطله . ويقال إنه يخاطب بها عمرو بن كلثوم . ومعنى « وهل لذاك بقاء » : « إن الباطل لا يبقى » . وعلى هذه الرواية لا شاهد فيه .

(٤) أى سريعا .	(٥) الخموش : (جمع الخمش) ، وهو مثل الخدش ، يكون في البدن والوجه .

وغيره . وقرأ أبو جعفر والوليد عن أهل الشام وأبو حيوة « إِلَافِهم » مهموزا مختلسا بلا ياء. وقرأ أبو بكر عن عاصم « إئلافهم » بهمزتين ، الأولى مكسورة والثانية ساكنة . والجمع بين الهمزتين فى الكلمتين شاذ . الباقون « إيلافهم » بالمـدّ والهمز، وهو الاختيار، وهو بدل من الإيلاف الأوّل للبيان. وهو مصدر آلف : إذا جعلته يألف. وألِف هو إلفا، على ما تقدّم ذكره من القراءة ؛ أى وما قد ألفوه من رحلة الشتاء والصيف . روى ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تعالى : « إيلافِهم رِحلةَ الشتاء والصيف » قال : لا يشُق عليهم رحلة شتاء ولا صيف، مِنّةً منه على قريش . وقال الهَرَوىّ وغيره : وكان أصحاب الإيلاف أربعة إخوة : هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل، بنو عبد مناف . فأما هاشم فإنه كان يُؤْلف مَلِك الشام ؛ أى أخذ منه حبلا وعهدا يأمن به فى تجارته إلى الشام . وأخوه عبد شمس كان يؤلف إلى الحَبَشة. والمطلب إلى اليمن. ونوفل إلى فارس . ومعنى يُؤْلف يُجير. فكان هؤلاء الإخوة يسمّون المُجيرين . فكان تِجار قريش يختلفون إلى الأمصار بحبل هؤلاء الإخوة، فلا يُتَعَرَّض لهم . قال الأزهرىّ : الإيلاف : شبه الإجارة بالخَفارة[(١)]؛ يقال: آلف يُؤْلِف : إذا أجار الحمائل بالخَفارة . والحمائل : جمع حَمولة[(٢)] . قال : والتأويل : أن قُريشا كانوا سكان الحرم، ولم يكن لهم زرع ولا ضَرْع، وكانوا يَمِيرون فى الشتاء والصيف آمنين، والناس يُتَخَطفون من حولهم، فكانوا إذا عرض لهم عارض قالوا : نحن أهل حَرَم الله ، فلا يتعرضُ الناس لهم . وذكر أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا فى تفسيره : حدثنا سعيد بن محمد، عن بكر بن سهل الدِّمياطى، بإسناده إلى ابن عباس، فى قول الله عز وجل : « لإيلافِ قُرَيْش » إلفهم رحلة الشتاء والصيف . وذلك أن قريشا كانوا إذا أصابت واحدا منهم مخمصة[(٣)]، جرى هو وعياله إلى موضع معروف، فضربوا على أنفسهم خِباء فماتوا؛ حتى كان عمرو بن عبد مناف، وكان سيدا

(١) فى بعض نسخ الأصل : « الإجارة والخفارة » ولم نجد هذا فى كتاب التهذيب للأزهرى ولا فى غيره من كتب اللغة . والإجارة : الإغاثة والحماية . والخفارة (مثلثة الخاء) : الأمان .

(٢) الحمولة (بالفتح) : الإبل التى تحمل .

(٣) المخمصة : المجاعة .

فى زمانه ، وله ٱبن يقال له : أسد ، وكان له تِرْب[1] من بنى مخزوم ، يحبه ويلعب معه . فقال له : نحن غدا نعتفد » قال ٱبن فارس : هذه لفظة فى هذا الخبر لا أدرى : بالدال هى أم بالراء ؛ فإن كانت بالراء فلعلها من العفر ، وهو التراب ، وإن كانت بالدال ، فما أدرى معناها[2] ، وتأويله على ما أظنه : ذهابهم إلى ذلك الخباء ، وموتهم واحدا بعد واحد . قال : فدخل أسد على أمّه يبكى ، وذكر ما قاله تِربه . قال : فأرسلت أم أسد إلى أولئك بشحم ودقيق ، فعاشوا به أياما . ثم إن تربه أتاه أيضا فقال : نحن غدا نعتفد ، فدخل أسد على أبيه يبكى ، وخبره خبر تربه ، فاشتدّ ذلك على عمرو بن عبد مناف ، فقام خطيبا فى قريش وكانوا يطيعون أمره ، فقال : إنكم أحدثتم حدثا تقِلون فيه وتكثر العرب ، وتذِلون وتعز العرب ، وأنتم أهل حرم الله جل وعز ، وأشرف ولد آدم ، والناس لكم تبع ، ويكاد هذا الاعتفاد يأتى عليكم . فقالوا : نحن لك تبع . قال : ابتدئوا بهذا الرجل — يعنى أبا تِرب أسد — فأغنوه عن الاعتفاد ، ففعلوا . ثم إنه نحر البدن ، وذبح الكِباش والمعز ، ثم هشم الثريد ، وأطعم الناس ؛ فسمى هاشما . وفيه قال الشاعر :

عمرو الذى[3] هشم الثريد لقومه　*　ورجال مكة مسنتون[4] عِجاف

ثم جمع كل بنى أب على رحلتين : فى الشتاء إلى اليمن ، وفى الصيف إلى الشام للتجارات ، فما ربح الغنى قسمه بينه وبين الفقير ، حتى صار فقيرهم كغنيهم ؛ فجاء الإسلام وهم على هذا ، فلم يكن فى العرب بنو أب أكثر مالا ولا أعز من قريش ، وهو قول شاعرهم :

والخالطون فقيرهم بغنيهم　*　حتى يصير فقيرهم كالكافى

فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، فقال : « فليعبدوا رب هذا البيتِ الذِى أطعمهم مِن جوعٍ » بصنيع هاشم « وآمنهم مِن خوفٍ » أن تكثر العرب ويقلوا

---

(١) الترب (بالكسر) : اللدة ومساويك فى السن ومن ولد معك .　(٢) فى اللسان مادة عفد : « الاعتفاد : أن يغلق الرجل بابه على نفسه ، فلا يسأل أحدا حتى يموت جوعا » .　(٣) فى اللسان : « عمرو العلا ... »

(٤) مسنتون : أى أصابتهم السنة . والسنة : الجدب والقحط .

قوله تعالى : ﴿ رِحلةَ الشتاءِ والصيفِ ﴾ « رِحلَةَ » نصب بالمصدر، أى ٱرتحالهم رِحلة، أو بوقوع « إيلافهم » عليه، أو على الظرف . ولو جعلتها فى محل الرفع، على معنى هما رِحلة الشتاء والصيف ؛ لجاز . والأوّل أولى . والرحلة الارتحال . وكانت إحدى الرحلتين إلى اليمن فى الشتاء، لأنها بلاد حامية، والرحلة الأخرى فى الصيف إلى الشام، لأنها بلاد باردة . وعن ٱبن عباس أيضاً قال : كانوا يَشْتون بمكة لدِفئها، ويَصيفون بالطائف لهوائها . وهذه من أجلّ النعم أن يكون للقوم ناحيــة حَرّ تدفع عنهم برد الشتاء، وناحية بردٍ تدفع عنهم حر الصيف ؛ فذكرهم الله تعـالى هذه النعمة . وقال الشاعر :

تَشْـتِي بمـكةَ نَعْمَـةً ✽ ومَصِيفُها بالطّائِفِ

وهنا أربع مسـائل :

الأولى ــ اختـار القاضى أبو بكر بن العـربىّ وغيره من العلمـاء : أن قوله تعـالى « لإيلافِ » متعلق بمـا قبله . ولا يجـوز أن يكون متعلقا بمـا بعده، وهو قوله تعـالى : « فَلْيعبدُوا رَبَّ هَـذَا البَيْتِ » قال : وإذا ثبت أنه متعلق بالسورة الأخرى ــ وقد قطع عنه بكلام مبتدإ، واستئناف بيان وسطر (بسم الله الرحمن الرحيم)، فقد تبين جواز الوقف فى القراءة[1] للقرّاء قبل تمـام الكلام، وليست المواقف التى ينتزع[2] بهـا القُرّاء شرعا عن النبى صلى الله عليه وسـلم مرويا، وإنمـا أرادوا به تعليم الطلبة المعـانى، فإذا علموها وقفـوا حيث شاءوا . فأما الوقف عند انقطاع النفس فلا خلاف فيه، ولا تُعِد ماقبله إذا اعتراك ذلك، ولكن ٱبدأ من حيث وقف بك نَفَسك . هذا رأيى فيه، ولا دليل على ما قالوه بحال، ولكنى أعتمد الوقف على التمـام، كراهية الخروج عنهم .

قلت : ومن الدليل على صحه هذا، قراءة النبى صلى الله عليه وسلم « الحمد لله رب العالمين » ثم يقف . « الرحمن الرحيم » ثم يقف . وقد مضى فى مُقَدّمة الكتاب[3] . وأجمع المسلمون أن

(١) فى ابن العربى : « فى القرآن » . (٢) فى ابن العربى : « تنزع » .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٠ فيا بعد .

الوقف عند قوله : « كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ » ليس بقبيح . وكيف يقال إنه قبيح وهذه السورة تُقرأ فى الركعة الأولى والتى بعدها فى الركعه الثانية، فيتخللها مع قطع القراءة أركان ؟ وليس أحد من العلماء يكره ذلك ، وما كانت العلة فيه إلا أنَّ قوله تعالى : « فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ » انتهاء آية . فالقياس على ذلك : ألا يمتنع الوقف عند أعجاز الآيات سواء كان الكلامُ يتم ، والغرض ينتهى ، أولا يتم ، ولا ينتهى . وأيضا فإن الفواصل حِلية وزينة للكلام المنظوم ، ولولاها لم يتبين المنظوم من المنثور . ولا خفاء أن الكلام المنظوم أحسن ؛ فثبت بذلك أن الفواصل من محاسن الكلام المنظوم ، فمن أظهرَ فواصله بالوقوف عليها فقد أبدى محاسنه ، وتركُ الوقوفِ يُخفى تلك المحاسن ، ويُشَبِّه المنثور بالمنظوم ، وذلك إخلال بحق المقروء .

الثانية — قال مالك : الشتاء نصف السنة، والصيف نصفها، ولم أزل أرى ربيعة ابن أبى عبد الرحمن[(١)] ومن معه، لايخلَعون عمائمهم حتّى تطلع الثُّريا، وهو يوم التاسعَ عشَرَ من بشنس ، وهو يوم خمسة وعشرين من عدد[(٢)] الروم أو الفرس . وأراد[(٣)] بطلوع الثريا أن يخرج السُّعاة ، ويسير الناس بمواشيهم إلى مياههم ، وأن طلوع الثريا أوّل[(٤)] الصيف ودُبُرُ الشتاء . وهذا مما لاخلاف فيه بين أصحابه عنه . وقال عنه أشهب وحده : إذا سقَطَت الهَقْعَة[(٥)] نقص الليل، فلما جُعل طلوع الثريا أوّل الصيف ، وجب أن يكون له فى مطلق السنة ستة أشهر، ثم يستقبل الشتاء من بعد ذهاب الصيف ستة أشهر . وقد سئل محمد بن عبد الحكَم عمن حلف ألا يكلم آمرأ حتى يدخل الشتاء ؟ فقال : لايكلمه حتى يمضى سبعة عشر من هاتور . ولو قال حتى يدخل الصيف ، لم يكلمه حتى يمضى سبعة عشر من بشنس . قال القُرطُبىّ : أما ذكر هذا عن محمد فى بشنس ، فهو سهو، إنما هو تسعة عشر من بشنس، لأنك إذ حسبت المنازل

---

(١) هو ربيعة الرأى، أدرك بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والأكابر من التابعين، وكان صاحب الفتوى بالمدينة ؛ وعنه أخذ مالك بن أنس وغيره . توفى سنة ١٣٦ هـ .

(٢) كذا فى الأصول وابن العربى . أى من عدد شهورهم

(٣) كذا فى ابن العربى . وفى نسخ الأصل : « وأرى » .

(٤) فى ابن العربى : « قبل الصيف » .

(٥) الهقعة : ثلاثة كواكب نيرة قريب بعضها من بعض، فوق منكب الجوزاء، وهى منزل من منازل القمر .

على ماهى عليه ، من ثلاث عشرة ليـلة كل منزلة ، علمت أن ما بين تسع عشرة من هاتور لاتنقضى منازله إلا بدخول تسع عشرة من بشنس . والله أعلم .

الثالثـــة — قال قوم : الزمان أربعة أقسام : شتاء ، وربيع ، وصيف ، وخريف . وقال قــوم : هو شتاء ، وصيف ، وقَيظ ، وخريف . والذى قاله مالك أصح ؛ لأن الله قسم الزمان قسمين[1] ولم يجعل لهما ثالثا .

الرابعـــة — لمـا آمتن الله تعالى على قريش برحلتين ، شتاء وصيفا ، على ما تقـدّم ، كان فيه دليـل على جـواز تصرف الرجل فى الزمانين بين محلّين ، يكون حالهما فى كل زمان أنعم من الآخر ؛ كالجلوس فى المجلس البحْرى فى الصيف ، وفى القبلى فى الشتاء ، وفى اتخاذ البادَهنَجات[2] والخَيش للتبريد ، واللِّبد واليانوسة[3] للدفء .

قوله تعـالى : فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣

أمرهم الله تعـالى بعبادته وتوحيده ، لأجل إيلافهم رحلتيـــن . ودخلت الفاء لأجل مافى الكلام من معنى الشرط ؛ لأن المعنى : إمّا لا فليعبدوه لإيلافهم ؛ على معنى أن نعم الله تعالى عليهم لا تُحْصَى ، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه ، فليعبدوه لشأن هذه الواحدة ، التى هى نعمة ظاهرة . والبيت : الكعبة . وفى تعريف نفسه لهم بأنه رب هذا البيت وجهان : أحدهما : لأنه كانت لهم أوثان فميز نفسه عنها . الثانى : لأنهم بالبيت شُرِّفوا على سائر العرب ، فذكر لهم ذلك ، تذكيرا لنعمته . وقيل : « فَلْيَعْبُدوا رَبَّ هــذا البيتِ » أى ليألفوا عبادة رب الكعبة ، كما كانوا يألفون الرحلتين . قال عكرمة : كانت قريش قد ألفوا رحلة إلى بُصْرَى

---

(١) فى الأصول : « لأن قسمة الله للزمان قسمين ، ولم يجعل لهما ثالثا » وهى غير مستقيمة . وفى ابن العربى « لأجل قسمة الله الزمان قسمين ... الخ » .

(٢) فى كتاب شفاء العليـل للشهاب الخفاجى : « الباد هنج » معـرب باد خون او باد كير ، منفذ للهـواء فى سقف البيت .

(٣) فى ابن العربى : « اليانوس » . ولم نجد فى المعاجم العربية هذه المـادة .

ورحلة إلى اليمن، فقيل لهم : «فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا البيتِ» أى يقيموا بمكة[1] . رحلة الشتاء، إلى اليمن ، والصيف : إلى الشام .

قوله تعالى : ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِن جُوعٍ ﴾ أى بعدَ جوع . ﴿ وآمنهم مِن خوفٍ ﴾ قال ابن عباس : وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال: «رَبِّ ٱجعلْ هذا بَلَدًا آمِنا وارزق أَهْلَهُ مِن الثَّمراتِ»[2] . وقال ابن زيد : كانت العرب يُغير بعضها على بعض ، ويَسْبِي بعضها من بعض، فأَمنتْ قُرَيش من ذلك لمكان الحرم — وقرأ — «أَوَلَمْ نُمَكِّن لهم حَرَماً آمِناً يُجْبَى إليــهِ ثَمرَاتُ كل شيءٍ»[3] . وقيل : شق عليهم السفر فى الشــتاء والصيف ، فألقى الله فى قلوب الحَبَشة أن يحملوا إليهم طعاما فى السفن ، فحملوه ؛ فخافت قريش منهمْ ، وظنوا أنهم قدموا لحربهم ، فخرجوا إليهم مُتَحَرِّزين ، فإذا هم قد جلبوا إليهم الطعام ، وأغاثوهم بالأقوات ؛ فكان أهل مكة يخرجون إلى جُدَّة بالإبل والحُمُر ، فيشترون الطعام ، على مسيرة ليلتين . وقيل : هــذا الإطعام هو أنهم لمـا كذبوا النبيّ صلى الله عليه وسـلم دعا عليهم ، فقال : " اللَّهُمْ ٱجْعَلْها عليهمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُف " فاشتد القَحْط ، فقالوا : يا محمــدُ ٱدعُ الله لنا فإنا مؤمنون . فدعا فأخصبتْ تَبَالة وجُرَشُ من بلاد اليمن ؛ فحملوا الطعام إلى مكة، وأخصب أهلها . وقال الضحاك والربيع وشريك وسفيان : « وآمنهم مِنْ خَوْف » أى من خوف الجُذام، لا يصيبهم ببلدهم الجُذام . وقال الأعمش: « وآمنهم مِن خوفٍ » أى من خوف الحَبَشة مع الفيــل . وقال علىّ رضى الله عنه : وآمنهم مِن [خــوف][4] : أن تكون الخلافة إلّا فيهم . وقيل : أى كفاهم أخذ الإيلاف من الملوك . فالله أعلم ، واللفظ يعم .

---

(١) يريد : يقيموا بمكة : ويتركوا الرحلة ... الخ .

(٢) آية ١٢٦ سورة البقرة .

(٣) آية ٥٧ سورة القصص .

(٤) التكلة عن تفسير الخطيب .

تفسير سورة « الماعون »

وهى مكية ، فى قول عطاء وجابر وأحد قولى ابن عباس . ومدنية ، فى قول له آخر، وهو قول قتادة وغيره . وهى سبع آيات .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أرأيت الذى يكذب بالدين ﴾ أى بالجزاء والحساب فى الآخرة ؛ وقد تقدّم فى « الفاتحة » . و « أرأيت » بإثبات الهمزة الثانية ؛ إذ لا يقال[1] فى أرأيت : ريت ، ولكن ألف الاستفهام سهلت الهمزة ألفا ؛ ذكره الزجاج . وفى الكلام حذف ؛ والمعنى : أرأيت الذى يكذب بالدين : أمصيب هو أم مخطئ . واختلف فيمن نزل هذا فيه ؛ فذكر أبو صالح عن ابن عباس قال : نزلت فى العاص بن وائل السهمى ؛ وقاله الكلبى ومقاتل . وروى الضحاك عنه قال : نزلت فى رجل من المنافقين . وقال السدى : نزلت فى الوليد ابن المغيرة . وقيل فى أبى جهل . الضحاك : فى عمرو بن عائذ . قال ابن جريج : نزلت فى أبى سفيان ، وكان ينحر فى كل أسبوع جزورا ، فطلب منه يتيم شيئا ، فقرعه بعصاه ؛ فأنزل الله هذه السورة . و ﴿ يدع ﴾ أى يدفع ، كما قال : « يُدَعُّونَ إلى نارِ جهنم دَعًّا[2] » وقد

(١) راجع جـ ١ ص ١٤٣ (٢) آية ١٣ سورة الطور . راجع جـ ١٧ ص ٦٤

تقدّم . وقال الضحاك عن ابن عباس . « فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ اليَتِيمَ » أى يدفعه عن حقّه . قتادة : يقهره ويظلمه . والمعنى متقارب . وقد تقدّم فى سورة « النساء »(١) أنهم كانوا لا يُوَرِّثون النساء ولا الصغار ، ويقولون : إنما يحوز المال من يَطْعُن بالسنان ، ويضرب بالحُسام . ورُوِى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَنْ ضَمَّ يتيما من المسلمين حتى يَسْتَغْنِى ، فقد وجبتْ له الجنة "(٢) . وقد مضى هذا المعنى فى غير موضع .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ المِسْكِينِ ﴾ أى لا يأمُر به ، من أجل بخله وتكذيبه بالجزاء . وهو مِثل قوله تعالى فى سورة الحاقة : « ولا يَحُضُّ على طَعامِ المِسكِينِ »(٣) وقد تقدّم . وليس الذم عاما حتى يتناول من تركه عجزا ، ولكنهم كانوا يَبْخَلُون ويعتذرون لأنفسهم ، ويقولون : «أنطعِمُ مَنْ لَوْ يَشاء اللهُ أَطْعَمَه»(٤) ، فنزلت هذه الآية فيهم ، وتوجه الذم إليهم . فيكون معنى الكلام : لا يفعلونه إن قَدَرُوا ، ولا يحثّون عليه إن عسِروا .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ أى عذاب لهم . وقد تقدّم فى غير موضع(٥) . ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ، فروى الضحاك عن ابن عباس قال : هو المصلِّى الذى إن صلى لم يَرْجُ لها ثوابا ، وإن تركها لم يخشَ عليها عقابا . وعنه أيضا : الذين يؤخرونها عن أوقاتها . وكذا روى المغيرة عن إبراهيم ، قال : ساهونَ بإضاعة الوقت . وعن أبى العالية : لا يصلونها لِمَوَاقِيتِها ، ولا يُتِمُّون ركوعها ولا سجودها .

قلت : ويدل على هذا قوله تعالى : «فخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعوا الصلاةَ» حسْبَ ما تقدّم بيانه فى سورة « مريم »(٦) عليها السلام . وروى عن إبراهيم أيضا : أنه الذى إذا سجد قام برأسه هكذا ملتفتا . وقال قطرب : هو ألا يقرأ ولا يذكر الله . وفى قراءة عبد الله « الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِم لَاهُونَ» . وقال سعد بن أبى وقّاص : قال النبى صلى الله عليه وسلم [فى قوله] :

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٤٦
(٢) راجع جـ ٢ ص ١٤ طبعة ثانية .
(٣) آية ٣٤ راجع جـ ١٨ ص ٢٧٢
(٤) آية ٤٧ سورة يس .
(٥) راجع جـ ٢ ص ٧ طبعة ثانية .
(٦) راجع جـ ١١ ص ١٢١

« فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عن صلاتِهِم ساهون » — قال — " الذينَ يؤخِّرون الصلاة عن وقتها، تهاونا بهـا " . وعن آبن عباس أيضا : هم المنافقون يتركون الصلاة سِرًّا، يصلونها علانية « وإذا قاموا إلى الصلاةِ قاموا كُسَالَى »(١) ... الآية . و يدل على أنها فى المنافقين قوله : « الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ » ، وقاله آبن وهب عن مالك . قال آبن عباس : ولو قال فى صلاتهم ساهون لـكانت فى المؤمنين . وقال عطاء : الحمـد لله الذى قال « عَنْ صـلاتِهِم » ولم يقل فى صلاتهم . قال الزَمَخْشَرِىُّ : فإن قلت : أىّ فرق بين قوله : « عن صلاتِهِم » ، و بين قولك : فى صلاتهم ؟ قلتُ : معنى « عن » أنهم ساهون عنها سهو تركٍ لها ، وقلةِ التفات إليها ، وذلك فعل المنافقين، أو الفَسَقة الشُّطَّار(٢) من المسلمين . ومعنى « فى » أن السهو يعتريهم فيها ، بوسوسة شيطان ، أو حديث نفس ، وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم . وكان رسول الله صلى الله عليـه وسلم يقع له السهو فى صـلاته ، فضلا عن غيره ؛ ومِن ثمّ أثبت الفقهاء باب سجود السهو فى كتبهم . قال آبن العَرَبىّ : لأن السلامة من السهو محال ، وقد سها رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى صلاته والصحابة . وكل من لا يسهو فى صلاته ، فذلك رجل لا يتدبَّرُها ، ولا يعقِل قراءتها، و إنمـا همه فى أعدادها ؛ وهـذا رجل يأكل القشور، و يرمِى اللب . وما كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يسهو فى صلاته إلا لفكرته فى أعظم منها ؛ اللهم إلا أنه قد يسهو فى صلاته من يقبل على وسواس الشيطان إذا قال له : اذكر كذا ، اذكر كذا ؛ لِمـا لم يكن يذكر ، حتى يَضِلّ الرجل أن يدرى كم صلى .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ الذِين هم يراءون ﴾ أى يُرِى الناس أنه يصلى طاعة وهو يصلى تَقِيَّة؛ كالفاسق، يرى أنه يصلى عبادة وهو يصلى ليقال : إنه يصلى . وحقيقة الرياء طلب ما فى الدنيا بالعبادة، وأصله طلب المنزلة فى قلوب الناس . وأولها تحسين السَّمْت(٣)؛ وهو من أجزاء النبوة، و يريد بذلك الجاهَ والثناء . وثانيها — الرياء بالثياب القصار والخشنة، ليأخذ بذلك هيئة

(١) آية ١٤٢ سورة النساء . (٢) فى نسخة من الأصل : « الشياطين » . والشطار : جمع شاطر، وهو الذى نزك موافقة أهله، وأعياهم لؤما وخبثا . (٣) فى اللسان : السمت : حسن القصد والمذهب فى الدين والدنيا .

الزهد فى الدنيا . وثالثها — الرياء بالقول ، بإظهار التسخط على أهل الدنيا ؛ وإظهار الوعظ والتأسف على ما يفوت من الخير والطاعة . ورابعها — الرياء بإظهار الصلاة والصدقة ، أو بتحسين الصلاة لأجل رؤية الناس ؛ وذلك يطول ، وهذا دليله ؛ قاله ابن العربي .

قلت : قد تقدم فى سورة « النساء وهود وآخر الكهف »[1] القول فى الرياء وأحكامه وحقيقته بما فيه كفاية . والحمد لله .

الخامسة — ولا يكون الرجل مرائيا بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة؛ فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها ، لقوله عليه السلام : " ولا غُمّة[2] فى فرائض الله " لأنها أعلام الإسلام، وشعائر الدين، ولأن تاركها يستحق الذم والمقت ؛ فوجب إماطة التهمة بالإظهار، وإن كان تطوعا فحقه أن يُخْفَى ؛ لأنه لا يلام بتركه ولا تهمة فيه ، فإن أظهره قاصدا للاقتداء به كان جميلا . وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين ، فتثنى عليه بالصلاح . وعن بعضهم أنه رأى رجلا فى المسجد قد سجد سجدة الشكر فأطالها ؛ فقال : ما أحسن هذا لو كان فى بيتك. وإنما قال هذا لأنه توسم فيه الرياء والسمعة . وقد مضى هذا المعنى فى سورة « البقرة »[3] عند قوله تعالى : « إن تبدو الصدقاتِ » ، وفى غير موضع . والحمد لله على ذلك .

السادسة — قوله تعالى : ﴿وَيَمْنَعُونَ المَـاعونَ﴾ فيه اثنا عشر قولا : الأول — أنه زكاة أموالهم . كذا روى الضحاك عن ابن عباس . ورُوِى عن علىّ رضى الله عنه مثل ذلك، وقاله مالك . والمراد به المنافق يمنعها . وقد روَى أبو بكر[4] بن عبد العزيز عن مالك قال : بلغنى أن قول الله تعـالى : « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الذينَ هُمْ عن صَلَاتِهِم ساهونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ . ويَمْنَعونَ المـاعونَ » قال : إن المنافق إذا صلّى صلّى رياء، وإن فاتته لم يندم عليها، « ويمنعون المـاعون » الزكاة التى فرض الله عليهم . قال زيد بن أسلم : لو خَفِيت لهم الصلاة كما خفيت لهم الزكاة ما صلوا . القول الثانى — أن « المـاعون » المـال ، بلسان

---

(١) راجع جـ ٥ ص ١٨١ وجـ ٩ ص ١٢ وجـ ١١ ص ٧٠ (٢) أى لا تستر ولا تخفى فرائضه ، وإنما تظهر وتعلن ويجهر بها . (٣) راجع جـ ٣ ص ٣٣٢ (٤) فى بعض نسخ الأصل : « أبو عمر » وفى بعضها : « أبو عبد » . وفى ابن العربى : « أبو بكر بن عبد العزيز » .

قريش؛ قاله ٱبن شهاب وسعيد بن المسيب. وقول ثالث — أنه ٱسم جامع لمنافع البيت كالفأس والقدر والنار وما أشبه ذلك؛ قاله ٱبن مسعود، وروى عن ٱبن عباس أيضا. قال الأعشى:

بأَجْـودَ مِنـهُ بماعونِهِ * إذا ما سَمَاؤُهُمْ لَمْ تَغِـمِ

الرابع — ذكر الزجاج وأبو عُبيـد والمبرّد أن الماعون في الجاهلية كل ما فيه منفعة، حتى الفأس والقدر والدلو والقدّاحة، وكل ما فيه منفعة من قليل وكثير؛ وأنشدوا بيت الأعشى. قالوا: والماعون في الإسلام: الطاعة والزكاة؛ وأنشدوا قول الراعي:

أَخَلِيفَـةَ الرَّحْمٰنِ إنَّا مَعْشَرٌ * حُنَفَاءُ نَسْـجُدُ بُكْرَةً وأَصِـيلَا
عَرَبٌ نَرَى لِلّٰهِ مِنْ أَمْوالِنا * حَـقَّ الزكاةِ مُـنَزَّلًا تَنْزِيـلَا
قَوْمٌ على الإسلامِ لَمَّا يَمْنَـعُوا * ماعُونَهُمْ ويُضَيِّعُـوا التَّهْلِيـلَا[1]

يعني الزكاة. الخامس — أنه العاريّة؛ روى عن ٱبن عباس أيضا. السادس — أنه المعروف كله الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم؛ قاله محمد بن كعب والكلبيّ. السابع — أنه الماء والكلأ. الثامن — الماء وحده. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول: الماعون: الماء؛ وأنشدني فيه:

* يَمُجُّ صَبِيرُهُ الماعونَ صَبًّا *

الصَّبير: السحاب. التاسع — أنه منع الحق؛ قاله عبد الله بن عمر. العاشر — أنه المستغل من منافع الأموال؛ مأخوذ من المَعْن وهو القليل؛ حكاه الطبريّ وٱبن عباس[2]. قال قطرب: أصل الماعون من القلة. والمعن: الشيء القليل؛ تقول العرب: ماله سَعْنة[3] ولا معنة؛ أي شيء قليل. فسمى الله تعالى الزكاة والصدقة ونحوهما من المعروف ماعونا؛ لأنه قليل من كثير. ومن الناس من قال: الماعون: أصله مَعُونة، والألف عوض من الهاء؛ حكاه الجوهريّ. ٱبن العربيّ: الماعون: مفعول[4] من أعان يعين، والعَوْن: هو الإمداد

(١) في اللسان:

قوم على التنزيل لما يمنعوا * ماعونهم و يبدلوا التنزيلا

(٢) كذا في بعض نسخ الأصل. وفي بعضها الآخر: «حكاه الطبري وابن عيسى».

(٣) هذا مثل يضرب لمن لا مال له. والسعن: الكثير. (٤) هذا القول يأباه القياس اللغوي.

بالقوة والآلات والأسباب الميسرة للأمر . الحادى عشر — أنه الطاعة والانقياد . حكى الأخفش عن أعرابى فصيح : لو قد نزلنا لصنعت بناقتك صنيعا تعطيك الماعون ؛ أى تنقاد لك وتطيعك . قال الراجز :

مَتَى تصادِفْهُنَّ[1] فى الْبرِينِ[2] * يَخْضعن أو يُعطِين بالماعونِ

وقيل : هو ما لا يحل منعه ، كالماء والملح والنار ؛ لأن عائشة رضوان الله عليها قالت : قلت يارسول الله ، ما الشىء الذى لا يحل منعه؟ قال : "الماء والنار والملح" قلت : يا رسول الله هذا الماء ، فما بال النار والملح؟ فقال : "ياعائشة من أعطى نارا فكأنما تصدّق بجميع ما طبخ بتلك النار ، ومن أعطى ملحا فكأنما تصدق بجميع ماطيب به ذلك الملح ، ومن سَقَى شَربة من الماء حيث يوجد الماء ، فكأنما أعتق ستين نسمة . ومن سَقَى شربة من الماء حيث لا يوجد ، فكأنما أحيا نَفسا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا" . ذكره الثعلبىّ فى تفسيره ، وخرّجه ابن ماجه فى سننه . وفى إسناده لِين ؛ وهو القول الثانى عشر . الماوردىّ : ويحتمل أنه المعونة بما خف فعله وقد ثقله الله . والله أعلم . وقيل لِعكرمة مولى ابن عباس : من منع شيئا من المتاع كان له الويل ؟ فقال : لا ، ولكن من جمع ثلاثهن فله الويل ؛ يعنى : ترك الصلاة ، والرياء ، والبُخْل بالماعون .

قلت : كونها فى المنافقين أشبه ، وبهم أَخْلَق ؛ لأنهم جمعوا الأوصاف الثلاثة : ترك الصلاة ، والرياء ، والبخل بالمال ؛ قال الله تعالى : « وإِذَا قَامُوا إلى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ ولا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قليلا »[3] ، وقال : « ولا يُنفِقون إلا وهم كارِهون »[4] . وهذه أحوالهم ، ويبعد أن توجد من مسلم محقق ، وإن وجد بعضها فيلحقه جزء من التوبيخ ، وذلك فى منع الماعون إذا تعين ؛ كالصلاة إذا تركها . والله أعلم . إنما يكون منعا قبيحا فى المروءة فى غير حال الضرورة . والله أعلم .

---

(١) فى تفسير الثعلبى : * متى تجاهدهن * وهى الأوجه . (٢) البرين (بضم الباء وكسرها) : جمع برة ، وهى هنا الحلقة فى أنف البعير . وهى أيضا : كل حلقة من سوار وقرط وخلخال .

(٣) آية ١٤٢ سورة النساء . (٤) آية ٥٤ سورة التوبة .

تفسير سورة « الكوثر »

وهى مكية ؛ فى قول ابن عباس والكلبي ومقاتل . ومدنيـة ؛ فى قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة . وهى ثلاث آيات .

قوله تعالى : إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيناكَ الكَوْثَر ﴾ قراءة العامة . « إنا أعطيناك » بالعين . وقرأ الحسن وطلحة بن مصرف : « أَنْطَيْنَاكَ » بالنون ؛ ورونه أم سلمة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وهى لغة فى العطاء ؛ أنطيته : أعطيته . و « الكوثر » : فوعل من الكثرة ؛ مثل النوفل من النفل ، والجوهر من الجهر . والعرب تسمى كل شيء كثيرٍ فى العدد والقدر والخطر كوثرا . قال سفيان : قيل لعجوز رجع ابنها من السفر : بم آب ابنك ؟ قالت بكوثر ؛ أى بمال كثير . والكوثر من الرجال : السيد الكثير الخير . قال الكميت :

وأنت كثيرٌ يابنَ مَرْوانَ طَيِّبٌ * وكان أبوك ابنُ العقائِلِ كَوْثرا

والكوثر : العدد الكثير من الأصحاب والأشياع . والكوثر من الغبار : الكثير . وقد تكوثر [إذا كثر] ؛ قال الشاعر :

* وقد ثارَ نقع الموتِ حتى تَكَوْثرا (١) *

الثانيـة — واختلف أهل التأويل فى الكوثر الذى أعطيه النبى صلى الله عليه وسلم على ستة عشر قولا : الأول — أنه نهر فى الجنة ؛ رواه البخارىّ عن أنس والترمذىّ أيضا

(١) هذا عجز بيت لحسان بن نشبة . وصدره كما فى اللسان :

* أبوا أن يبيحوا جارهم لعدوهم *

وقد ذكرناه فى كتاب التذكرة. وروى الترمذى أيضا عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الكَوْثر : نهر فى الجنة ، حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج ". هذا حديث حسن صحيح .
الثانى — أنه حوض النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الموقف ؛ قاله عطاء . وفى صحيح مسلم عن أنس قال : بينما نحن[1] عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أغفى إغفاءه ، ثم رفع رأسه متبسما فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال " نزلت علىّ آنفا سورة — فقرأ — بسم الله الرحمن الرحيم : «إِنا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِربِّكَ وَانْحَرْ . إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ» — ثم قال — أتدرون ما الكوثر". ؟ قلنا الله ورسوله أعلم . قال: " فإنّه نَهرٌ وَعَدَنيه رَبِّى عزّ وجلّ ، عليه خَيْرٌ كثيرٌ هُوَ حَوْضٌ تَرِد عَلَيْه أمّتى يومَ القيامة آنِيَتُه عَدَد النُّجُوم ، فيُخْتَلَجُ[2] العبدُ منهمْ فأقولُ إنّهُ من أمّتى ، فيقال إنك لا تدرى ما أَحْدَثَ بعدَك " .

والأخبار فى حوضه فى الموقف كثيرة، ذكرناها فى كتاب « التذكرة » . وأن على أركانه الأربعة خُلَفاءَه الأربعة ؛ رضوان الله عليهم . وأنّ من أبغض واحدا منهم لم يسقه الآخر، وذكرنا هُنالَك من يُطْرَد عنه . فمن أراد الوقوف على ذلك تأمله هناك . ثم يجوز أن يسمى ذلك النهر أو الحوض كوثرا ، لكثرة الواردة والشاربة من أمة محمد عليه السلام هناك. ويسمى به لما فيه من الخير الكثير والماء الكثير. الثالث — أن الكوثر النبوّةُ والكتابُ ؛ قاله عكرمة . الرابع — القرآن ؛ قاله الحسن . الخامس — الإسلام ؛ حكاه المغيرة . السادس — تيسير[3] القرآن وتخفيف الشرائع ؛ قاله الحسين بن الفضل . السابع — هو كثرة الأصحاب والأمة والأشياع ؛ قاله أبو بكر بن عياش ويمان بن رِئاب . الثامن — أنه الإيثار ؛ قاله ابن كَيْسان . التاسع — أنه رِفعة الذكر . حكاه الماوردىّ . العاشر — أنه نور فى قلبك دلك علىّ ، وقطعك عما سواىَ . وعنه : هو الشفاعة ؛ وهو الحادى عشر . وقيل : معجزات الربّ هُدِىَ بها أهلُ الإجابة لدعوتك ؛ حكاه

(١) فى صحيح مسلم طبع الآستانة وبولاق : « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى ... » الحديث . (٢) أى ينتزع ويقتطع . (٣) فى بعض نسخ الأصل : « تسهيل » .

الثعلبيّ ، وهو الثانى عشر . الثالث عشر — قال هلال بن يساف : هو لا إله إلا الله محمد رسول الله . وقيل : الفقه فى الدين . وقيل : الصلوات الخمس ؛ وهما الرابع عشر والخامس عشر . وقال ابن إسحاق : هو العظيم من الأمر ؛ وذكر بيت لبيد :

وصاحب مَلْحوبٍ فُجِعْنا بفقدِهِ * وعِندَ الرِّداعِ بيت آخر كَوْثَرَ

أى عظيم[1] .

قلت : أصح هذه الأقوال الأول والثانى ؛ لأنه ثابت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم نص فى الكوثر . وسمع أنس قوما يتذاكرون الحوض فقال : ما كنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم يتمارَوْن فى الحوض ، لقد تركت عجائز خلفى ، ما تصلِّى امرأة منهنّ إلا سألت الله أن يسقيها من حوض النبيّ صلى الله عليه وسلم . وفى حوضه يقول الشاعر :

يا صاحبَ الحوضِ مَنْ يُدَانيكا * وأنتَ حقًّا حبيبُ باريكا

وجميع ما قيل بعد ذلك فى تفسيره قد أُعطيه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيادة على حوضه ، صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا .

قوله تعالى : فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَصَلِّ ﴾ أى أقم الصلاة المفروضة عليك ؛ كذا رواه الضحاك عن ابن عباس . وقال قتادة وعطاء وعكرمة : « فصل لربك » صلاة العيد يوم النحر . « وانْحَرْ » نُسُكك . وقال أنس : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم ينحر ثم يصلى ، فأُمِر أن يُصَلِّىَ ثم يَنْحَر . وقال سعيد بن جبير أيضا : صَلِّ لربك صلاة الصبح المفروضة بجَمْع[2] ، وانْحرِ البُدْنَ بمِنًى . وقال سعيد بن جبير أيضا : نزلت فى الحُدَيْبِيَةِ حين حُصِر النبيّ صلى الله عليه وسلم عن البيت ، فأمره الله تعالى أن يُصَلِّىَ ويَنْحَرَ البُدْنَ وينصرف ؛ ففعل ذلك . قال ابن العربيّ : « أما من

---

(١) ملحوب : ماء لبنى أسد بن خزيمة . وصاحبه : عوف بن الأحوص . والرداع (بالكسر) : اسم ماء أيضا . والكوثر أيضا : السيد الكثير الخير .

(٢) جمع : المزدلفة .

قال : إن المراد بقوله تعالى : « فَصَلِّ » : الصلوات الخمس؛ فلأنها ركن العبادات، وقاعدة الإسلام، وأعظم دعائم الدين . وأما من قال : إنها صلاة الصبح بالمزدَلِفة ؛ فلأنها مقرونة بالنحْر، وهو فى ذلك اليوم، ولا صلاة فيه قبل النحر غيرَها ؛ فخصها بالذكر من جملة الصلوات لاقترانها بالنحْر » .

قلت : وأما من قال إنها صلاة العيد؛ فذلك بغير مكة؛ إذ ليس بمكة صلاة عيد بإجماع، فيما حكاه ابن عمر . قال ابن العربي : « فأما مالك فقال : ما سمعت فيه شيئا، والذى يقع فى نفسى أن المراد بذلك صلاة يوم النحْر، والنحْر بعدها » . وقال علىّ رضى الله عنه ومحمد ابن كعب : المعنى ضع اليُمْنَى على اليسرى حِذاء النحْر فى الصلاة . ورُوِى عن ابن عباس أيضا . وروى عن علىّ أيضا : أن يرفع يديه فى التكبير إلى نحره . وكذا قال جعفر بن علىّ : « فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ » قال : يرفع يديه أوّلَ ما يُكَبِّر للإحرام إلى النحر . وعن علىّ رضى الله عنه قال : لما نزلت « فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ » قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لجبريل : " ماهذه النحيرة التى أمرنى الله بها " ؟ قال : " ليست بنحيرة، ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة، أن ترفع يديكَ إذا كبَّرت، وإذا رفعت رأسك من الركوع، وإذا سجدت، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم فى السموات السبع، وإن لكل شىء زينة، وإن زينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة " . وعن أبى صالح عن ابن عباس قال : استَقْبِلِ القبلةَ بنحرك؛ وقاله الفرّاء والكلبيّ وأبو الأحوص . ومنه قول الشاعر :

أبا حكم ما أنتَ عَمُّ مُجالِدٍ * وسَيِّدُ أهلِ الأَبطَحِ المُتَناحِرِ [(١)]

أى المتقابل . قال الفرّاء : سمعت بعض العرب يقول : منازلنا تتناحر[(٢)]؛ أى نتقابل، نحر هذا بنحر هذا ؛ أى قُبالته . وقال ابن الأعرابيّ : هو انتصاب الرجل فى الصلاة بإزاء المحراب؛ من قولهم : منازلهم تتناحر؛ أى تتقابل . ورُوِى عن عطاء قال : أمره أن يستوى بين السجدتين

(١) فى اللسان : نحر : (هل) فى موضع (ما) .

(٢) الذى فى كتاب الفراء : « منازلنا تتناحر : نحر هذا ... أى قبالته » . وفيه تحريف . والذى فى اللسان : وقال الفراء : « سمعت بعض العرب يقول : منازلهم تتناحر : هذا بنحر هذا ؛ أى قبالته » .

جالسا حتى يبدو نحره . وقال سليمان التّيميّ : يعنى وارفع يدك بالدعاء إلى نحرك . وقيل : « فَصَلِّ » معناه: وٱعبد. وقال محمد بن كعب القُرَظىّ : « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ » يقول : إن ناسا يصلون لغير الله ، وينحرون لغير الله ؛ وقد أعطيناك الكوثر، فلا تكن صلاتك ولا نحرك إلا لله. قال ٱبن العربيّ : « والذى عندى أنه أراد: ٱعبد ربك، وٱنحر له ، فلا يكن عملك إلا لمن خصك بالكوثر ، وبالحَرى[1] أن يكون جميع العمل يوازى هذه الخُصوصية من الكوثر، وهو الخير الكثير، الذى أعطاكه الله، أو النهر الذى طِينه مسك، وعدد آنيته نجوم السماء؛ أما أن يوازِىَ هذا صلاة يوم النحر، وذبح كبش أو بقرة أو بدَنة ، فذلك يبعد فى التقدير والتدبير ، وموازنة الثواب للعبادة » . والله أعلم .

الثانيـــة ــ قـد مضى القول فى سورة « الصَّافّات »[2] فى الأُضحِية وفضلها ، ووقت ذبحها ؛ فلا معنى لإعادة ذلك . وذكرنا أيضا فى سورة « الحجّ »[3] جملة من أحكامها . قال ٱبن العربىّ : « ومن عجيب الأمر : أن الشافعى قال : إن من ضحّى قبل الصلاة أجزأه ، والله تعالى يقول فى كتابه : « فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ » ، فبدأ بالصلاة قبل النحر ، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم (فى البخاريّ وغيره ، عن البراء بن عازب ، قال) : " أوّل ما نَبْدَأ به فى يومنا هذا : أن نُصلِّىَ ، ثم نرجعَ فننحر ، من فعل فقد أصاب نُسُكنا ، ومن ذَبَح قبل ، فإنما هو لحم قدّمه لأهله ، ليس من النُّسك فى شىء " . وأصحابه ينكرونه ، وحبذا الموافقة » .

الثالثـــة ــ وأما ما روى عن علىّ عليه السلام « فصل لِربك وٱنحـر » قال : وضع اليمين على الشمال فى الصلاة (خرّجه الدارَقُطْنىّ) ، فقـد اختلف علماؤنا فى ذلك على ثلاثة أقوال : الأوّل ــ لا توضع فريضـة ولا نافلة ؛ لأن ذلك من باب الاعتماد . ولا يجـوز فى الفرض ، ولا يستحب فى النفل . الثـانى ــ لا يفعلها فى الفريضة ، ويفعلها فى النافلة استعانة ؛ لأنه موضع ترخص . الثالث ــ يفعلها فى الفريضة والنافلة . وهو الصحيح ؛ لأنه ثبت أن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم وضع يده اليمنى على اليسرى من حديث وائل

---

(١) فى (اللسان : حرى) : والحرى : الخليق ، كقولك : بالحـرى أن يكون ذلك . وإنه لحرى بكذا ، وحرٍ ، وحرىّ .   (٢) راجع جـ ١٥ ص ١٠٧ وما بعدها .   (٣) راجع جـ ١٢ ص ٤٢ وما بعدها .

آبن حجر وغيره . قال آبن المنذر : وبه قال مالك وأحمد وإسحاق، وحكى ذلك عن الشافعيّ. وآستحب ذلك أصحاب الرأى . ورأت جماعة إرسال اليد . وممن روينا ذلك عنه آبن المنذر[1] والحسن البصريّ وإبراهيم النخعيّ .

قلت : وهو مَرْوِيّ أيضا عن مالك . قال آبن عبد البر : إرسال اليدين، ووضع اليمنى على الشمال، كل ذلك من سنة الصلاة .

الرابعــة — وآختلفوا فى الموضع الذى توضع عليه اليد؛ فروى عن علىّ بن أبى طالب : أنه وضعهما على صـدره . وقال سـعيد بن جُبير وأحمد بن حنبل : فوق السرّة . وقال : لا بأس إن كانت تحت السرّة . وقالت طائفـة : توضع تحت السرّة . وروى ذلك عن علىّ وأبى هُريرة والنخعيّ وأبى مِجلَز . وبه قال سفيان الثوريّ وإسحاق .

الخامســة — وأما رفع اليـدين فى التكبير عند الآفتتاح والركوع والرفع من الركوع والسجود ، فآختلف فى ذلك ؛ فروى الدّارقطنيّ من حديث حميـد عن أنس قال : كان رسـول الله صلى الله عليه وسلم يرفع يديه إذا دخل فى الصلاة ، وإذا ركع ، وإذا رفع رأسه من الركوع، وإذا سجد . لم يروِه عن حميد مرفوعا إلا عبد الوهاب الثقفيّ . والصواب : من فعل أنس . وفى الصحيحين من حديث آبن عمر ، قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة رفع يديه ، حتى تكونا حذو منكِبيه ، ثم يكبر، وكان يفعل ذلك حين يكَبِّر للركوع، ويفعل ذلك حين يرفع رأسه من الركوع ، ويقول سمِـع الله لمن حمِده . ولا يفعل ذلك حين يرفع رأسه من السجود . قال آبن المنذر : وهذا قول الليث بن سعد ، والشافعيّ وأحمد وإسحاق وأبى ثَوْر . وحكى آبن وهب عن مالك هذا القول . وبه أقول ؛ لأنه الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقالت طائفة : يرفع المصلى يديه حين يفتتح الصلاة، ولا يرفع فيما سوى ذلك . هذا قول سفيان الثوريّ وأصحاب الرأى .

---

(١) فى بعض الأصول : « ابن الزبير » .

قلت : وهو المشهور من مذهب مالك ، لحديث ٱبن مسعود ، (خرّجه الدّارقطنيّ من حديث إسحاق بن أبى إسرائيل) ، قال : حدّثنا محمد بن جابر عن حماد عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : صليت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ومع أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، فلم يرفعوا أيديهم إلا أوّلا عند التكبيرة الأولى فى ٱفتتاح الصلاة . قال إسحاق : به نأخذ فى الصلاة كلها . قال الدّارقطنيّ : تفرّد به محمد بن جابر (وكان ضعيفا) عن حماد عن إبراهيم . وغير حماد يرويه عن إبراهيم مرسلا عن عبد الله ، من فعله ، غير مرفوع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهو الصواب . وقد روى يزيد بن أبى زياد عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن البرَاء : أنه رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم حين ٱفتتح الصلاة رفع يديه حتى يحاذِىَ بهما أُذنيه ، ثم لم يعد إلى شىء من ذلك حتى فرغ من الصلاة . قال الدّارقطنيّ : [وإنما[1]] لقن يزيد فى آخر عمره : « ثُمَّ لَمْ يَعُدْ » ، فتلقنه وكان قد ٱختلط . وفى (مختصر ماليس فى المختصر) عن مالك : لا يرفع اليدين فى شىء من الصلاة . قال ٱبن القاسم : ولم أر مالكا يرفع يديه عند الإحرام . قال : وأَحبُّ إلىّ ترك رفع اليدين عند الإحرام .

قوله تعالى : إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

أى مبغضك ، وهو العاص بن وائل . وكانت العرب تسمى من كان له بنون وبنات ، ثم مات البنون وبقى البنات : أبتر . فيقال : إن العاص وقف مع النبيّ صلى الله عليه وسلم يكلمه ، فقال له جمع من صناديد قريش : مع من كنت واقفا ؟ فقال : مع ذلك الأبتر . وكان قد تُوُفِّىَ قبل ذلك عبد الله بن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من خديجة ، فأنزل الله جل شأنه : « إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَر » ، أى المقطوع ذِكره من خير الدنيا والآخرة . وذكر عكرمة عن ٱبن عباس قال : كان أهل الجاهلية إذا مات ٱبن الرجل قالوا : بُتِر فلان . فلما مات إبراهيم ٱبن النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال : بتِر محمد ، فأنزل الله جل ثناؤه :

(١) الزيادة من الدارقطنى .

« إنّ شانِئك هو الأَبْتَر » يعني بذلك أبا جهل . وقال شِمر بن عطية : هو عقبة بن أبي مُعَيط . وقيل : إن قريشا كانوا يقولون لمن مات ذكور ولده : قد بُتِر فلان . فلما مات لرسول الله صلى الله عليه وسلم ٱبنــه القاسم بمكة، وإبراهيم بالمدينة، قالوا : بتِر محمد، فليس له من يقوم بأمره من بعده ؛ فنزلت هذه الآية ؛ قاله السدّيّ وٱبن زيد . وقيل : إنه جواب لقريش حين قالوا لكعب بن الأشرف لمـا قدم مكة: نحن أصحاب السقاية والسّدانة والحجابة واللّواء، وأنت سيد أهل المدينة، فنحن خير أم هذا الصُّنَيْبِر(١) الأُبيتِر من قومه؟ قال كعب : بل أنتم خير؛ فنزلت في كعب : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ »(٢) ... الآية . ونزلت في قريش : « إن شانِئَك هو الأَبْتَر »؛ قاله ٱبن عباس أيضا وعكرمة . وقيل : إن الله عز وجل لمـا أوحى إلى رسوله، ودعا قريشا إلى الإيمـان، قالوا : ٱنبتر منـا محمد ؛ أي خالفنا وٱنقطع عنا . فأخبر الله تعـالى رسوله صلى الله عليه وسلم أنهـم هم المبتورون ؛ قاله أيضا عِكرمة وشَهْر بن حَوْشَب . قال أهل اللغـة : الأبتر من الرجال : الذي لا ولد له، ومن الدوابّ الذي لا ذنب له . وكل أمرٍ انقطع من الخير أثره، فهو أبتر . والبَتْر : القطع . بَتَرْت الشيء بَتْرا : قطعته قبل الإتمـام . والأنبتار : الانقطاع . والباتر : السيف القاطع . والأَبْتَر : المقطوع الذَّنَب . تقول منه : بَتِر (بالكسر) يَبْتَرُ بَتَرا . وفي الحديث " ماهذه البُتَيراء " . وخطب زياد خُطبته البتراء؛ لأنه لم يحمد الله فيها، ولم يصل على النبيّ صلى الله عليه وسلم . ٱبن السكيت : الأبتران : العَيْر والعَبْد؛ قال سميا أبترين لقلة خيرهما . وقد أبتره الله : أي صيره أبتر . ويقال: رجل أُباتِر (بضم الهمزة) : الذي يقطع رحمه . قال الشاعر:

لَئِيمٌ نَزَتْ في أَنْفِــهِ خُنْزُوانَةٌ * على قَطْعِ ذِي القُرْبَى أَحَذُّ أُباتِرُ

والبُتْرية : فِرقة من الزيدية ؛ نسبوا إلى المغيرة بن سعد، ولقبه الأبتر . وأمّا الصُّنبور فلفظ مشترك . قيل : هو النخلة تبقى منفردة، ويدِق أسفلها وينقشر؛ يقال: صَنْبَرَ أسفلُ النخلة .

---

(١) في نسخة الصنبور . وسيأتي للصنف بيان معناه .

(٢) آية ٥١ سورة النساء .

وقيـل : هو الرجل الفرد الذى لا ولد له ولا أخ . وقيـل : هو مَثْعَب الحوضِ[(١)] خاصّة؛ حكاه أبو عبيد . وأنشد :

* مابين صُـنبورٍ إلَى الإزاءِ[(٢)] *

والصُّنبور : قَصَبة تكون فى الإداوة[(٣)] من حديد أو رصاص يشرب منها . حكى جميعه الجوهرىّ رحمه الله . والله سبحانه وتعالى أعلم .

ســورة « الكافرون »

وهى مكية؛ فى قول ابن مسعود والحسن وعِكرمة . ومدنية؛ فى أحد قولِى ابن عباس وقتادة والضحاك . وهى ست آيات .

وفى الترمذىّ من حديث أنس : أنها تعدِل ثلث القرآن . وفى كتاب (الرد لأبى بكر الأنبارىّ) : أخبرنا عبد الله بن ناجية قال: حدّثنا يوسف قال حدّثنا القعنبىّ وأبو نعيم عن موسى ابن وردان عن أنس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " « قُلْ يَأَيُّها الكافِرونَ » تعدِل ربع القرآن " . ورواه موقوفا عن أنس . وخرّج الحافظ أبو محمد عبد الغنى بن سعيد عن ابن عمر قال : صلى النبىّ صلى الله عليه وسلم بأصحابه صلاة الفجر فى سفر، فقرأ « قُلْ يَأَيُّها الكافِرونَ » ، و « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » ، ثم قال : " قرأت بكم ثلث القرآن وربعه " . وروى جُبير بن مطعِم أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " أتحب ياجبير إذا خرجتَ سفَرًا أن تكون من أمثل أصحابك هيئة وأكثرِهم زادا " ؟ قلت : نعم . قال : " فاقرأ هذه السور الخمس من أوّل « قل يأيها الكافرون — إلى — قل أعوذ برب الناس » وافتتح قراءتك ببسم الله الرحمن الرحيم " . قال : فوالله لقد كنت غير كثيرِ المال، إذا سافرت أكون أَبَذَّهم[(٤)] هَيئة ، وأقلهم زادا ، فمذ قرأتهنّ صرت من أحسنهم هيئة، وأكثرِهم زادا، حتى أرجع من سفرى ذلك .

---

(١) مثعب الحوض : مسيله . (٢) الإزاء : مصب الماء فى الحوض .

(٣) الإداوة : إناء صغير من جلد يتخذ للماء . (٤) بذ الهيئة : رثها .

وقال فَرْوة بن نَوْفل الأشجعيّ : قال رجل للنبيّ صلى الله عليه وسلم : أوصني . قال : " اقرأ عند مَنامك « قُلْ يَأَيُّها الكَافِرونَ » فإنها براءة من الشرك " . خرّجه أبو بكر الأنباريّ وغيره . وقال ابن عباس : ليس في القرآن أشدّ غيظا لإبليس منها؛ لأنها توحيد و براءة من الشرك . وقال الأصمعيّ : كان يقال لـ « قُلْ يَأَيُّها الكافِرونَ » ، و « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » المقشقِشتان؛ أي أنهما تُبرئان من النفاق . وقال أبو عبيدة : كما يُقَشْقِشُ الهِناء[1] الجربَ فيبرئُه . وقال ابن السكيت : يقال للقرح والجُدرِيّ إذا يبِس وتقرّف، وللجَرب في الإبل إذا قفل[2] : قد تَوَسَّف جلدُه، وتقشّر جِلده، وتَقَشْقَش جِلدُه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ ﴾

ذكر ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس : أن سبب نزولها أن الوليد بن المغيرة، والعاص ابن وائل، والأسود بن عبد المطلب، وأمية بن خَلَف؛ لقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يامحمد، هَلُمَّ فلنعبدْ ماتعبد، وتَعْبُدْ مانَعْبد، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله؛ فإن كان الذي جئت به خيرا مما بأيدينا، كنا قد شاركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه . و إن كان الذي بأيدينا خيرا مما بيدك، كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت بحظك منه؛ فأنزل الله عز وجل « قُلْ يَأَيُّها الكافِرونَ » . وقال أبو صالح عن ابن عباس : إنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لوِ استلمت[3] بعض هذه الآلهة لصدقناك؛ فنزل جبريل على النبيّ صلى الله عليه وسلم بهذه السورة، فيئسوا منه، وآذوه، وآذوا أصحابه . والألف واللام ترجع إلى معنى المعهود

---

(١) الهناء (بالكسر) : القطران . (٢) قفل الجلد : يبس . (٣) استلم الحجر : لمسه بالقبلة أو باليد .

وإن كانت للجنس من حيث إنها كانت صفة لأىّ؛ لأنها مخاطبة لمن سبق فى علم الله تعالى أنه سيموت على كفره، فهى من الخصوص الذى جاء بلفظ العموم . ونحوه عن الماوردىّ : نزلت جوابا ، وعنى بالكافرين قومًا مُعيَّنين لا جميع الكافرين؛ لأن منهم من آمن فعبد الله ، ومنهم من مات أو قُتل على كفره ، وهم المخاطبون بهذا القول ، وهم المذكورون . قال أبو بكر بن الأنبارىّ : وقرأ من طعن فى القرآن : قل للذين كفروا «لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ» وزعم أن ذلك هو الصواب ، وذلك ٱفتراء على رب العالمين، وتضعيف لمعنى هذه السورة ، وإبطال ما قصده الله من أن يذلّ نبيُّه للشركين بخطابه إياهم بهذا الخطاب الزّرِىّ، وإلزامهم ما يأنف منه كلّ ذى لُبّ وحِجاً . وذلك أن الذى يَدّعيه من اللفظ الباطل قراءتنا تشتمل عليه فى المعنى ، وتزيد تأويلا ليس عندهم فى باطلهم وتحريفهم . فمعنى قراءتنا : قل للذين كفروا يأيها الكافرون ؛ دليلُ صحة هذا أن العربىّ إذا قال لمخاطبه قل لزيد أقبل إلينا ، فمعناه قل لزيد يا زيد أقبل إلينا . فقد وقعت قراءتنا على كل ما عندهم ، وسقط من باطلهم أحسن لفظ وأبلغُ معنًى ؛ إذ كان الرسول عليه السلام يعتمدهم فى ناديهم ، فيقول لهم : «يأيها الكافرون» . وهو يعلم أنهم يغضبون من أن يُنسبوا إلى الكفر ويدخلوا فى جملة أهله إلا وهو محروس ممنوع من أن تنبسط عليه منهم يَدٌ، أو تقع به من جهتهم أذِيّة . فمن لم يقرأ « قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ » كما أنزلها الله أسقط آيةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وسبيل أهل الإسلام ألّا يسارعوا إلى مثلها ، ولا يعتمدوا نبيّهم باختزال الفضائل عنه التى منحه الله إياها وشرّفه بها . وأما وجه التّكرار فقد قيل إنه للتأكيد فى قطع أطماعهم ؛ كما تقول : والله لا أفعل كذا ثم والله لا أفعله . قال أكثر أهل المعانى : نزل القرآن بلسان العرب، ومن مذاهبهم التكرار إرادة التأكيد والإفهام، كما أن مذاهبهم الاختصارُ إرادةَ التخفيف والإيجاز؛ لأن خروج الخطيب والمتكلم من شىء إلى شىء أولَى من اقتصاره فى المقام على شىء واحد ؛ قال الله تعالى : « فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » ، « وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ » ، « كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ » ، و « فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا » كل هذا على التأكيد .

وقد يقول القائل : إِرْمِ إِرْمِ ، اَعْجَلْ اَعْجَلْ ؛ ومنه قوله عليه السلام فى الحديث الصحيح : " فلا آذن ، ثم لا آذن ، إنما فاطمة بضعة منى " . خرّجه مسلم[1] . وقال الشاعر :

هلا سألتِ جموعَ كِندة * يومَ ولَّوا أَيْنَ أَيْنا

وقال آخر :

يالَبَكْرٍ أَنْشِروا لِى كُلَيْبًا * يالَبَكْرٍ أَيْنَ أَيْنَ الفِرارُ[2]

وقال آخر :

يا علقمهْ يا علقمهْ يا علقمهْ * خيرَ تميمٍ كُلِّها وأَكْرَمَهْ

وقال آخر :

يا أَقرعُ بنَ حابسٍ يا أَقرعُ * إنكَ إنْ يُصْرَعْ أَخوكَ تُصْرَعُ[3]

وقال آخر :

أَلَا يا اَسْلَمِى ثم اَسْلَمِى ثُمَّتَ اَسْلَمِى * ثلاثَ تَحِيّاتٍ وإنْ لَمْ تَكَلَّمِ

ومثله كثير . وقيل : هذا على مطابقة قولهم : تَعبُدُ آلهتنا ونعبدُ إلهَكَ ، ثم تعبد آلهتنا ونعبد إلهك ، ثم تعبد آلهتنا ونعبد إلهك ، فنجرِى على هذا أبدا سَنَةً وسنة . فأجيبوا عن كل ما قالوه بضدّه ؛ أى إن هذا لا يكون أبدا . قال ابن عباس : قالت قريش للنبىّ صلى الله عليه وسلم : نحن نعطيك من المال ما تكون به أغنى رجلٍ بمكة ، ونزوّجك مَنْ شئت ، ونطأ عقِبَك ؛ أى نمشى خلفَك ، وتَكُفّ عن شتم آلهتنا ، فإن لم تفعل فنحن نَعْرِض عليك خَصْلة واحدة هى لنا ولك صلاح ؛ تعبدُ آلهتنا (اللات والعُزّى) سنة ،

---

(١) لفظ الحديث كما فى صحيح مسلم (باب الفضائل) : " ... أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وهو يقول : إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى أن ينكحوا ابنتهم علىّ بن أبى طالب ، فلا آذن لهم ، ثم لا آذن لهم ، ثم لا آذن لهم إلا أن يحب ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى ، و ينكح ابنتهم ، فإنما ابنتى بضعة منى ، يريبنى ما رابها ، و يؤذينى ما آذاها " والبضعة (بالفتح وقد تكسر) : القطعة من اللحم .

(٢) البيت من أبيات المهلهل بن ربيعة قالها بعد أن أخذ بثأر أخيه كليب (راجع الشاهد العاشر بعد المائة فى خزانة الأدب) .

(٣) البيت لجرير بن عبد الله البجلى . وقيل لعمرو بن خثارم البجلى . (راجع خزانة الأدب فى الشاهد الحادى والثمانين بعد الخمسمائة) .

ونحن نعبد إلهك سنة(١)، فنزلت السورة . فكان التكرار فى « لا أعبد ما تعبدون » ؛ لأن القوم كرّروا عليه مقالهم مرة بعد مرة . والله أعلم . وقيل : إنما كرّر بمعنى التغليظ . وقيل : أى « لا أعبد » الساعة « ما تعبدون . ولا انتم عابِدون » الساعة « ما أعبـد » . ثم قال : « ولا أنا عابِد » فى المستقبل « ما عبدتم . ولا أنتم » فى المستقبل « عابِدون ما أعبد » . قاله الأخفش والمبرّد . وقيل : إنهم كانوا يعبدون الأوثان، فإذا ملوا وَثَناً، وسئموا العبادة له، رفضوه، ثم أخذوا وثَنا غيره بشهوة نفوسهم، فإذا مروا بحجارة تعجبهم ألقوا هذه، ورفعوا تلك، فعظموها ونصبوها آلهة يعبدونها؛ فأُمر عليه السلام أن يقول لهم : « لا أعبد ما تعبدون » اليوم من هذه الآلهة التى بين أيديكم . ثم قال : « ولا أنتم عابِدون ما أعبد » وإنما تعبدون الوثن الذى اتخذتموه، وهو عندكم الآن . « ولا أنا عابِد ماعبدتم » أى بالأمس من الآلهة التى رفضتموها، وأقبلتم على هذه . ﴿ ولا أنتم عابِدون ما أعبد ﴾ فإنى أعبد إلهى . وقيل : إن قوله تعالى : « لا أعبـد ما تعبدون . ولا أنتم عابِدون ما أعبـد » فى الاستقبال . وقوله : « ولا أنا عابِد ماعبدتم » على نفى العبادة منه لِما عبدوا فى الماضى . ثم قال : « ولا أنتم عابِدون ما أعبد » على التكرير فى اللفظ دون المعنى، من قِبل أن التقابل يوجب أن يكون : ولا أنتم عابدون ماعبدت، فعدل عن لفظ عبدت إلى أعبد، إشعارا بأن ماعبد فى الماضى هو الذى يعبد فى المستقبل، مع أن الماضى والمستقبل قد يقع أحدهما موقع الآخر . وأكثر ما يأتى ذلك فى أخبار الله عز وجل . وقال : « ما أعبدُ »، ولم يقل : مَنْ أعبـد؛ ليقابل به « ولا أنا عابِد ماعبدتم » وهى أصنام وأوثان، ولا يصلح فيها إلا « ما » دون « مَنْ » فحُمل الأول على الثانى، ليتقابل الكلام ولا يتنافى . وقد جاءت « ما » لمن يعقل . ومنه قولهم : سبحان ما سخركنّ لنا . وقيل : إن معنى الآيات وتقديرها : قل يأيها الكافرون لا أعبد الأصنام التى تعبدونها، ولا أنتم عابدون الله عز وجل الذى أعبده؛ لإشراككم به، واتخاذكم الأصنام، فإن زعمتم أنكم تعبدونه، فأنتم كاذبون؛ لأنكم تعبدونه مشركين . فأنا لا أعبـد ما عبدتم، أى مثل عبادتكم؛ فـ « ما » مصدرية . وكذلك

(١) فى حاشية الجمل نقلا عن القرطبى : ثم تعبد آلهتنا، ونعبد إلهك، فنجرى على هذا أبدا : سنة وسنة، فنزلت ... الخ .

« ولا أنتم عابِدون ما أعبـد » مصدرية أيضا ؛ معناه ولا أنتم عابدون مثـل عبادتى ، التى هى توحيد .

قوله تعـالى : لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

فيه معنى التهديد؛ وهو كقوله تعالى: « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم »[1] أى إن رضيتم بدينكم، فقد رضينا بديننا . وكان هذا قبل الأمر بالقتال، فنسخ بآية السيف . وقيل : السورة كلها منسوخة. وقيل: ما نسخ منها شىء لأنها خبر. ومعنى « لكم دِينكم» أى جزاء دينكم، ولى جزاء دينى . وسمى دينهم دينا ، لأنهم آعتقدوه وتولّوه . وقيل : المعنى لكم جزاؤكم ولى جزائى ؛ لأن الدِّين الجزاء . وفتح الياء من « ولِىَ دِينِ » نافع ، والبزى عن آبن كثير بآختلاف عنه، وهشام عن آبن عامر ، وحفص عن عاصم . وأثبت اليـاء فى « دينى » فى الحـالين نصر ابن عاصم وسـلام و يعقوب ؛ قالوا : لأنها آسم مثـل الكاف فى دينكم ، والتاء فى قمت . الباقون بغـير ياء ، مثل قوله تعـالى : « فَهُو يَهدِينِ »[2] . « فاتقُوا اللهَ وأَطِيعونِ »[3] ونحوه ، اكتفاء بالكسرة ، وآتباعا لخط المصحف ؛ فإنه وقع فيه بغير ياء .

تفسير ســورة « النصر »

وهى مدنِية بإجماع . وتسمى سورة « التوديع » . وهى ثلاث آيات .

وهى آخر سورة نزلت جميعا ؛ قاله آبن عباس فى صحيح مسلم .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعـالى : إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾

النصر : العَوْن ؛ مأخوذ من قولهم : قـد نَصَرَ الغيثُ الأرض : إذا أعان على نباتها ، من قَحْطِها[4] . قال الشاعر :

(١) آية ٥٥ سورة القصص .
(٢) آية ٧٨ سورة الشعراء .
(٣) آية ٥٠ سورة آل عمران .
(٤) هو الراعى يخاطب خيلا . (من اللسان مادة نصر) .

إذا انسلخ الشهر الحـرام فودِّعى * بلادَ تميمٍ وٱنْصُرِى أرضَ عامِرِ

ويروى :

إذا دخلَ الشهرُ الحرامُ بجاوِزِى * بلادَ تميمٍ وٱنصرى أرضَ عامِرِ

يقال : نصره على عدوّه ينصره نصرا ؛ أى أعانه . والاسم النُّصْرة . وٱستنصره على عدوّه : أى سأله أن ينصره عليـه . وتناصروا : نصر بعضهم بعضا . ثم قيـل : المراد بهذا النصر نصر الرسول على قريش ؛ الطبرىّ . وقيـل : نصره على من قاتله من الكفار ؛ فإن عاقبة النصر كانت له . وأما الفتح فهو فتح مكة ؛ عن الحسن ومجاهد وغيرهما . وقال ٱبن عباس وسعيد بن جبير : هو فتح المدائن والقصور . وقيـل : فتح سائر البلاد . وقيـل : ما فتحه عليه من العلوم . و « إذا » بمعنى قد ؛ أى قد جاء نصر الله ؛ لأن نزولها بعد الفتح . ويمكن أن يكون معناه : إذا يجيئك .

قوله تعـالى : وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ ورأيت الناس ﴾ أى العرب وغيرهم . ﴿ يدْخُلُون فِى دِينِ اللهِ أفواجًا ﴾ أى جماعات : فوجا بعد فوج . وذلك لمـا فتحت مكة قالت العرب : أمّا إذا ظفِر محمد بأهل الحرم، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان (١) . فكانوا يُسْلِمون أفْواجا : أمّةً أمّةً . قال الضحاك : والأمّة : أربعون رجلا . وقال عكرمة ومقاتل : أراد بالناس أهل اليمن . وذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين طائعين . بعضهم يؤذنون ، وبعضهم يقرءون القرآن، وبعضهم يُهَلِّلون ؛ فسُرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك ، وبكى عمر وٱبن عباس . وروى عكرمة عن ٱبن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ : « إذَا جاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ » وجاء أهل اليَمَنِ رَقيقةً أَفْئِدَتُهُمْ ، لَيِّنـةً طِباعهم ، سَخِيـةً قُلوبهم ، عظيمةً خشيتُهم ، فدخلوا فى دين الله أفواجا " . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أتاكم أهل اليمن، هم أضعف قلوبا، وأرق أفئدة. الفِقه يَمَانٍ، والحكمة يَمَانِية" . وروى أنه

(١) أى طاقة .

صلى الله عليه وسلم قال : " إني لأجدُ نَفَسَ ربكم مِن قِبَلِ اليَمَنْ "[1] وفيه تأويلان : أحدهما — أنه الفرج ؛ لتتابع إسلامهم أفواجا . والثاني — معناه أن الله تعالى نَفَّس الكرب عن نبيه صلى الله عليه وسلم بأهل اليمن ، وهم الأنصار . وروى جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا ، وسيخرجون منه أفواجا " ذكره الماوردي ، ولفظ الثعلبي : وقال أبو عمار حدثني جار لجابر ، قال : سألني جابر عن حال الناس ، فأخبرته عن حال اختلافهم وفُرقتهم ؛ فجعل يبكي ويقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن النَاسَ دَخَلُوا في دين الله أفواجا ، وَسَيَخْرُجونَ من دينِ اللهِ أَفْواجًا " .

قوله تعالى : فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فسبحْ بحمـد ربكَ واستغفِرْهُ ﴾ أي إذا صليت فأكثر من ذلك . وقيل : معنى سبح : صَلِّ ؛ عن ابن عباس . « بِحَمْـدِ ربك » أي حامدا له على ما آتاك من الظفر والفتح . « واسْتَغْفِرْهُ » أي سلِ الله الغفران . وقيل : « فسبح » المراد به : التنزيه ؛ أي نزهه عما لا يجوز عليه مع شكرك له . « واسْتَغفِرْه » أي سَلِ الله الغفران مع مداومة الذكر. والأول أظهر . روى الأئمة (واللفظ للبخاري) عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت عليه سورة « إِذَا جاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ » إلا يقول : "سُبْحانَكَ رَبَّنا وبِحَمْدِك ، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي " . وعنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكْثِر أن يقول في ركوعه وسجوده : " سُبحانكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وبِحَمْدِك ، اللَّهُمَّ اغفِرْ لِي ". يتأول القرآن . وفي غير الصحيح : وقالت أم سَلَمة : كان النبي صلى الله عليه وسلم آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يجيء ولا يذهب إلا قال : " سُبْحانَ اللهِ وبحمدِهِ ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ وأَتوبُ

(١) قال ابن الأثير : « هو مستعار من نفس الهواء الذي يردّه التنفس إلى الجوف ، فيبرّد من حرارته ويعدّلها . أو من نفس الريح الذي يتنسمه ، فيستروح إليه . أو من نفس الروضة وهو طيب روائحها ، فيتفرج به عنه . يقال : أنت في نفس من أمرك ، واعمل وأنت في نفس من عمرك ؛ أي في سعة وفسحة ، قبل المرض والهرم ونحوهما .

إليه — قال — فإنى أُمِرت بها — ثم قرأ — « إِذَا جَاءَ نصرُ اللهِ والفَتْحُ » إلى آخرها . وقال أبوهريرة : آجتهدَ النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد نزولها، حتى تَوَرَّمت قدماه . ونَحَل جسمه، وقل تبسمه ، وكثر بكاؤه . وقال عِكرمة : لم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم قَطُّ أشد آجتهادا فى أمور الآخرة ما كان منه عند نزولها . وقال مقاتل : لما نزلت قرأها النبيّ صلى الله عليه وسلم على أصحابه ، ومنهم أبو بكر وعمر وسعد بن أبى وقاص ، ففرِحوا وآستبشروا ، و بكى العباس ؛ فقال له النبيّ صلى الله عليـه وسلم : " ما يُبْكيكَ يا عَمّ ؟ " قال : نُعِيَتْ إليكَ نَفْسُك . قال : "إنه لكما تقول" ؛ فعاش بعدها ستين يوما[(1)]، ما رُئِى فيها ضاحكا مستبشرا . وقيل : نزلت فى مِنًى بعد أيام التشريق، فى حِجة الوداع، فبكى عُمر والعباس ، فقيل لهما : إن هذا يوم فرح، فقالا : بل فيه نَعْى النبيّ صلى الله عليه وسلم . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " صَدَقتما ، نُعِيت إلىّ نفسى " . وفى البخاريّ وغيره عن ابن عباس قال : كان عمر بن الخطاب يأذن لأهل بدر ، ويأذن لى معهم . قال : فوجِد[(2)] بعضهم من ذلك ، فقالوا : يأذن لهذا الفتى معنا ومن أبنائنا من هو مثله ! فقال لهم عمر : إنه من قد علمتم[(3)]. قال : فأذن لهم ذات يوم، وأذن لى معهم، فسألهم عن هذه السورة « إذا جاء نصر اللهِ والفتح » فقالوا : أمر الله جل وعز نبيه صلى الله عليه وسلم إذا فتح عليه أن يستغفره، وأن يتوب إليه . فقال : ما تقول يا آبن عباس ؟ قلت : ليس كذلك ، ولكن أخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم حضورَ أجله ، فقال : « إذا جاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ » ، فذلك علامة موتك . « فَسبِّحْ بِحمدِ رَبِّكَ وآستغفِرهُ إِنَّهُ كانَ توَّاباً » . فقال عمر رضى الله عنه : تلومونى عليه ؟ وفى البخاريّ فقال عمـر : ما أعلم منها إلا ما تقول . ورواه الترمذيّ ، قال : كان عمر يسألنى مع أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال له عبد الرحمن آبن عوف : أتسأله ولنا بنون مثله ؟ فقال له عمر : إنه من حيث نعلم . فسأله عن هذه الآية : « إذا جاء نصر اللهِ والفتح » . فقلت : إنما هو أجل رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، أعلمه إياه ؛ وقـرأ السورة إلى آخرها . فقال له عمـر : والله ما أعلم منها إلا ما تعلم . قال : هذا

(1) الذى فى الطبرى والكشاف : « سنتين » . (2) أى غضب .
(3) أى من جهة ذكائه وزيادة معرفته . أو من جهة قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حديث حسن صحيح . فإن قيل : فماذا يغفر للنبيّ صلى الله عليه وسلم حتى يؤمر بالاستغفار ؟ قيــل له : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه : "رَبِّ ٱغفرْ لِي خَطيئَتي وجَهْلِي، وإسْرافِي فى أَمْرِي كُلِّه، وما أنت أعلم به منى. اللهم ٱغفرلى خَطَئِي وعَمْدِي، وجهلِي وهَزْلِي، وكل ذلك عندى. اللهم ٱغفرلى ماقدّمت وما أخرتُ، وما أعلَنْت وما أسْرَرْت، أنت المقدِّم وأنت المُؤَخِّر، إنكَ على كلِّ شيءٍ قَدِير". فكان صلى الله عليه وسلم يستقصر نفسه لعظم ما أنعم الله به عليه ، ويرى قصوره عن القيام بحق ذلك ذُنُوبا . ويحتمل أن يكون بمعنى : كُنْ متَعلقا به، سائلا راغبا ، متضرعا على رؤية التقصير فى أداء الحقوق؛ لئلا ينقطع إلى رؤية الأعمال . وقيل : الاستغفار تَعَبُّد يجب إتيانه ، لا للمغفرة ، بل تعبدا . وقيل : ذلك تنبيه لأمتــه ، لكيلا يأمنوا ويتركوا الاستغفار . وقيــل : « وٱستغفره » أى استغفر لأمتــك . ﴿إنه كان تَوَّابا﴾ : أى على المسبحين والمستغفرين، يتوب عليهم ويرحمهم، ويقبل توبتهم . وإذا كان عليه السلام وهو معصوم يؤمر بالاستغفار ، فمـا الظن بغيره ؟ روى مسلم عن عائشة قالت : كان رســول الله صلى الله عليه وسلم يُكْثر من قول "سُبحانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ ، أَسْتغفِرُ اللهَ وأَتوبُ إليه" . قالت : فقلت يارسول الله ، أراك تكثر من قول "سُبْحانَ اللهِ وبِحَمْده، أستغفر الله وأتوب إليه"؟ فقال : "خَبَّرَنِي رَبِّي أنى سأرى علامة فى أمتى، فإذا رأيتهـا أكثرت من قول سُبحان اللهِ وبِحَمْده ، أستغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتها : « إذا جاءَ نَصْرُ اللهِ والفتحُ » — فتــح مكة — « ورأيتَ النـاسَ يَدْخُلُون فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً . فَسَبِّحْ بِحَمدِ ربك واسْتَغفِرْه إنهُ كانَ تَوَّابًا » " . وقال ٱبن عمر : نزلت هــذه السورة بِمِنًى فى حِجّة الوَداع ، ثم نزلت «اليومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيكُمْ نِعمتِي» (١) فعاش بعدهما النبي صلى الله عليــه وسلم ثمانين يوما . ثم نزلت آية الكَلالة (٢) ، فعاش بعدها خمسين يوما . ثم نزل « لَقَدْ جاءَكُمْ رسول مِن أنفسِكم » (٣) فعاش بعدها خمسه وثلاثين يوما . ثم نزل « واتَّقُوا يَوْمًا تُرْجعون فيهِ إلَى اللهِ » (٤) فعاش بعــدها أحدا وعشرين يوما . وقال مقاتل سبعة أيام . وقيل غير هذا مما تقدّم فى « البقرة » بيانُه (٥) ، والحمد لله .

---

(١) آية ٣ سورة المائدة . (٢) آخر سورة النساء . (٣) آية ١٢٨ سورة التوبة .
(٤) آية ٢٨١ سورة البقرة . (٥) راجع جـ ٣ ص ٣٧٥

سورة « تبت »

وهى مكية بإجماع . وهى خمس آيات

قوله تعالى : تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ ﴾ فى الصحيحين وغيرهما (واللفظ لمسلم) عن ابن عباس قال : لما نزلت « وأنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ[1] . ورَهْطَكَ مِنْهُمُ المخلصين[2] » خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صَعِد الصَّفا ، فهتَفَ : ياصَباحاه ! فقالوا : من هذا الذى يهتف ؟ قالوا محمد . فاجتمعوا إليه . فقال : " يابَنى فُلان ، يابنى فلان ، يابنى فُلان ، يابنى عبد مناف ، يابنى عبد المطلب ! " فاجتمعوا إليه . فقال : " أَرَأَيْتَكُمْ لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقِىَّ " ؟ قالوا : ماجربنا عليك كذبا . قال : " فإنِّى نذيرٌ لَكُمْ بينَ يَدَىْ عَذاب شَدِيد " . فقال أبو لهب : تَبًّالَكَ ! ، أما جمعتنا إلَّا لهذا ! ثم قام ، فنزلت هذه السورة «تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وقَدْ تب» كذا قرأ الأعمش إلى آخر السورة . زاد الحميدى وغيره : فلما سمعت امرأته ما نزل فى زوجها وفيها من القرآن ، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ، ومعه أبو بكر رضى الله عنه ، وفى يدها فِهر[3] من حجارة ، فلما وقفتْ عليه أخذ الله بصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا ترى إلا أبا بكر . فقالت : يا أبا بكر ، إن صاحبك قد بلغنى أنه يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفِهر فاه ، والله إنى لشاعرة :

مُذَمَّمًا عَصَيْنَا * وأَمْرَهُ أَبَيْنَا * وَدِينَه قَلَيْنَا

---

(١) آية ٢١٤ سورة الشعراء . (٢) قال النووى فى شرح مسلم : « وظاهر هذه العبارة أن قوله ورهطك منهم المخلصين كان قرآنا أنزل ثم نسخت تلاوته » . (٣) الفهر (بالكسر) : الحجر ملء الكف وقيل الحجارة مطلقا .

ثم آنصرفت . فقال أبو بكر : يارسول الله ، أما تراها رأتك ؟ قال : " ما رأتني ، لقد أخذ الله بصرها عني " . وكانت قريش إنما تسمي رسول الله صلى الله عليه وسلم مُذَمَّمًا ، يسبونه ، وكان يقول : " ألا تعجبون لِمَا صرف الله عني من أذى قريش ، يَسُبُّون ويهجون مذمما وأنا محمد " . وقيل : إن سبب نزولها ماحكاه عبد الرحمن بن زيد أن أبا لهب أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : ماذا أُعْطَى إن آمنتُ بك يا محمد ؟ فقال : " كما يُعْطَى المسلمون " قال مالي عليهم فضل ؟! . قال : "وأيّ شيء تَبْغي" ؟ قال : تَبًّا لهذا من دين ، أن أكون أنا وهؤلاء سواء ؛ فأنزل الله تعالى فيه : « تَبَّتْ يدا أبي لهب وتَبَّ » . وقول ثالث حكاه عبد الرحمن بن كيسان قال : كان إذا وفد على النبيّ صلى الله عليه وسلم وفد آنطلق إليهم أبو لهب ، فيسألونه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون له : أنت أعلم به منا . فيقول لهم أبو لهب : إنه كَذَّاب ساحر . فيرجعون عنه ولا يَلْقونه . فأتى وفد ، ففعل معهم مثل ذلك ، فقالوا : لا ننصرف حتى نراه ، ونسمع كلامه . فقال لهم أبو لهب : إنا لم نزل نعالجه فَتَبًّا له وتَعْسًا . فأُخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فا كْتأب لذلك ؛ فأنزل الله تعالى « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ »... السورة. وقيل: إن أبا لهب أراد أن يرمي النبي صلى الله عليه وسلم بحجر، فمنعه الله من ذلك، وأنزل الله تعالى: « تبت يدا أبي لهب وتَبَّ » للمنع الذي وقع به. ومعنى « تَبَّتْ » : خَسِرت ؛ قاله قتادة . وقيل : خابت ؛ قال ابن عباس . وقيل ضلّت ؛ قاله عطاء . وقيل : هلكت ؛ قاله ابن جبير . وقال يمان بن رِئاب : صَفِرت من كل خير. حكى الأصمعيّ عن أبي عمرو بن العلاء أنه لما قتل عثمان رحمه الله سمع الناس هاتفا يقول :

لَقَدْ خَلَّوْكَ وانصرَفُوا * فما آبُوا ولا رَجَعُوا

ولم يُوفُوا بنَذْرِهِم * فَيَاتَبًّا لِمَا صَنَعُوا (1)

وخص اليدين بالتباب ، لأن العمل أكثر ما يكون بهما ؛ أي خسرتا وخسر هو . وقيل : المراد باليدين نفسه . وقد يعبَّر عن النفس باليد، كما قال الله تعالى : « بما قَدَّمتْ يداك » (2)

(1) في بعض نسخ الأصل : * فتبا للذي صنعوا *

(2) آية ١٠ سورة الحج .

أى نفسك . وهذا مَهْيَع[1] كلامِ العرب ؛ تعبِّر ببعض الشىء عن كله ؛ تقول : أصابته يد الدهر ، و يد الرزايا والمنايا ؛ أى أصابه كل ذلك . قال الشاعر :

لَمَّا أَكَبَّتْ يَدُ الرَّزَايا * عَلَيــهِ نادَى ألَا مُجِيرُ

﴿ وَتَبَّ ﴾ قال الفرّاء : التبُّ الأول : دعاء والثانى خبر ؛ كما يقال : أهلكه الله وقد هلك . وفى قراءة عبد الله وأبىّ « وَقَدْ تَبَّ » . وأبو لهب آسمه عبد العُزّى ، وهو آبن عبد المطلب عمّ النبىّ صلى الله عليه وسلم . وآمرأته العوراء أم جميل ، أخت أبى سفيان بن حرب ، وكلاهما ، كان شديد العداوة للنبىّ صلى الله عليه وسلم . قال طارق بن عبد الله المحاربىّ : إنى بسوق ذى المجَاز ، إذ أنا بإنسان يقول: "يأيها الناس، قولُوا لا إلهَ إلّا اللهُ تُفْلِحُوا"، و إذا رجل خلفه يرميه ، قد أدمى ساقيه وعرقوبيه و يقول : يأيها الناس ، إنه كذاب فلا تصدقوه . فقلت مَنْ هذا ؟ فقالوا : محمد، زعم أنه نبى . وهذا عمه أبو لهب يزعم أنه كذاب . وروى عطاء عن ابن عباس قال قال أبو لهب : سَحَرَكم محمد ! إن أحدنا ليأكل الجَذَعة[2] ، ويشرب العُسّ[3] من اللبن فلا يشبع ، و إن محمدا قدا أشبعكم من فخذ شاة ، وأرواكم من عُسّ لبن .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ أَبِى لَهَبٍ ﴾ قيل : سمى باللَّهب لحسنه ، و إشراق وجهه . وقد ظن قوم أن فى هذا دليلا على تكنية المشرك ؛ وهو باطل ، و إنما كناه الله بأبى لهب ــ عند العلماء ــ لمعان أربعة : الأول ــ أنه كان اسمه عبد العزى ، والعُزّى : صنم ، ولم يضف الله فى كتابه العبودية إلى صنم . الثانى ــ أنه كان بكنيته أشهر منه باسمه ؛ فصرح بها . الثالث ــ أن الآسم أشرف من الكنية ، لحطه الله عز وجل عن الأشرف الى الأنقص ، إذا لم يكن بُدٌّ من الإخبار عنه ، ولذلك دعا الله تعالى الأنبياء بأسمائهم ، ولم يَكْنِ عن أحد منهم . و يدلك على شرف الآسم على الكنية : أن الله تعالى يُسَمَّى ولَا يُكَنَّى ، و إن كان ذلك لظهوره و بيانه ؛ واستحالة نسبة الكنية إليه ، لتقدسه عنها . الرابع ــ أن

---

(١) يقال طريق مهيع : أى واضح واسع بين .

(٢) الجذعة : ولد الشاة فى السنة الثانية .

(٣) العس (بالضم) : القدح الكبير .

الله تعالى أراد أن يحقق نسبته، بأن يدخله النار، فيكون أبا لهـا؛ تحقيقا للنسب، وإمضاء للفأل والطيرة التي اختارها لنفسه . وقد قيل: اسمه كنيته. فكان أهله يسمونه (أبا لهب)، لتلهب وجهه وحسنه؛ فصرفهم الله عن أن يقولوا : أبو النُّور، وأبو الضياء، الذى هو المشترك بين المحبوب والمكروه، وأجرى على ألسنتهم أن يضيفوه إلى (لَهَب) الذى هو مخصوص بالمكروه المذموم، وهو النار . ثم حقق ذلك بأن يجعلها مقره . وقرأ مجاهد وحميد وابن كثير وابن مُحَيْصِن . « أَبِى لَهْبٍ » بإسكان الهاء . ولم يختلفوا فى « ذَاتَ لَهَبٍ » أنها مفتوحة؛ لأنهم راعَوْا فيها رءوس الآى .

الثالثـــة — قال ابن عباس: لمـا خلق الله عز وجل القلم قال له : اكتب ما هو كائن، وكان فيما كتب « تَبَّتْ يد أبى لَهَبٍ » . وقال منصور : سُئِلَ الحسن عن قوله تعـالى : « تَبَّتْ يَدَا أبِى لَهَبٍ » هل كان فى أم الكتاب؟ وهل كان أبو لهب يستطيع ألا يَصْلَى النار؟ فقال : والله ما كان يستطيع ألّا يصلاها، وإنهـا لفى كتاب الله من قبـل أن يُخْلَق أبو لهب وأبواه . ويؤيده قول موسى لآدم : أنت الذى خلقَكَ اللهُ بيـده، ونفخ فيك من رُوحه، وأسكنك جَنَّته، وأسجَـدَ لك ملائكته، خَيَّبْتَ[(1)] الناس، وأخرجتهم من الجنة . قال آدم : وأنت موسى الذى اصطفاك بكلامه، وأعطاك التوراة، تَلُومنى على أمر كتبه الله علىّ قبل أن يخلق الله السموات والأرض . قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "فَحَجَّ آدمُ مُوسَى"[(2)]، وقد تقدّم[(3)] هذا . وفى حديث هَمَّام عن أبى هريرة أن آدم قال لموسى : "بِكَمْ وجدتَ اللهَ كَتَبَ التوارةَ قبلَ أَنْ يَخْلُقَنِي"؟ قال : "بألفى عام" قال : "فهل وجدت فيهـا : « وعَصَى آدمُ رَبَّهُ فَغَوَى »" قال : "نعم" قال : "أفتلومنى على أمر وكتب الله علىّ أن أفعله من قبل أن أخلق بألفى عام" . فَحَجَّ[(4)] آدمُ موسى . وفى حديث طاوُس وابن هُرْمز والأعرج عن أبى هريرة : "بأربعين عاما" .

(١) فى الأصول : « أغويت » . (٢) أى غلبه بالحجة . (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٥٦
(٤) أى غلبه بقوة حجته .

قوله تعالى : ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ (٢)

أى ما دفع عنه عذاب الله ما جمع من المال، ولا ما كسب من جاه . وقال مجاهد: من الولد؛ وولد الرجل من كسبه . وقرأ الأعمش « وَمَا ٱكْتَسَبَ » ورواه عن ٱبن مسعود . وقال أبو الطُّفَيل: جاء بنو أبى لهب يختصمون عند ٱبن عباس، فاقتتلوا، فقام ليحْجُزَ بينهم، فدفعه بعضهم، فوقع على الفِراش، فغضب ٱبن عباس وقال: أَخرِجوا عنى الكسبَ الخبيثَ؛ يعنى ولده . وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولدى من كسبه " . خرّجه أبو داود . وقال ٱبن عباس: لما أنذر رسول الله صلى الله عليه وسلم عشيرته بالنار، قال أبو لهب : إن كان ما يقول ٱبن أخى حقا فإنى أفدى نفسى بمالى وولدى، فنزل : « ما أَغْنَى عَنْـهُ مالُهُ وما كَسَبَ » . و « ما » فى قوله : « مَا أَغْنَى »: يجوز أن تكون نفيا، ويجوز أن تكون ٱستفهاما؛ أى أىّ شىء أغنى [عنه] ؟ و «ما» الثانية: يجوز أن تكون بمعنى الذى، ويجوز أن تكون مع الفعل مصدرا؛ أى ما أغنى عنه ماله وكسبه .

قوله تعالى : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ (٣)

أى ذات اشتعال وتلهُّب . وقد مضى فى سورة « المرسلات »[(١)] القول فيه . وقراءة العامة : « سَيَصْلَى » بفتح الياء . وقرأ أبو رجاء والأعمش : بضم الياء . ورواها محبوب عن إسماعيل عن ٱبن كثير، وحسين عن أبى بكرعن عاصم، ورويت عن الحسن . وقرأ أشهب العُقَيلى وأبو سَمَّال العَدَوى ومحمد بن السَّمَيْقَع «سَيُصَلَّى» بضم الياء، وفتح الصاد، وتشديد اللام، ومعناها سَيُصَلِّيه الله؛ من قوله : «وتَصْلِيَة جَحِيم »[(٢)] . والثانية من الإصلاء؛ أى يصليه الله ؛ من قوله : « فسوف نُصْلِيه نارا »[(٣)] . والأُولَى هى الاختيار؛ لإجماع الناس عليها ؛ وهى من قوله : « إِلَّا من هو صالِ الجَحِيم »[(٤)] .

---

(١) راجع جـ ١٩ ص ١٦٠ .
(٢) آية ٩٤ سورة الواقعة .
(٣) آية ٣٠ سورة النساء .
(٤) آية ١٦٣ سورة الصافات .

قوله تعالى : وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وامْرَأَتُهُ ﴾ أم جميل . وقال ابن العربي : العوراء أم قبيح ، وكانت عَوْراء . ﴿ حَمَّالَةُ الحَطَب ﴾[1] قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسُّدّي : كانت تمشي بالنميمة بين الناس ؛ تقول العرب : فلان يَحْطِب على فلان : إذا وَرَّش عليه[2] . قال الشاعر :

إن بنى الأَدْرَمِ حَمَّالو الحَطَبْ * هُمُ الوُشاةُ فى الرِّضا وفى الغَضَبْ
* عليهِمُ اللَّعنةُ تَتْرَى والحَرَبْ[3] *

وقال آخر :

مِنَ البِيض لَمْ تُصْطَدْ عَلَى ظَهْرِ لأْمَةٍ * ولَمْ تَمْشِ بينَ الحيِّ بالحَطَبِ الرطْبِ

يعنى : لم تمش بالنمائم ، وجعل الحطب رَطْبا ليدل على التدخين ، الذى هو زيادة فى الشر .
وقال أكثم بن صَيْفِيّ لبنيه : إياكُمْ والنَّميمةَ ! فإنها نارٌ مُحْرِقَة ، وإنّ النَّمَّام ليَعْمَل فى ساعة مالا يَعْمَل الساحر فى شهر . أخذه بعض الشعراء فقال :

إنَّ النميمةَ نارٌ وَيْكَ مُحْرِقَةٌ * فَفِرَّ عنها وجانِبْ مَنْ تَعاطَاهَا

ولذلك قيل : نار الحقد لا تخبو . وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يَدْخُلُ الجنةَ نَمَّام " . وقال : " ذُو الوَجْهَين لا يكون عند الله وجيها " . وقال عليه الصلاة والسلام : " مِنْ شَرِّ الناسِ ذُو الوَجْهَيْنِ : الّذِى يَأْتِى هؤُلاءِ بوَجْهٍ ، وهَـؤُلاءِ بوَجْهٍ " . وقال كعب الأحبار : أصاب بنى إسرائيل قحط ، فخرج بهم موسى عليه السلام ثلاث مرات يَسْتَسْقُون فلم يُسْقَوا . فقال موسى : " إلهى عبادُك " فأوحى الله إليه : " إنى لا أستجيب لك ولا لمن معك ، لأن فيهم رجلا نماما ، قد أَصَرَّ على النميمة " فقال موسى : " يا رَبِّ مَنْ هُوَ حتى نخرجه من بيننا " ؟ فقال : " يا موسى ، أنهاك عن النميمةِ وأكونَ نماما " قال : فتابوا بأجمعهم ، فسُقوا . والنميمة من الكبائر ، لا خلاف فى ذلك ؛ حتى قال الفُضَيل بن عِياض : ثلاث تهدّ العمل الصالح ويُفَطِّرن الصائم ، وينقُضْن الوضوء : الغيبة ، والنميمة ، والكذب .

---

(١) « حمالة » بالرفع قراءة نافع ، وبها يقرأ المؤلف . (٢) التوريش : التحريش ؛ يقال : ورّشت بين القوم ، وأرّشت . (٣) الحرب (بالتحريك) : نهب مال الانسان وتركه لا شىء له .

وقال عطاء بن السائب : ذكرت للشعبي قول النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ سافكُ دمٍ ، ولا مشاء بنميمة ، ولا تاجر يُرْبِى " فقلت : يا أبا عمرو ، قَرَن النمام بالقاتل وآكل الربا ؟ فقال : وهل تسفك الدماء ، وتنتهب الأموال ، وتهيج الأمور العظام ، إلا من أجل النميمة .

وقال قتادة وغيره : كانت تُعيِّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفقر . ثم كانت مع كثرة مالها تحمل الحطب على ظهرها ، لشدة بخلها ، فعُيِّرتْ بالبخل . وقال ابن زيد والضحاك : كانت تحمل العِضاه والشوك ، فتطرحه بالليل على طريق النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ وقاله ابن عباس . قال الربيع : فكان النبي صلى الله عليه وسلم يَطَؤُه كما يطأ الحرير . وقال مُرَّة الهَمْدَانى : كانت أم جميل تأتى كل يوم بإبالة(١) من الحَسَك(٢) ، فتطرحها على طريق المسلمين ، فبينما هى حاملة ذات يوم حُزْمة أَعْيَتْ ، فقعدت على حجر لتستريح ، فجذبها المَلَكُ من خلفها فأهلكها . وقال سعيد بن جُبير : حمالة الخطايا والذنوب ؛ من قولهم : فلان يحتطب على ظهره ؛ دليله قوله تعالى : « وهم يحملون أَوْزَارَهُمْ على ظهورهم »(٣) . وقيل : المعنى حمالة الحطب فى النار ؛ وفيه بُعْد . وقراءة العامة « حَمَّالَةُ » بالرفع ، على أن يكون خبرا « وٱمرأته » مبتدأ . ويكون « فى جِيدِها حبلٌ من مَسَدٍ » جملة فى موضع الحال من المضمر فى « حَمَّالة » . أو خبرا ثانيا . أو يكون « حمالة الحطب » نعتا لامرأته . والخبر « فى جيدها حبْلٌ مِنْ مَسَد » ؛ فيوقف (على هذا) على « ذات لهبٍ » . ويجوز أن يكون « وامرأته » معطوفة على المضمر فى « سَيَصْلَى » فلا يوقف على « ذَاتَ لَهَبٍ » و يوقف على « وَٱمْرَأَتُهُ » وتكون « حَمَّالَةَ الحَطَبِ » خبر ابتداء محذوف . وقرأ عاصم « حمالةَ الحَطَب » بالنصب على الذم ، كأنها ٱشتهرتْ بذلك ، فجاءت الصفة للذم لا للتخصيص ، كقوله تعالى : « مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا »(٤) . وقرأ أبو قلابة « حامِلَةَ الحَطَب » .

---

(١) الإبالة : الحزمة الكبيرة .
(٢) الحسك : نبات له ثمرة ذات شوك تعلق بأصواف الغنم ، والسعدان .
(٣) آية ٣١ سورة الأنعام . (٤) آية ٦١ سورة الأحزاب .

قوله تعالى : فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فِي جِيدِهَا ﴾ أي عنقها . وقال آمرؤ القيس :

وجِيدٍ كجِيدِ الرِّيمِ لَيْسَ بفاحِشٍ * إذَا هِيَ نَصَّتْهُ ولَا بِمُعَطَّلِ (١)

﴿ حَبْلٌ مِن مَسَدٍ ﴾ أي من لِيف ؛ قال النابغة :

مَقْذُوفةٍ بدَخِيسِ النَّحْضِ بازِلُها * له صَرِيفٌ صَرِيفُ القَعْوِ بالمَسَدِ (٢)

وقال آخر :

يا مَسَدَ الخُوصِ تَعَوَّذْ مِنِّي * إنْ كُنْتُ لَدْنًا لَيِّنًا فإنِّي

* ما شِئْتَ مِنْ أَشْمَطَ مُقْسَئِنِّ * (٣)

وقد يكون من جلود الإبل ، أو من أوبارها ؛ قال الشاعر :

ومَسَدٍ أُمِرَّ مِنْ أَيَانِقِ * لَسْنَ بِأَنْيَابٍ ولَا حَقَائِقِ (٤)

وجمع الجِيد أجياد، والمسد أمساد . أبو عبيدة : هو حَبْل يكون من صوف . قال الحسن : هي حبال من شجر تَنبتُ باليمن تسمى المَسَد ، وكانت تُفتَل . قال الضحاك وغيره : هذا في الدنيا ؛ فكانت تُعَيِّر النبيَّ صلى الله عليه وسلم بالفقر وهي تحتطب في حبل تجعله في جيدها من ليف ، فخنقها الله جل وعزّ به فأهلكها ؛ وهو في الآخرة حَبْل من نار . وقال آبن عباس

(١) الجيد : العنق . والريم : الظبي الأبيض الخالص البياض . و « نصته » رفعته . والمعطل : الذى لا حلي عليه . وقوله « بفاحش » ؛ أي ليس بكريه المنظر .

(٢) قال التبريزي « مقذوفة : أي مرمية باللحم . والدخيس : الذى قد دخل بعضه في بعض من كثرته . والنحض : اللحم ، وهو جمع نحضة . والبازل : الكبير . والصريف : الصياح . والقعو : ما يضم البكرة إذا كان خشبا ؛ فاذا كان حديدا فهو خطاف . ويروى : له صريف صريف القعو (بالضم) على البدل ، والنصب أجود » .

(٣) الأشمط : من خالط بياض رأسه سواد . والمقسئن : الذى قد انتهى في سنه ، فليس به ضعف كبر ولا قوة شباب . وقيل : هو الذى في آخر شبابه وأول كبره . والرجز ثلاثة أبيات في (اللسان : مسد) ولم ينسبه إلى قائله .

(٤) أمر الحبل : فتله فتلا شديدا . وأيانق : جمع أينق ، وأينق جمع ناقة . والأنياب : جمع ناب ، وهي الناقة الهرمة . والحقائق : جمع حقة ، وهي التي دخلت في السنة الرابعة ، وليس جلدها بالقوي . والرجز ثلاثة أبيات في اللسان . ونسبه الأصمعي لعمارة بن طارق . وقال أبو عبيدة : هو لعقبة الهجيمي . وقوله (ليس) : كذا في (اللسان : مسد) ، وأعاده في (حقق) : (لسن) بالنون . وهو الصواب .

فى رواية أبى صالح : « فِى جِيدِها حَبْلٌ مِن مَسَدٍ » قال : سلسلة ذَرْعُها سبعون ذراعا — وقاله مجاهد وعروة بن الزبير : تَدْخُل مِنْ فيها ، وتَخْرُج من أسفلها ، ويُلْوَى سائرُها على عنقها . وقال قتادة . « حَبْل مِن مَسَدٍ » قال : قِلادة من وَدَع . الوَدَع : خرز بيض تخرج من البحر ، تتفاوت فى الصغر والكبر . قال الشاعر :

* والحِلم حِلْمُ صبىٍّ يَمْرِثُ الوَدَعَهْ[1] *

والجمع : وَدَعات . الحسن : إنما كان خَرَزا فى عنقها . سعيد بن المسيب : كانت لها قِلادة فاخرة من جوهر ، فقالت : واللاتِ والعُزَّى لأُنفقنها فى عداوة محمد . ويكون ذلك عذابا فى جيدها يوم القيامة . وقيل : إن ذلك إشارة إلى الخِذلان ، يعنى أنها مربوطة عن الإيمان بما سبق لها من الشقاء ، كالمربوط فى جيده بحبل من مسد . والمَسَد : الفتل . يقال : مَسَد حَبْلَه يَمْسِده مَسْدًا ؛ أى أجاد فتله . قال[2] :

* يَمْسِد أَعْلَى لحمِهِ ويأْرِمُهْ *

يقول : إن البقل يقوّى ظهر هذا الحمار ويشدّه . ودابة مَمْسودة الخَلْق : إذا كانت شديدة الأَسْر[3] . قال الشاعر :

ومَسَدٍ أُمِرَّ مِنْ أَيَانِقِ * صُهْبٍ عِتَاقٍ ذاتِ مُخٍّ زاهِقِ
* لَسْنَ بأنيابٍ ولاَ حقَائِقِ[4] *

ويروى :

* ولا ضعافٍ مُخُّهُنَّ زاهِقِ *

قال الفراء : هو مرفوع والشعر مُكْفأ[5] . يقول : بل مخهن مكتنز ، رفعه على الابتداء . قال : ولا يجوز أن يريد ولاضعافٍ زاهقٍ مخهنّ . كما لا يجوز أن تقول : مررت برجل أبوه قائمٍ ؛

---

(١) مرث الودع يمرثه مرثا : مصه . (٢) هو رؤبة . (٣) الأسر : الخلق .

(٤) أمرّ الحبل : فتله فتلا شديدا . والأيانق : جمع ناقة . والصهب : جمع الأصهب ، هو بعير ليس بشديد البياض . وعتاق : جمع عتيق وهو الكريم . وزهق المخ : إذا اكتنز (اجتمع) لحمه ؛ فهو زاهق . (٥) الإكفاء فى الشعر : المخالفة بين ضروب إعراب قوافيه . ومن الإكفاء أيضا المخالفة بين هجاء قوافيه إذا تقاربت مخارج الحروف أو تباعدت .

بالخفض . وقال غيره : الزاهق هنا : بمعنى الذاهب ؛ كأنه قال : ولا ضعافٍ مُخُهُنّ ، ثم ردّ الزاهق على الضعاف . ورجل ممسود : أي مجدول الخلق . وجارية حسنة المَسْد والعَصْب والجَدْل والأَرْم[(١)] ؛ وهي ممسودة ومعصوبة ومجدولة ومَأرومة . والمِساد[(٢)] ، على فِعال : لغة في المِسَاب ، وهي نِحي السمن ، وسِقاء العسل . قال جميعه الجوهري . وقد ٱعترِض فقيل : إن كان ذلك حبلها الذي تحتطب به ، فكيف يبقى في النار ؟ وأجيب عنه بأن الله عزّ وجلّ قادر على تجديده كلما احترق . والحكم ببقاء أبي لهب وٱمرأته في النار مشروط ببقائهما على الكفر إلى الموافاة[(٣)] ؛ فلما ماتا على الكفر صدق الإخبار عنهما . ففيه معجزة للنبيّ صلى الله عليه وسلم . فٱمرأته خنقها الله بحبلها ، وأبو لهب رماه الله بالعَدَسة[(٤)] بعد وقعة بدر بسبع ليال ، بعد أن شجّته أم الفضل[(٥)] . وذلك أنه لما قدم الحَيْسُمانُ مكّة يخبر خبر بدر ، قال له أبو لهب : أَخبرني خبر الناس . قال : نعم ، والله ما هو إلا أن لقينا القوم ، فمنحناهم أكتافنا ، يضعون السلاح منا حيث شاءوا ، ومع ذلك ما لَمَسْتُ الناس . لقينا رجالا بِيضًا على خيل بُلْق ، لا والله ماتُبْقِي منا ؛ يقول : ما تُبْقِي شيئا . قال أبو رافع : وكنت غلاما للعباس أَنحت الأَقداح في صُفَّة زمزم ، وعندي أم الفضل جالسة ، وقد سرنا ماجاءنا من الخبر ، فرفعت طُنُبَ الحجرة ، فقلت : تلك والله الملائكة . قال : فرفع أبو لهب يده ، فضرب وجهي ضَرْبة مُنْكَرة ، وثَاوَرْتُه[(٦)] ، وكنت رجلا ضعيفا ، فٱحتملني ، فضرب بي الأرض ، وبَرَك على صدري يضربني . وتقدّمت أم الفضل إلى عمود من عُمُد الحُجْرة ، فتأخذه وتقول : استضعفتَه أن غاب عنه سيده ! وتضربه بالعمود على رأسه فتفلِقُه شَجَّةً مُنْكَرة . فقام يجر رجليه ذليلا ، ورماه الله بالعَدَسة ، فمات ، وأقام ثلاثة أيام لم يُدْفن حتى أنتن ؛ ثم إن ولده غسّلوه بالماء ، قَذْفا من بعيد ، مخافة عَدْوَى العَدَسة . وكانت قريشٌ تَتَّقيها كما يُتَّقَى الطاعون . ثم احتملوه إلى أعلى مكة ، فأسندوه إلى جدار ، ثم رضموا[(٧)] عليه الحجارة .

---

(١) أي مجدولة الخلق . (٢) وقد يهمز فيقال مسأب ، كمنبر . (٣) كذا في الأصول والظاهر أن اللفظ محرف عن (الوفاة) . (٤) العدسة : بثرة تخرج بالبدن فتقتل . (٥) هي لبابة الكبرى بنت الحارث بن حزن الهلالية ، أخت ميمونة أم المؤمنين . (٦) المثاورة : المواثبة . (اللسان : ثور) .

(٧) رضموا : أي جعلوا الحجارة بعضها على بعض .

سورة « الإخلاص »

مكّية ؛ فى قول ابن مسعود والحسن وعطاء وعكرمة وجابر . ومدنيـة ؛ فى أحد قولى ابن عباس وقتادة والضحاك والسُّدّى . وهى أربع آيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ أى الواحد الوِتر، الذى لا شبيه له ، ولا نظير ولا صاحبة ، ولا ولد ولا شريك . وأصل « أَحَدٌ » : وَحَدٌ ؛ قُلبت الواو همزة . ومنه قول النابغة[(١)] :

* بذى الجَليلِ على مُسْتَأْنِسٍ وَحَدِ *

وقد تقدّم فى سورة « البقرة » الفرق بين واحِد وأَحَد ، وفى كتاب « الأَسْنَى ، فى شرح أسماء الله الحسنى » أيضا مُسْتَوفًى . والحمدُ لله . و « أَحَدٌ » مرفوع، على معنى : هو أَحَدٌ . وقيل : المعنى : قل : الأمرُ والشأن : اللهُ أَحَد . وقيل : « أَحَد » بدل من قوله : « الله » . وقرأ جماعة « أَحَدُ اللهُ » بلا تنوين، طلبا للخفة، وفرارا مِن التقاء الساكنين؛ ومنه قول الشاعر :

* ولا ذاكرَ اللهَ إلّا قَلِيــلَا[(٢)] *

(١) صدر البيت كما فى معلقته :

* كأن رحلى وقد زال النهار بنا *

و « ذو الجليل » مكان ينبت الجليل ، وهو الثمام . والثمام : نبت ضعيف قصير لا يطول .

(٢) هذا عجز بيت لأبى الأسود الدؤلى . وصدره :

* فألفيته غير مستعتب *

﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ أى الذى يُصْمَد إليه فى الحاجات . كذا رَوَى الضحاك عن آبن عباس، قال : الذى يُصْمَد إليه فى الحاجات ؛ كما قال عز وجل : « ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ »[1] . قال أهل اللغة : الصمد : السيد الذى يُصْمد إليه فى النوازل والحوائج . قال :

أَلَا بَكَّرَ الناعِى بِخيرِ بَنِى أَسَدْ[2] * بعمرِو بنِ مَسْعُودٍ وبالسيدِ الصَّمَدِ

وقال قوم : الصَّمَدُ : الدائم الباقى، الذى لم يزل ولا يزال . وقيل : تفسيره ما بعده « لَمْ يَلِدْ ولم يُولَدْ » . قال أُبَىُّ بنُ كَعْب : الصَّمَدُ : الذى لا يَلِدُ ولا يُولَد، لأنه ليس شىء إلا سيموت، وليس شىء يموت إلا يُورث . وقال علىّ وآبن عباس أيضا وأبو وائل شقيق بن سلمة وسفيان : الصَّمَد : هو السيد الذى قد آنتهى سُودَدُه فى أنواع الشرف والسُّودَد؛ ومنه قول الشاعر :

عَلَوتُه بحُسامٍ ثُمَّ قُلتُ لَهُ * خُذْهاحُذَيفَ فأنتَ السَّيِّدُ الصَّمَدُ

وقال أبو هريرة : إنه المستغنى عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد . وقال السدّى : إنه : المقصود فى الرغائب ، والمستعان به فى المصائب . وقال الحسين بن الفضل : إنه : الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . وقال مقاتل : إنه : الكامل الذى لا عيب فيه؛ ومنه قول الزبرقان :

سِيروا جميعًا بِنِصفِ الليلِ واعتمِدُوا * ولا رَهِينَةَ إلا سَيِّدٌ صَمَدُ

وقال الحسن وعِكرمة والضحاك وآبن جُبير : الصَّمَد : المُصْمَتُ الذى لا جَوْفَ له[3] ؛ قال الشاعر :

شِهابُ حُروبٍ لا تَزالُ جِيادُه * عَوابِسَ يَعْلُكْنَ الشَّكِيمَ المُصَمَّدا[4]

قلت : قد أتينا على هذه الأقوال مبينة فى الصَّمَد، فى (كتاب الأسنى) وأن الصحيح منها ما شهد له الاشتقاق ؛ وهو القول الأوّل، ذكره الخَطَّابى . وقد أسقط مِن هذه السورة من أبعده الله وأخزاه، وجعل النار مقامه ومثواه، وقرأ «اللهُ الواحدُ الصَّمَدُ» فى الصلاة، والناس يستمعون، فأسقط : « قُلْ هو » ، وزعم أنه ليس من القرآن . وغيَّر لفظ « أَحَد » ، وآدعى أن هذا

---

(١) آية ٥٣ سورة النحل . (٢) ويروى : بخيرى . وهو الصواب ، لأنه ذكر بعده اثنين .

(٣) وهذا لا يجوز على الله تعالى . (٤) علكت الدابة اللجام تعلكه (من باب قتل) علكا : لاكته وحركته . والشكيم والشكيمة : الحديدة المعترضة فى فم الفرس .

هو الصواب، والذى عليه الناس هو الباطل والمحال ؛ فأبطل معنى الآية ؛ لأن أهل التفسير قالوا : نزلت الآية جوابا لأهل الشرك لما قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : صِفْ لَنَا رَبَّكَ ، أمِن ذهب هو أم مِن نحاس أم مِن صُفْر ؟ فقال الله عز وجل ردا عليهم : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » . ففى « هُوَ » دلالة على موضع الرّد، ومكان الجواب، فإذا سقط بطل معنى الآية، وصح الافتراء (١) على الله عز وجل، والتكذيب لرسوله صلى الله عليه وسلم . وروى الترمذى عن أُبىّ بن كعب : أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : انْسُبْ لنا ربك ؛ فأنزل الله عز وجل : « قل هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ » . والصَّمَد : الذى لم يلد ولم يُولَد ؛ لأنه ليس شىء يولد إلا سيموت، وليس شىء يموت إلا سيورَث، وأن الله تعالى لا يموت ولا يورث . ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا (٢) أَحَدٌ ﴾ : قال : لم يكن له شبيه ولا عدْل، وليس كمثله شىء . ورُوِى عن أبى العالية : إن النبىّ صلى الله عليه وسلم ذكر آلهتهم فقالوا : انْسُب لنا رَبّك . قال : فأتاه جبريل بهذه السورة « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » ، فذكر نحوه ، ولم يذكر فيه عن أُبىّ بن كعب ، وهذا أصح ؛ قاله الترمذىّ .

قلت : ففى هذا الحديث إثبات لفظ « قُل هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » وتفسير الصَّمَد ، وقد تقدّم. وعن عكرمة نحوه . وقال ابن عبـاس : « لَمْ يَلِدْ » كما وَلَدَتْ مَرْيَم ، ولم يُولد كما وُلِدَ عيسى وعُزَيرٌ . وهو رد على النصارى ، وعلى من قال : عُزَيرٌ ابن الله . « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » أى لم يكن له مِثلا أحد . وفيه تقديم وتأخير ؛ تقديره : ولم يكن له كفوا أحد ؛ فقدّم خبر كان على اسمها، لينساق أواخرُ الآى على نظم واحد . وقرِئ « كُفُوا » بضم الفاء وسكونها. وقد تقدّم فى « البقرة » أن كل اسم على ثلاث أحرف أوّله مضموم، فإنه يجوز فى عينه الضم والإسكان (٣) ؛ إلا قوله تعـالى : « وجعلوا له مِن عِبادِهِ جُزْءًا (٤) » لِعلة تقدّمت . وقرأ حفص « كفوا » مضموم الفاء غير مهموز . وكلها لغات فصيحة .

---

(١) فى نسخة من الأصل : « فأسقط آية وأبطل المعنى وصحف ، افتراء على الله عز وجل ... » الخ .

(٢) بالهمزة قراءة نافع ، وهى قراءة المؤلف . (٣) راجع جـ ١ ص ٤٤٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٤) آية ١٥ سورة الزخرف ، راجع جـ ١٦ ص ٦٩

القول فى الأحاديث الواردة فى فضل هذه السورة ؛ وفيه ثلاث مسائل :

الأولى — ثبت فى صحيح البخارى عن أبى سعيد الخُدْرى : أن رجلا سمع رجلا يقرأ « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » يردّدها ؛ فلما أصبح جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فذكر ذلك له، وكان الرجل يَتَقَالُّها(١)؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثُلُثَ القُرْآن " . وعنه قال قال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه : " أيعجِز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة " فشَقّ ذلك عليهم ، وقالوا : أينا يطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال : " اللهُ الواحدُ الصَّمد(٢) ثُلُثُ القرآن " خرجه مسلم من حديث أبى الدرداء بمعناه . وخرج عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " احْشِدوا(٣) فإنى سأقرأ عليكم ثلثَ القُرْآن"، فحشَدَ(٤) مَنْ حَشَد ؛ ثم خرج نبى الله صلى الله عليه وسلم فقرأ « قُلْ هُوَ اللهُ أحد » ثم دخل، فقال بعضنا لبعض : إنى أرى هذا خبرا جاءه من السماء ، فذاك الذى أدخله . ثم خرج فقال : " إنى قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، أَلَا إنها تَعْدِل ثلثَ القرآن " قال بعض العلماء : إنها عَدَلَت ثلث القرآن لأجل هذا الاسم ، الذى هو « الصَّمَد » ، فإنه لا يوجد فى غيرها من السُّور . وكذلك « أَحَدٌ » . وقيل : إن القرآن أنزل أثلاثا ، ثلثا منه أحكام، وثلثا منه وعد ووعيد ، وثلثا منه أسماء وصفات؛ وقد جمعت « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » [أحَدَ(٥)] الأثلاث ، وهو الأسماء والصِّفات . ودل على هذا التأويل ما فى صحيح مسلم ، من حديث أبى الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : " إن اللهَ جلّ وعز جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » جزءا من أجزاء القرآن " . وهذا نَصٌّ؛ وبهذا المعنى سميت سورة الإخلاص، والله أعلم .

الثانية — روى مسلم عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا على سَرِيَّة، وكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم، فيختم بـ« قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » ؛ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبى صلى

---

(١) أى يعتقد أنها قليلة فى العمل لا فى التنقيص . (٢) فى شرح العينى على البخارى فى فضائل القرآن : «قوله الله الواحد الصمد : كناية عن قل هو الله أحد» . (٣) من باب قتل وضرب . ويستعمل متعدّيا ولازما . (٤) أى اجتمع من اجتمع . (٥) زيادة عن الخطيب .

الله عليه وسلم فقال : " سَلُوهُ لأيِّ شَيء يصْنع ذلك " ؟ فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن ، فأنا أحِبُّ أن أقرأ بها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أخبروه أن الله عز وجل يحبه " . وروى الترمذيّ عن أنس بن مالك قال : كان رجل من الأنصار يؤمّهم فى مسجد قُباء ، وكان كلما ٱفتتح سورة يقرؤها لهم فى الصلاة فقرأ بها ، ٱفتتح بـ « قُلْ هو الله أحد » ؛ حتى يفرغ منها ، ثم يقرأ بسورة أخرى معها ، وكان يصنع ذلك فى كل ركعة ؛ فكلمه أصحابه ، فقالوا : إنك تقرأ بهذه السورة ، ثم لا ترى أنها تجْزيك حتى تقرأ بسُورة أخرى ، فإما أن تقرأ بها ، و إما أن تدعها وتقرأ بسورة أخرى ؟ قال : ما أنا بتاركها و إن أحببتم أن أؤمّكم بها فعلت ، و إن كرهتم تركتكم ؛ وكانوا يرونه أفضلهم ، وكرهوا أن يؤمّهم غيره ؛ فلما أتاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم أخبروه الخبر ، فقال : " يافلان ما يمنعك مما يأمر به أصحابك ؟ وما يحملك أن تقرأ هذه السورة فى كل ركعة " ؟ فقال : يارسول الله ، إنى أحبها ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ حُبَّها أدْخَلَكَ الجنَّةَ " قال : حديث حسن غريب صحيح . قال ٱبن العربيّ : « فكان هذا دليلا على أنه يجوز تكرار سورة فى كل ركعة . وقد رأيت على باب الأسباط فيما يقرب منه ، إماما من جملة الثمانية والعشرين إماما ، كان يصلى فيه التراويح فى رمضان بالأتراك ؛ فيقرأ فى كل ركعة « الحمد لله » و « قل هو الله أحد » حتى يتم التراويح ؛ تخفيفا عليه ، ورغبة فى فضلها وليس من السنة ختم القرآن فى رمضان » .

قلت : هذا نص قولِ مالك ، قال مالك : وليس ختم القرآن فى المساجد بسنة .

الثالثة — روى الترمذيّ عن أنس[1] بن مالك قال : أقبلت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فسمع رجلا يقرأ « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وجبت " . قلت : وما وجبت ؟ قال : " الجنة " . قال : هذا حديث حسن صحيح[2] . قال الترمذي :

(١) الرواية فى الترمذى عن أبى هريرة .

(٢) فى الترمذى : « حسن غريب » .

حدّثنا محمد بن مرزوق البصري قال حدّثنا حاتم بن ميمون أبو سهل عن ثابت البُنَانِي عن أنس ابن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من قرأ كل يوم مائتي مرة قل هو الله أحد، مُحِيَ عنه ذنوب خمسين سنة ، إلا أن يكون عليه دين " . وبهذا الإسناد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من أراد أن ينام على فراشه، فنام على يمينه، ثم قرأ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) مائة مرة، فإذا كان يومَ القيامة يقول الرب: يا عبدي، ادخل على يمينك الجنة ". قال: هذا حديث غريب من حديث ثابت عن أنس. وفي مسند أبي محمد الدارمي، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) خمسين مرة، غفرت له ذنوب خمسين سنة" قال: وحدّثنا عبد الله بن يزيد قال حدّثنا حَيْوة قال: أخبرني أبو عَقيل: أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : إن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد) عشر مرات بُنِي له قصر في الجنة . ومن قرأها عشرين مرة بُنِي له بها قصران في الجنة . ومن قرأها ثلاثين مرة بُنِي له بها ثلاثة قصور في الجنة " . فقال عمر بن الخطاب : والله يا رسول الله إذًا لَنُكْثِرَنّ قصورنا؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله أوسع من ذلك " قال أبو محمد : أبو عقيل زُهْرة بن معبد ، وزعموا أنه كان من الأبدال . وذكر أبو نعيم الحافظ من حديث أبي العلاء يزيد بن عبدالله بن الشِّخِّير عن أبيه؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ قَرَأَ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ في مرضه الذي يموت فيه، لم يُفْتَن في قبره. وأمِن من ضغطةِ القبر. وحملته الملائكة يوم القيامة بأكفها، حتى تجيزه من الصراط إلى الجنة". قال: هذا حديث غريب من حديث يزيد، تفرد به نصر بن حماد البَجَلي. وذكر أبو بكر أحمد بن علي ابن ثابت الحافظ عن عيسى بن أبي فاطمة الرازي قال سمعت مالك بن أنس يقول: إذا نُقِس بالناقوس اشتدّ غضب الرحمن، فتنزل الملائكة، فيأخذون بأقطار الأرض، فلا يزالون يقرءون « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » حتى يسكُن غضبُه جل وعز . وخَرّج من حديث محمد بن خالد الجَنَدِي عن مالك عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من دخل يوم الجمعة

المسجد، فصلى أربع ركعات يقرأ فى كل ركعة بفاتحة الكتاب و (قل هو الله أحد) خمسين مرة فذلك مائتا مرة فى أربع ركعات ، لم يَمُتْ حتى يرى منزله فى الجنة أو يُرَى له " » . وقال أبو عُمر مولى جرير بن عبد الله البجلِيّ، عن جرير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ (قُلْ هُوَ اللّٰهُ أَحَدٌ) حين يدخل منزله ، نفت الفقر عن أهل ذلك المنزِل وعن الجيران". وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ قل هو الله أحد مرة بورِك عليه، ومن قرأها مرتين بورك عليه وعلى أهله ، ومن قرأها ثلاث مرات بورك عليه وعلى جميع جيرانه ، ومن قرأها اثنتى عشرة بنى الله له اثنى عشر قصرا فى الجنة ، وتقول الحفظة انطلقوا بنا ننظر إلى قصر أخينا ، فإن قرأها مائة مرة كفّر الله عنه ذنوب خمسين سنة ، ماخلا الدماء والأموال ، فإن قرأها أربعمائة مرة كفر الله عنه ذنوب مائة سنة ، فإن قرأها ألف مرة لم يمت حتى يرى مكانه فى الجنة أو يرى له " . وعن سهل بن سعد الساعدى قال : شكا رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقر وضيق المعيشة ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا دخلتَ البيت فسلِّمْ إن كان فيه أحد ، و إن لم يكن فيه أحد فسلم علىّ ، واقرأ (قُلْ هُوَ اللّٰهُ أَحَدٌ) مرة واحدة " ففعل الرجل فأدرّ الله عليه الرزق ، حتى أفاض عليه جيرانه . وقال أنس : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بتَبُوكَ ، فطلعت الشمس بيضاء لها شعاع ونور ، لم أرها فيما مضى طلعت قط كذلك ، فأتى جبريل ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ياجبريلُ ، مالى أرى الشمس طلعت بيضاء بشعاع لم أرها طلعت كذلك فيما مضى قط " ؟ فقال : " ذلك لأن معاوية بن معاوية الليثى توفى بالمدينة اليوم ، فبعث الله سبعين ألف ملك يُصَلُّون عليه " . قال : " ومِمَّ ذلك " ؟ قال : " كان يكثر قراءة (قُلْ هُوَ اللّٰهُ أَحَدٌ) آناء الليل وآناء النهار ، وفى ممشاه وقيامه وقعوده ، فهل لك يارسول الله أن أقبض لك الأرض ، فتصلى عليه " ؟ قال " نعم " فصلى عليه ، ثم رجع . ذكره الثعلبي ، والله أعلم .

تفسير سورة « الفلق »

وهى مكية ؛ فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . ومدنية ؛ فى أحد قولى ٱبن عباس وقتادة . وهى خمس آيات .

وهذه السورة وسورة «الناس» و«الإخلاص» : تعوّذ بهنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سحرته اليهود ؛ على ما يأتى . وقيل : إن المُعَوِّذَتَيْنِ كان يقال لهما المقشقشتان؛ أى تُبْرِئان من النفاق . وقد تقدم . وزعم ٱبن مسعود أنهما دعاء تعوّذ به، وليستا من القرآن؛ خالف به الإجماع من الصحابة وأهل البيت . قال ٱبن قتيبة : لم يكتب عبد الله بن مسعود فى مصحفه المعوذتين ؛ لأنه كان يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوّذ الحسن والحسين ــ رضى الله عنهما ــ بهما ، فقدّر أنهما بمنزلة : أعيذ كما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة . قال أبو بكر الأنبارى : وهذا مردود على ٱبن قتيبة ؛ لأن المعوذتين من كلام رب العالمين ، المعجز لجميع المخلوقين ؛ و«أعيذ كما بكلمات الله التامة» من قول البشر بَيِّن . وكلام الخالق الذى هو آية لمحمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وحجة له باقية على جميع الكافرين ، لا يلتبس بكلام الآدميين ، على مثل عبد الله بن مسعود الفصيح اللسان ، العالم باللغة ، العارف بأجناس الكلام ، وأفانين القول . وقال بعض الناس : لم يكتب عبدالله المعوذتين لأنه أمن عليهما من النسيان ، فأسقطهما وهو يحفظهما ؛ كما أسقط فاتحة الكتاب من مصحفه ، وما يُشَكُّ فى حفظه وإتقانه لها . فردّ هذا القول على قائله ، وٱحتج عليه بأنه قد كتب : « إذا جاء نصر الله والفتح » ، و « إنا أعطيناك الكوثر » ، و « قل هو الله أحد» وهن يجرين مجرى المعوذتين فى أنهن غير طوال ، والحفظ إليهن أسرع ، ونسيانُهن مأمون ، وكلهن يخالف فاتحة الكتاب ؛ إذ الصلاة لا تتم إلا بقراءتها . وسبيل كل ركعة أن تكون المقدّمة فيها قبل ما يُقْرأ من بعدها ، فإسقاط فاتحة الكتاب من المصحف ، على معنى الثقة ببقاء حفظها ، والأمن من نسيانها ، صحيح ، وليس من السور ما يجرى فى هذا المعنى مجراها ، ولا يُسْلك به طريقها . وقد مضى هذا المعنى فى سورة « الفاتحة » (١) . والحمد لله .

(١) راجع جـ ١ ص ١١٤ طبعة أو ثالثة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى — روى النسائيّ عن عقبة بن عامر، قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو راكب، فوضعت يدى على قدمه، فقلت : أقرئني سورة [هُودٍ][1] أقرئني سورة يوسف . فقال لى : " ولَنْ تَقرأ شيئا أبلغ عند الله من « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ » " وعنه قال: بينا أنا أسير مع النبيّ صلى الله عليه وسلم بين الجُحْفَة والأَبواءِ، إذ غشِيَتنا ريح مظلمة شديدة، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوّذ بـ«أعوذُ برب الفَلَقِ»، و «أعوذُ بِرَبِّ الناس»، ويقول: " يا عقبة، تعوّذ بهما، فما تعوّذ متعوّذ بمثلهما ". قال : وسمعته يقرأ بهما فى الصلاة . وروى النّسائى عن عبد الله قال : أصابنا طَشٌّ[2] وظُلْمة، فانتظرنا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يَخْرُج[3]. ثم ذكر كلاما معناه : فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم [لِيُصَلِّيَ بنا][4]، فقال : " قُلْ ". فقلت : ما أقول ؟ قال : " قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ والمعوذتين حين تمسى، وحين تصبح ثلاثا، يكفِك كل شىء" وعن عقبة بن عامر الجُهَني قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قُلْ ". قلت : ما أقول ؟ قال قل : " قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . قُلْ أعوذُ بِرَبِّ الفلق . قُلْ أعوذُ بِرَبِّ النـاس — فقرأهن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال — لم يتعوّذ الناس بمثلهن، أو لا يتعوّذ الناس بمثلِهن". وفى حديث ابن عباس «قل أعوذ برب

(١) زيادة عن سنن النسائى . (٢) الطش (بفتح الطاء وتشديد الشين) : المطر الضعيف .

(٣) الذى فى سنن النسائى : « فانتظرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى بنا، ثم ذكر... الخ » .

(٤) زيادة عن سنن النسائى .

الفلقِ وقُلْ أعوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، هاتين السورتين » . وفى صحيح البخارى ومسلم عن عائشة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى قرأ على نفسه بالمُعَوِّذَتين و يَنْفِثُ ، فلما اشتدّ وجعه كنت أقرأ عليه ، وأمسح عنه بيده ، رجاءَ بركتها . النَّفْث : النفخ ليس معه ريق .

الثانيـــة — ثبت فى الصحيحين من حديث عائشة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سحره يهودىّ من يهود بنى زُرَيْق ، يقال له لَبِيدُ بن الأَعْصم ، حتى يخيلُ إليه أنه كان يفعل الشىء ولا يفعله ، فمكث كذلك ما شاء الله أن يمكث — فى غير الصحيح : سنة — ثم قال : "يا عائشة ، أُشْعِرت أن الله أفتانى فيما استفتيته فيه . أتانى ملكان ، فجلس أحدهما عند رأسى ، والآخر عند رِجلى ، فقال [الذى عند رأسى للذى عند رجلى] (1) : ما شأن الرجل ؟ قال : مطبوب (2) . قال ومَنْ طَبَّهَ ؟ قال لَبيد بن الأَعصم . قال فى ماذا ؟ قال فى مُشْطٍ ومُشاطة (3) وجُفّ (4) طلعةِ ذكر ، تحت راعوفة (5) فى بئر ذى أَرْوان (6) " . فجاء البئر واستخرجه . انتهى الصحيح . وقال ابن عباس (7) : " أما شَعَرْتِ يا عائشة أن الله تعالى أخبرنى بدائى " . ثم بعث عليا والزبير وعمار ابن ياسر ، فنزحوا ماء تلك البئر كأنه نقاعة الحناء ، ثم رفعوا الصخرة وهى الراعوفة — صخرة تترك أسفل البئر يقوم عليها المائح (8) ، وأخرجوا الجُفّ ، فإذا مُشَاطة رأس إنسان ، وأسنان من مُشْط ، و إذا وتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة مغرزة بالإبر ، فأنزل الله تعالى هاتين السورتين ، وهما إحدى عشرة آية على عدد تلك العُقَد ، وأمر أن يُتَعَوَّذ بهما ؛ فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ، ووجد النبيّ صلى الله عليه وسلم خِفّة ، حتى انحلت العقدة الأخيرة ، فكأنما أُنشط من عِقال ، وقال : ليس به بأس . وجعل جبريل يَرْقِى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : "باسم الله

---

(1) زيادة عن الصحيحين . (2) المطبوب : المسحور . (3) فى بعض نسخ الأصل و بعض كتب الحديث : «ومشاقة» بالقاف بدل الطاء ، وهو ما يستخرج من الكتان . والمشط : الآلة التى يمشط بها الشعر .

(4) الجف (بضم الجيم وتشديد الفاء) : الغشاء الذى يكون على الطلع و يطلق على الذكر والأنثى ؛ فلذا قيده بقوله « ذكر » .

(6) و يقال : « بئر ذروان » ، وهى بئر بالمدينة ، فى بستان بنى زريق .

(7) أى فى روايته . (8) فى بعض نسخ الأصل : « الماتح » بالتاء المثناة من فوق ، وهو المستق من البئر بالدلو . من أعلى البئر . أما المائح بالهمز فهو : الذى يكون فى أسفل البئر يملأ الدلو .

أَرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر حاسدٍ وعَين، والله يَشْفيك". فقالوا : يارسول الله، ألا نقتل الخبيث . فقال : "أمّا أنا فقد شفانِي الله، وأكره أن أثير على الناس شرًّا". وذكر القشيرى فى تفسيره أنه ورد فى الصِّحاح : أن غلاما من اليهود كان يخدُم النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فدسَّت (1) إليه اليهود ، ولم يزالوا به حتى أَخَذ مُشاطة رأس النبيّ صلى الله عليه وسلم . والمُشاطة (بضم الميم) : ما يسقُط من الشعر عند المشط . وأخذ عدّة من أسنان مُشْطه ، فأعطاها اليهود، فسحروه فيها ، وكان الذى تولى ذلك لَبيدُ بن الأَعْصم اليهوديّ . وذكر نحو ما تقدّم عن ٱبن عباس .

الثالثة — تقدّم فى البقرة القول فى السحر وحقيقته ، وما ينشأ عنه من الآلام والمفاسد، وحكم الساحر؛ فلا معنى لإعادته (2) .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ الفَلَق ﴾ ٱختُلف فيه ؛ فقيل : سِجن فى جَهنم ؛ قاله ٱبن عباس . وقال أُبَيّ بن كعب : بيت فى جهنم إذا فُتح صاح أهل النار من حره . وقال الحُبُليّ (3) أبو عبد الرحمن : هو ٱسم من أسماء جهنم . وقال الكلبي: واد فى جهنم . وقال عبد الله ابن عمر : شجرة فى النار . سعيد بن جبير : جُبٌّ فى النار . النحاس : يقال لما ٱطمأنّ من الأرض فَلَق ؛ فعلى هذا يصح هذا القول . وقال جابر بن عبد الله والحسن وسعيد بن جبير أيضا ومجاهد وقتادة والقُرَظيّ وٱبن زيد : الفَلَق، الصُّبْح . وقاله ٱبن عباس . تقول العرب: هو أبين من فَلَقِ الصُّبْح وفَرَق الصبح . وقال الشاعر :

يا ليلةً لم أَنَمْها بِتُّ مُرْتَفِقا (4) * أَرْعَى النجومَ إلى أَنْ نَوَّرَ الفَلَقُ

وقيل : الفلق : الجبال والصخور تنفلق بالمياه؛ أى تتشقق . وقيل : هو التفليق بين الجبال والصخور ؛ لأنها تتشقق من خوف الله عز وجل . قال زهير :

ما زِلْتَ أَرْمُقُهُم حتى إذا هَبَطَتْ * أيدى الرِّكابِ بِهِمْ من راكِسٍ فَلَقَا

(1) فى نسخة : فدنت .
(2) راجع ج ٢ ص ٤٣ فما بعدها طبعة ثانية .
(3) هو عبد الله بن يزيد المعافرى .
(4) المرتفق : المتكىء على مرفق يده .

الراكس : بطن الوادى . وكذلك هو فى قول النابغة :

* أَتانِى ودُونِى راكِسٌ فالضَّواجِعُ[1] *

والراكس أيضا : الهادى، وهو الثور وسط البَيْدَر[2]، تدور عليه الثِّيران فى الدِّياسة . وقيل : الرحم تنفلق بالحيوان . وقيل : إنه كل ما انفلق عن جميع ما خَلَق من الحيوان والصبح والحبّ والنَّوَى ، وكل شيء من نبات وغيره ؛ قاله الحسن وغيره . قال الضحاك : الفَلَقُ الخَلْق كُلُّه ؛ قال :

وَسْوَسَ يَدْعُو مُخْلِصًا رَبَّ الْفَلَقْ * سِرًّا وقد أَوَّنَ تَأْوِينَ العُقُقْ[3]

قلت : هذا القول يشهد له الاشتقاق؛ فإن الفَلْق الشق . فَلَقْت الشيء فلقا أى شققته . والتفليق مثله . يقال : فَلَقتــه فانفلق وتَفَلَّق . فكل ما انفلق عن شيء من حيوان وصبح وحب ونَوًى وماء فهــو فَلَق؛ قال الله تعالى : « فالِقُ الإصباحِ »[4] قال : « فالِقُ الحَبِّ والنَّوَى »[5] . وقال ذو الرمة يصف الثور الوَحْشِىّ :

حَتَّى إذَا ما انْجَلَى[6] عن وجهِه فَلَقٌ * هادِيهِ فى أُخْرَيَاتِ اللَّيلِ مُنْتَصِبُ

يعنى بالفلق هنا : الصبح بعينه . والفلق أيضا : المطمئن من الأرض بين الرَّبْوتين، وجمعه : فُلْقان؛ مثل خَلَق وخُلْقان. وربما قالوا : كان ذلك بفالق كذا وكذا؛ يريدون المكان المنحدر

---

(١) صدر البيت : * وعيد أبى قابوس فى غير كنهه *
والضواجع : جمع ضاجعة ، وهى منحنى الوادى .

(٢) البيدر : الموضع الذى يداس فيه الحبوب . (٣) ورد هذا البيت فى الأصول محرفا . وهو من أرجوزة رؤبة بن العجاج التى مطلعها : * وقاتم الأعماق خاوى المخترق *
وقوله : « أون » أى أكل وشرب حتى امتلأ بطنه . والعقق : جمع عقوق كرسول ورسل وهى التى تكامل حملها ، وقرب ولادها . وصف صائدا لما أحس بالصيد — وهى الأتن التى وردت الماء فشربت حتى امتلأت خواصرها — وأراد رؤبة : وسوس نفسه بالدعاء حذر الخيبة . (٤) آية ٩٦ سورة الأنعام . (٥) آية ٩٥ سورة الأنعام .

(٦) كذا فى الأصول واللسان . والذى فى الديوان : « ماجلا » . وقال ابن برى : الرواية الصحيحة :

* حتى إذا ما جلا عن وجهه شفق *

وقوله تعالى « هاديه » أى أوله ؛ مأخوذ من الهادى، وهو مقدّم العنق .

بين الربوتين . والفَلَق أيضا مِقطرة السّجان[1] . فأما الفِلْق (بالكسر) : فالداهية والأمر العجب ؛ تقول منه : أفلق الرجل وٱفتلق . وشاعر مُفْلِق ، وقد جاء بالفِلْق [أى بالداهية] . والفِلْق أيضا : القضيب يُشَقّ باثنين ، فيعمل منه قَوْسان ؛ يقال لكل واحدة منهما فِلْق . وقولهم : جاء بعُلَق فُلَق ؛ وهى الداهية ؛ لا يُجرى [مُجرَى عُمر][2] . يقال منه : أعلقت وأفلقت ؛ أى جئت بعُلَق فُلَق . ومرّ يفتلق فى عدوه ؛ أى يأتى بالعجب من شدّته .

وقوله تعـالى : ﴿ مِن شرِ ما خَلَق ﴾ قيل : هو إبليس وذريته . وقيل جهنم . وقيل: هو عامّ ؛ أى من شر كل ذى شر خلقه الله عز وجل .

الخامســة — قوله تعـالى : ﴿ ومِنْ شَرِّ غاسِقٍ إذَا وَقَبَ ﴾ ٱختُلف فيه ؛ فقيل : هو الليـل . والغَسَق : أوّل ظلمة الليل ؛ يقـال منه : غَسَقَ الليـلُ يَغْسِق أى أظلم . قال [ٱبن] قيس الرقيات :

إنَّ هـذَا الليلَ قد غَسَـقا * واشتكَيْتُ الهَمَّ والأَرَقا

وقال آخـــر :

ياطيفَ هِندٍ لقَدْ أَبقَيت لِى أَرَقًا * إذْ جِئتنا طارِقًا والليلُ قَـدْ غَسَقَا

هذا قول ٱبن عباس والضحاك وقتادة والسُّدّى وغيرهم . و « وَقَبَ » على هذا التفسير: أظلم ؛ قاله ٱبن عباس . والضحاك : دَخَلَ . قتادة : ذَهَبَ . يمـانُ بن رِئاب : سَكَن . وقيل : نزل ؛ يقال : وَقَب العذاب على الكافرين ؛ نَزَلَ . قال الشاعر :

وَقَبَ العـذابُ عليهـمُ فكَأَنَّهُـمْ * لَحِقَتْهُـمُ نارُ السَّمُومِ فأُحْصِدُوا

وقال الزجاج : قيل الليل غاسق لأنه أبرد من النهار . والغاسق : البارد . والغَسَق : البرد ؛ ولأن فى الليل تخرج السِّباع من آجامها ، والهوامّ من أماكنها ، وينبعث أهل الشر على العيث

---

(١) المقطرة (بكسر الميم) : خشبة فيها خروق كل خرق على قدر سعة الساق يدخل فيها أرجل المحبوسين ؛ مشتق من قطار الإبل .

(٢) زيادة من اللسان مادة (علق) يقتضيها السياق . وفى الأساس مادة (فلق) : « وجاء بعلق » على التركيب كخمسة عشر .

والفساد . وقيل : الغاسق : الثُّرَيَّا ؛ وذلك أنها إذا سقطت كثرت الأسقام والطواعين ، وإذا طلعت آرتفع ذلك ؛ قاله عبد الرحمن بن زيد . وقيل : هو الشمس إذا غربت ؛ قاله آبن شهاب . وقيل : هو القمر . قال القُتَبِيّ : « إذا وَقَبَ » القمر : إذا دخل في ساهوره ، وهو كالغلاف له ، وذلك إذا خُسِفَ به . وكل شيء أسود فهو غَسَق . وقال قتادة : « إذا وَقَبَ » إذا غابَ . وهو أصح ؛ لأن في الترمذيّ عن عائشة : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم نظر إلى القمر، فقال: "يا عائشة، أستعيذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وَقَبَ". قال أبو عيسى : هـذا حديث حسن صحيح . وقال أحمد بن يحيى ثعلب عن آبن الأعرابي في تأويل هذا الحديث : وذلك أن أهل الرِّيَب يَتَحينون وَجبة القمر . وأنشد :

أراحـنِي اللهُ مِن أشياءَ أكرهُها　＊　منها العجوزُ ومنها الكلبُ والقمـرُ

هـذا يبـوحُ وهـذا يُستضاء بِه　＊　وهـذه ضِمْـرِزٌ قَـوَّامَةُ السَّحَـرِ [1]

وقيـل : الغاسق : الحيـة إذا لدغت . وكأن الغاسق نابُها ؛ لأن السم يغسق منـه ؛ أي يسيل . ووقب نابها : إذا دخل في اللديغ . وقيل : الغاسق : كل هاجم يضر، كائنا ما كان؛ من قولهم : غسقتِ القرحة : إذا جرى صديدُها .

السادسـة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي العُقَدِ ﴾ يعني الساحرات اللائي ينفُثْن في عُقَد الخيط حين يَرْقِينَ عليها . شبه النفخ كما يعمل من يرقي . قال الشاعر :

أعُـوذُ بِربِّي مِنَ　النَّافِثـا　＊　تِ في عِضـهِ العاضِـهِ المُعْضِـه [2]

وقال مُتَمِّم بن نُوَيْرة :

نَفَثَتْ في الخيـطِ شَبِيهَ الرُّقَى　＊　مِن خشية الجِنـةِ والحاسِـدِ

وقال عنـترة :

فإنْ يَـبْرأْ فَـلَمْ أنفُثْ عَلَيـهِ　＊　وإنْ يُفْقَـدْ فَحَقٌ لَهُ الفُقُـودُ

(١) الضمرز (كزبرج) : الناقة المسنة . ومن النساء الغليظة . وقد وردت هذه الكلمة في نسخ الأصل محرفة ، ففي بعضها « صمود » وفي بعضها الآخر : « ضمور» وهو تحريف . وفي البيت إقواء؛ وهو اختلاف حركات الروى .

(٢) العضه (كعنب) : الكذب والسحر والبهتان . والعاضه : الساحر .

السابعـــة — روى النّسائى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من عَقَد عُقدة ثم نَفَثَ فيها، فقد سَحَر، ومن سحر فقد أَشْرَك، ومَنْ تَعَلَّق[(1)] شيئا وُكِل إليه".
وٱختلِف فى النفْث عند الرُّقَى، فمنعه قوم، وأجازه آخرون . قال عكرمة : لا ينبغى للراقى أن ينفُث، ولا يمسح ولا يعقِد . قال إبراهيم : كانوا يكرهون النفث فى الرُّقَى . وقال بعضهم : دخلت على الضحاك وهو وجِع، فقلت: ألا أُعَوِّذُكَ يا أبا محمد؟ قال : بلى، ولكن لا تنفث؛ فعـوّذْتُه بالمعوذتين . وقال ٱبن جريج قلت لعطاء : القرآن يُنفَخ به أو يُنْفَثُ ؟ قال : لا شيء من ذلك ولكن تقرؤه هكذا . ثم قال بعد : ٱنفُث إن شئت . وسئل محمد بن سِيرين عن الرُّقية يُنْفث فيها، فقال : لا أعلم بها بأسا، وإذا ٱختلفوا فالحاكم بينهم السـنة . روت عائشة أن النبيّ صلى الله عليـه وسلم كان ينفِث فى الرُّقية؛ رواه الأئمـة، وقد ذكرناه أوّل السورة وفى (سُبْحان)[(2)] . وعن محمد بن حاطب أن يده ٱحترقت فأتت به أمه النبيّ صلى الله عليه وسلم، فجعل ينفُث عليها ويتكلم بكلام؛ زعم أنه لم يحفظه . وقال محمد بن الأشعث : ذُهِب بى إلى عائشة رضى الله عنها وفى عينيّ سوء، فرقَتْنِى ونَفَثَت .

وأما ما رُوى عن عكرمة من قوله : لا ينبغى للراقى أن ينفُث؛ فكأنه ذهب فيه إلى أن الله تعـالى جعل النفْث فى العُقَد ممـا يستعاذ به، فلا يكون بنفسه عُوذة . وليس هذا هكذا؛ لأن النفث فى العُقَـد إذا كان مذموما لم يجب أن يكون النفث بلا عُقَـد مذموما . ولأن النفث فى العُقَد إنمـا أريد به السحر المضِرّ بالأرواح، وهذا النفث لٱستصلاح الأبدان، فلا يقاس ما ينفع بمـا يضر . وأما كراهة عكرمة المسحَ فخلاف السنة . قال على رضى الله عنه : اشتكيت، فدخل علىّ النبيّ صلى الله عليه وسلم وأنا أقول : اللهـمّ إنْ كان أجلى قد حَضَر فأرِحنى، وإن كان متأخرا فٱشفنى وعافنى، وإن كان بلاء فصبرنى . فقال النبيّ صلى الله عليه

---

(1) أى من علق شيئا من التعاويذ والتمـائم معتقدا أنهـا تجلب إليه نفعا أو تدفع عنه ضررا . وقيـل : المراد تمـائم الجاهلية مثل الخرزات وأظفار السباع . أما ما يكون من القرآن والأسماء الإلهية فهو خارج عن هذا الحكم . (شرح سنن النسائى) .

(2) راجع جـ ١٠ ص ٣١٥ فـا بعدها .

وسلم : "كيف قلت" ؟ فقلت له . فمسحني بيده، ثم قال : "اللهم اشفه" فما عاد ذلك الوجع بعد . وقرأ عبد الله بن عمرو وعبد الرحمن بن سابط وعيسى بن عمر ورويس عن يعقوب « ومن شر النافثات » في وزن (فاعلات) . ورُويت عن عبد الله بن القاسم مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنهما . وروى أن نساء سحرن النبيّ صلى الله عليه وسلم في إحدى عشرة عقدة ؛ فأنزل الله المعوذتين إحدى عشرة آية . قال ابن زيد : كنّ من اليهود ؛ يعني السواحر المذكورات . وقيل : هنّ بنات لَبيد بن الأعصم .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ قد تقدم في سورة « النساء » (١) معنى الحسد، وأنه تمنى زوالِ نعمة المحسود وإن لم يصر للحاسد مثلها . والمنافسة هي تمني مثلها وإن لم تزل . فالحسدُ شرٌّ مذموم . والمنافسة مباحة وهي الغِبطة . وقد روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "المؤمن يَغبِطُ ، والمنافق يَحْسُد" . وفي الصحيحين : "لا حَسَدَ إلا في اثنتين" يريد لا غِبْطَةَ . وقد مضى في سورة « النساء » (٢) والحمد لله .

قلت : قال العلماء : الحاسد لا يضر إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول ، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود، فيَتْبَع مساوئه و يطلب عَثَراته . قال صلى الله عليه وسلم: "إذا حَسَدت فلا تَبغِ ..." الحديث . وقد تقدم . والحسد أول ذنب عُصي الله به في السماء، وأول ذنب عُصي به في الأرض، فحسد إبليس آدمَ ، وحسد قابيلُ هابيلَ . والحاسد ممقوت مبغوض مطرود ملعون . ولقد أحسن من قال :

قل للحسود إذا تنفّس طَعْنَةً * يا ظالمًا وكأنّهُ مَظْلُومُ

التاسعة — هذه سورة دالة على أن الله سبحانه خالق كل شر، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتعوّذ من جميع الشرور . فقال : « مِنْ شَرِّ ما خلَقَ » . وجعل خاتمة ذلك الحسد،

---

(١) معنى الحسد تقدم في سورة البقرة جـ ٢ ص ٧١ طبعة ثانية . وراجع أيضا سورة النساء جـ ٥ ص ٢٥١

(٢) هذا مذكور في سورة النساء . فليراجع .

تنبيها على عِظمه، وكثرة ضرره . والحاسد عدوّ نعمة الله . قال بعض الحكماء: بارزَ الحاسد ربه من خمسة أوجه : أحدها — أنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره . وثانيها — أنه ساخط لقسمة ربه ، كأنه يقول : لم قسمت هـذه القسمة ؟ وثالثها — أنه ضادّ فعل الله ، أى إن فضل الله يؤتيه من يشاء، وهو يَبخل بفضل الله . ورابعها — أنه خذل أولياء الله، أو يريد خذلانهم وزوال النعمة عنهم . وخامسها — أنه أعان عدوّه إبليس . وقيل : الحاسد لاينال فى المجالس إلا ندامة ، ولا ينال عند الملائكة إلا لَعنة و بغضاء ، ولا ينال فى الخلوة إلا جَزَعا وغما، ولا ينال فى الآخرة إلاحُزْنا واحتراقا، ولاينال من الله إلا بعدا ومقتا . ورُوى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " ثلاثة لا يُستجاب دعاؤهم : آكل الحرام ، ومُكثِر الغِيبة ، ومن كان فى قلبه غِلٌّ أو حسد للسلمين " . والله سبحانه وتعالى أعلم .

ســـورة « النـاس »

مِثل « الفلق » لأنها إحدى المعوذتين . وروى الترمذىّ عن عقبة بن عامر الجهنىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " لقد أنزل الله علىّ آيات لم يُرَ مِثلُهنّ : « قل أعوذُ بِرَبّ النـاسِ » إلى آخر السُّورة و « قُل أعوذُ بِرب الفلق » إلى آخر السورة " . قال : هذا حديث حسن صحيح . ورواه مسلم .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قُل أعوذُ بِربّ النّاسِ ﴾ أى مالكهم ومُصْلِح أمورهم . وإنما ذكر أنه رب الناس ، وإن كان ربا لجميع الخلق لأمرين : أحدهما — لأن الناس مُعَظَّمون ؛ فأَعْلَمَ بذكرهم أنه ربٌّ لهم وإن عظموا . الثانى — لأنه أمر بالاستعاذة من شرهم ؛ فأعلم بذكرهم

أنه هو الذي يعيذ منهم . وإنما قال : ﴿ مَلِكِ النَّاسِ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴾ لأن في الناس ملوكا يذكر أنه مَلِكُهُم ، وفي الناس من يعبد غيره ، فذكر أنه إلٰهُهم ومعبودهم ، وأنه الذي يجب أن يُستعاذ به ، ويُلْجأ إليه ، دون الملوك والعظماء .

قوله تعالى : مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾

يعني : مِن شر الشيطان . والمعنى : من شر ذي الوسواس ؛ فحذف المضاف ؛ قاله الفراء : وهو (بفتح الواو) بمعنى الاسم ؛ أي المُوسوِس . و (بكسر الواو) المصدر ؛ يعني الوسوسة . وكذا الزّلزال والزِّلزال . والوسوسة : حديث النفس . يقال : وسوست إليه نفسه وَسْوسة ووِسوَسَة (بكسر الواو) . ويقال لهمس الصائد والكلاب وأصوات الحُلِيّ : وسْواس . قال ذو الرمة :

فبـاتَ يُشْـئِزه ثَأْدٌ ويُسْهِـرُهُ * تَذَؤُّبُ الريحِ والوَسْواسُ والهِضَبُ [1]

وقال الأعشى :

تسمعُ للحَلْي وَسْواسا إذا انصرفت * كما استعانَ بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِـلُ [2]

وقيـل : إن الوسواس الخناس ابن لإبليس ، جاء به إلى حواء ، ووضعه بين يديها وقال : اكْفُليه . فجاء آدم [عليه السلام] [3] فقال : ما هـذا [يا حواء] [3] ! قالت : جاء عدونا بهذا وقال لي : اكْفُليه . فقال : ألم أقل لكِ لا تطيعيه في شيء ، هو الذي غرنا حتى وقعنا في المعصية؟ وعمد إلى الولد فقطعه أربعة أرباع ، وعلق كل ربع على شجرة ، غيظا له ؛ فجاء إبليس فقال : يا حـواء ، أين ابني ؟ فأخبرته بمـا صنع به آدم [عليه السـلام] فقال : يا خَنّاس ، فحيي فأجابه . فجاء به إلى حواء وقال : اكفليه ؛ فجاء آدم [عليه السلام] فحرّقه بالنار ، وذرّ رماده في البحر ؛ فجاء إبليس [عليه اللعنة] فقال : ياحوّاء ، أين ابني ؟ فأخبرته بفعل آدم إياه ؛ فذهب

---

(١) شئز الرجل : قلق من مرض أو هم . والثأد : الندى والقـر والأمر القبيح . وتذؤب الريح : هبوبها من كل وجه ، وهو مأخوذ من خداع الذئب . والهضب (بكسر الهاء) : الأمطار .

(٢) العشرق (كزبرج) : نبت له ورق فإذا يبس طار . ونبت زجل : صوتت فيه الريح .

(٣) زيادة عن نوادر الأصول للترمذي الحكيم .

إلى البحر، فقال : يا خَنّاس، فحيي فأجابه. فجاء به إلى حواء الثالثة، وقال : اكفليه. فنظر، إليه آدم، فذبحه وشواه، وأكلاه جميعا. فجاء إبليس فسألها فأخبرته [حواء][1]. فقال : يا خَنّاس، فحيي فأجابه [فجاء به] من جوف آدم وحوّاء. فقال إبليس : هذا الذى أردت، وهذا مسكنك فى صدر ولد آدم؛ فهو ملتقم قلب ٱبن آدم ما دام غافلا يوسوس، فإذا ذكر الله لفظ قلبه وانخنس. ذكر هذا الخبر الترمذىّ الحكيم فى نوادر الأصول بإسناد عن وهب ابن منبه. وما أظنه يصح، والله تعالى أعلم. ووُصِف بالخناس لأنه كثير الاختفاء؛ ومنه قوله تعالى : « فلا أقسِم بِالخُنَّسِ »[2] يعنى النجوم، لاختفائها بعد ظهورها. وقيل : لأنه يَخْنِس إذا ذكر العبدُ اللهُ؛ أى يتأخر. وفى الخبر " إن الشيطان جاثم على قلب ٱبن آدم، فإذا غفل وَسْوس، وإذا ذكر اللهَ خَنَسَ " أى تأخر وأقصر. وقال قتادة : « الخَنّاس » الشيطان له خرطوم كخرطوم الكلب فى صدر الإنسان، فإذا غفل الإنسان[3] وسوس له، وإذا ذكر العبد ربه خَنَس. يقال : خَنَسْتُهُ فخَنَس؛ أى أخرته فتأخر. وأَخنسته أيضا. ومنه قول أبى العلاء الحضرمىّ — أنشد رسول الله صلى الله عليه وسلم — :

وإنْ دَحَسُوا بالشّرّ فاْعفُ تكرما * وإنْ خَنَسُوا عندَ[4] الحديثِ فلا تَسَلْ

الدَّحْس : الإفساد. وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الشيطان واضع خَطْمه على قلب ٱبن آدم، فإذا ذكر اللهَ خَنَس، وإذا نسِى اللهَ التقم قلْبه فوسوس ". وقال ٱبن عباس : إذا ذكر اللهُ العبدَ خَنَس من قلبه فذهب، وإذا غفل الْتقَم قلبه فحدّثه ومنّاه. وقال إبراهيم التيمىّ : أوّل ما يبدو الوسواس من قِبل الوضوء. وقيل : سمى خَنّاسا لأنه يرجع إذا غَفَل العبدُ عن ذكر الله. والخَنَس : الرجوعُ. وقال الراجز :

وصاحبٍ يمْتَعِسُ[5] امتِعاسا * يزدادُ إن حَيَّيْتُه[6] خِناسا

---

(١) زيادة عن الترمذى الحكيم.
(٢) آية ١٥ سورة التكوير.
(٣) فى نسخة من الأصل : « ابن آدم ».
(٤) فى اللسان : « عنك ».
(٥) يمتعس : يتحرك.
(٦) فى بعض الأصول « جنته » وبعضها « جنته » وفى بعضها بدون إعجام.

وقد روى ابن جُبير عن ابن عباس في قوله تعالى : « الوسواس الخناس » وجهين : أحدهما — أنه الراجع بالوسوسة عن الهدى — الثاني — أنه الخارج بالوسوسة من اليقين .

قوله تعالى : ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾

قال مقاتل : إن الشيطان في صورة خنزير، يجري مِن ابن آدم مجرى الدم في العروق، سلّطه الله على ذلك، فذلك قوله تعالى : « الذي يُوَسْوِس في صدورِ الناس » . وفي الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: "إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم" . وهذا يصحح ما قاله مقاتل . وروى شَهْر بن حَوْشَب عن أبي ثعلبة الخُشَنيّ قال : سألت الله أن يريني الشيطان ومكانه من ابن آدم فرأيته، يداه في يديه، ورجلاه في رجليه، ومشاعبه في جسده؛ غير أن له خَطْما كخطم الكلب ، فإذا ذَكَر الله خنس ونكس ، وإذا سكت عن ذكر الله أخذ بقلبه . فعلى ما وصف أبو ثعلبة أنه متشعب في الجسد؛ أي في كل عضو منه شعبة . وروى عن عبد الرحمن بن الأسود أو غيره من التابعين أنه قال — وقد كبِر سِنه — : ما أمِنت الزنى وما يؤمنني أن يدخل الشيطان ذكره فيوتده! فهذا القول ينبئك أنه متشعب في الجسد، وهذا معنى قول مقاتل . ووسوسته : هو الدعاء لطاعته بكلام خفيّ، يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع صوت .

قوله تعالى : مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

أخبر أن الموسوِس قد يكون من الناس . قال الحسن : هما شيطانان؛ أمّا شيطان الجنّ فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطان الإنس فيأتي علانية . وقال قتادة : إن من الجنّ شياطينَ، و إن من الإنس شياطين؛ فتعوّذ بالله من شياطين الإنس والجنّ . وروى عن أبي ذرّ أنه قال لرجل : هل تعوّذت بالله من شياطين الإنس؟ فقال : أوَمن الإنس شياطين؟ قال : نعم؛ لقوله تعالى: « وكذلك جعلنا لِكل نبي عدوا شياطِين الإنسِ والجن »[1] ... الآية . وذهب قوم إلى أن الناس هنا يراد به الجن . سموا ناسا كما سموا رجالا في قوله : « وأنه كان رِجال مِن

(١) آية ١١٢ من سورة الأنعام .

الإِنسِ يعوذون بِرِجالٍ مِن الجِنّ »[1] — وقوما ونفراً[2] . فعلى هذا يكون « والنَّاسِ » عطفا على « الجِنةِ » ، ويكون التكرير لاختلاف اللفظين . وذكر عن بعض العرب أنه قال وهو يحدّث : جاء قوم من الجن فوقفوا . فقيل : مَنْ أَنتمْ ؟ فقالوا : ناس من الجن . وهو معنى قول الفرّاء . وقيــل : الوسواس هو الشيطان . وقوله : « مِن الجِنــةِ » بيان أنه من الجن « والنَّاسِ » معطوف على الوسواس . والمعــنى : قل أعوذ برب الناس من شر الوسواس ، الذى هو من الجنة ، ومن شر الناس . فعلى هذا أمِر بأن يستعيذ من شر الإنس والجن . والجِنّة : جمع جِنّيّ ؛ كما يقال : إنس وإنسيّ . والهاء لتأنيث الجماعة . وقيل : إن إبليس يوسوس فى صدور الجن ، كما يوسوس فى صدور الناس . فعلى هذا يكون « فى صدور الناس » عاما فى الجميع . و « من الجنة والناس » بيان لمـا يوسوس فى صدره . وقيل : معنى « مِن شر الوسواسِ » أى الوسوسة التى تكون من الجنــة والناس ، وهو حديث النفس . وقد ثبت عن النبيّ صــلى الله عليه وســلم أنه قال : ” إن الله عز وجل تجاوز لأمتى عما حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به “ . رواه أبو هريرة ، أخرجه مسلم . فالله تعـالى أعلم بالمراد من ذلك .

---

(١) آية ٦ سورة الجن .

(٢) وذلك فى قوله تعـالى : « وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن ... » آية ٢٩ سورة الأحقاف .

خاتمة

بعون الله وتوفيقه ، تمت هذه الطبعة الثالثة لتفسير الإمام القـرطبى (الجامـع لأحكام القرآن) ، بمطابع الهيئة المصريـة العامـة للكتاب ، فى ١٠ جمـادى الأولى ١٤٠٨ هـ الموافق ٣١ ديسمبر ١٩٨٧ م . وهى طبعة منقحة ومدقّقه ، مأخوذة عن الطبعة الأصلية لدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة .

ويسعد الهيئة العامة للكتاب أن تصدر هذه الطبعة الجديدة فى عصر النهضة الكبرى التى يقودها الرئيس « محمد حسنى مبارك » .

والله تعالى يوفق الهيئة إلى إصدار المزيد من عيون التراث فى الدين واللغة والأدب .

والله ولى التوفيق .

د . سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٨٦١ /١٩٨٨

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ١٦٨٠ - ٧